في الفهم والتربية ١

فهم الإسلام

في ظلال الأصول العشرين

للإمام الشهيد

حسن البنا

تأليف

جمعة أمين عبد العزيز

دار الدعوة

فهم الإسلام

في ظلال

الأصول العشرين

الطبعة الخامسة

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع القانونى

١٩٩٠/٤٧٨١

الترقيم الدولى: 977-253-001-5

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى: ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت: ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨ - فاكس: ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة: ت: ٣٨٣٢٧٤٧

في الفهم والتربية

«١»

فهم الإسلام

في ظلال
الأصول العشرين

للإمام الشهيد

حسن البنا

تأليف

جمعه أمين عبد العزيز

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٥].

صدق الله العظيم

قال ﷺ : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه».

حديث صحيح

صدق رسول الله ﷺ

إهـداء

- إلى الذين أراد الله بهم خيرا ففتح عليهم باب العمل وأغلق عنهم باب الجدل.
- وإلى الذين أحيوا الحق بذكره وأماتوا الباطل بهجره.
- وإلى الذين يحسنون الظن بإخوانهم فيلقون إليهم بالثمر.
- وإلى كل من علمنى وأخذ بيدى وسرت معه طريق الدعوة إلى الله.
- وإلى أبنائى وأسـرتى ليواصلوا مـسيرتى بـهذا الفهم الـدقيق والإيمان العمـيق والحب الوثيق والعمل المتواصل.

إلى هؤلاء جميعا

أهدى سطورى لعلهـا تكون لبنة يعلو بها صرح الدعـوة حتى لا ينقطع عـملى بعد موتى ولعلها تكون من العلم الذى ينتفع به.

اللهم آمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

المقدمة

لا يشك مسلم رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا. أن الإسلام هو روح هذه الأمة، ومبعث حياتها، وقوام رشدها، به نحيا، وله نعيش وبدونه تنتهى الحياة﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ....﴾[الأنعام الآية: ١٢٢].

فنحن قبل الإسلام كنا موتى فبعث فينا الحياة الطيبة الآمنة المطمئنة، فأصبحنا خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله.

لذلك فإن الذين يريدون سلب هذه الأمة دينها إنما يريدون سلب الروح من الجسد ليهلك ويموت، ومن هنا فإن استعادتنا لشخصيتنا الإسلامية التي افتقدناها هي استعادة لهذه الروح التى تسرى فى كياننا، فتبعث فيه الحياة﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ...﴾[الشورى الآية: ٥٢].

والتيارات التى تحاول سلب روحنا، والمعادية لإسلامنا كثيرة ـ قديما وحديثا ـ وهى تتزايد يوما بعد يوم، وليس فى هذا ما يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب؛ لأن أعداء الحق كثرة في كل زمان ومكان ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف: ١٠٣] ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾[الأنعام :١١٦] فالوحدة الوحدة، والتعاون التعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، والحذر الحذر والوعى الوعى لمكائد الأعداء.

وهذه التيارات المعادية للإسلام تمثلت اليوم فى الصهيونية الماكرة، والصليبية الحاقدة، والشيوعية الملحدة، ولقد تفرعت من الصليبية بالذات تيارات خبيثة كالاستشراق الذى تعرف على الأرض والبشر ثم التبشير الذى أراد أن يهز ثقة المؤمن بدينه، ثم الاستعمار بجيوشه وحقده للقضاء على العالم الإسلامى الذى مر بمراحل يجدر بنا أن نشير إليها:

أولاً: مرحلة الإشهاد بتطبيق الكتاب والسنة نصا وحرفا كمنهج حياة.

ثانيا: مرحلة الاستعمار بعد الاضمحلال، ثم انحسر بفضل الله ثم بفضل المجاهدين الصادقين فى كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى، ولكن للأسف الشديد فقد نجح المستعمر بنفوذه العسكرى والسياسى الغربى فى تغيير طبيعة المجتمع المسلم.

ثالثاً: مرحلة التبعية والاحتواء.

والتى حرص المستعمر على بناء قاعدته من خلال المدرسة، والصحيفة، والثقافة، والنفوذ الاجتماعى، وانتهت هذه المرحلة برأس جسر للعدو فى فلسطين المسلمة.

ومما يؤسف له أن هذه المرحلة انتهت أيضا بجمود الدولة العثمانية فى سنواتها الأخيرة لِوَهَنِ قواها المادية وضعف أدوات الحرب والعتاد وعلومها، والانفلات من فريضة الجهاد، فضلا عن ضعف التيار الفكرى الإسلامى، وعدم اتصاله بمنبعه وهو القرآن تربية وتوجيها فتغيرت المفاهيم والعادات والتقاليد وأدخل فى الإسلام ما ليس منه فى عقيدته وعبادته ونظامه إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية، ومن ذلك اليوم وهناك صراع بين الذين يريدون علوا فى الأرض وفساداً وبين من يريدون للإسلام مجدا وحكما ونظاما.

فى هذا الجو المشحون بالأفكار والقيم والتصورات والمفاهيم الخاطئة للإسلام سواءً من الذين اجتزءوه أو الذين فصلوا بين عقيدته وشريعته، أو الذين تركوه بالكلية إلى النظم الوضعية وهم يحملون اسمه وشهادته أو من الذين نشروا الصوفية التى انحرف بعض أصحابها عن الفهم السليم أو الشيوعية التى حادّت الله ورسوله وأصبح لها وجود فى مجتمعات المسلمين - أقول فى هذا الجو - هيأ الله للدعوة الإسلامية رجلا جدد أمر دينها، ونادى فى الناس أن آمنوا بربكم وعودوا إلى منهاج رسولكم ﷺ، والسلف الصالح من أمتكم، ومن يومها مضت هذه اليقظة الإسلامية يرشدها الإمام حسن البنا رضوان الله عليه إلى الميادين الآتية:

أولاً: تحرير العقيدة من زيف الجمود وما داخلها من أوهام وشبهات، مصححا التصور السليم للكون والإنسان والحياة ليتحقق التوازن والاعتدال.

ثانياً: تخليص العقل المسلم من التركيز على النظرة الجزئية للإسلام؛ لأن ذلك يؤدى إلى تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات مما يخل بالنظرة الشمولية للإسلام.

ثالثاً: كسر الجمود الذى أصاب العقل المسلم من غلق باب الاجتهاد الذى مثل الإبداع والعطاء عند الإنسان وأوقعه فى التقليد، وحرم المسلمين من الحلول الإسلامية لمشاكل العصر، الأمر الذى يقتل الإبداع ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان، ويوقع فى التقليد ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود إخوانه المسلمين، فكان لابد من نظرة شمولية للإسلام ليستعيد بها المسلم تصوره السليم.

وبهذا الفهم المتكامل يستطيع أن يستعيد قدرته على المقاومة والدفاع عن دينه

وعقيدته، فيبذل المهج والأرواح لتكون كلمةالله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والجدير بالذكر أن الإمام الشهيد حسن البنا أعاد بدعوته المتكاملة هذا الفهم السليم الذى كاد أن يندثر، وحملت جماعة الإخوان المسلمين هذا الفهم ودعت له، وتحملت ما تحملت فى سبيل تثبيته فى المجتمع، فكم من شهيد سقط فى سبيله وأولهم مرشدها ومؤسسها حسن البنا ألحقنا الله به فى الصالحين وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا ـ وكم من دماء سفكت، وكم من أطفال يتمت وكم من نساء ثكلت؟ وكم وكم وندخر ذلك عند الله تعالى حتى ثبت هذا الفهم بفضل الله تعالى فى مجتمعنا اليوم وأصبح أمرا بديهيا لا يختلف عليه اثنان.

ولكن الذى نريد أن نلفت النظر إليه هى التحديات والفلسفات والنظريات التى تريد أن تنقض على الإسلام فتهدمه، هذه التحديات قامت عقبة كئوداً أمام الدعوة وغزت المجتمع فى هذا الزمان بل وما زال أثرها فينا حتى اليوم:

قالوا: إن التمسك بالإسلام والعمل بمقتضى شريعته نوع من التعصب ولون من ألوان التجاهل لغير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية، مما دفع كثيرا من حكام المسلمين بعد أن انطلت الحيلة عليهم أن يتحاكموا إلى النظم الوضعية وعطلوا الشريعة الربانية.

وادعوا بأن الدين الإسلامى دين ناسب العصر الذى جاء فيه والبيئة التى عاش فيها رسول الله ﷺ، ويرومون بذلك أن تغزو هذه الفكرة الخبيثة عقول المسلمين حتى يصبح دينهم محليا وليس عالميا، وأنه عاجز عن تلبية حاجات البشر زمانا ومكانا فلا هو شامل ولا هو عام.

ثم ركزوا بعد ذلك على أن التدين من الأعمال الشخصية الفردية الخاصة بالإنسان فى ذاته منفردا عن الجماعة، ومعنى ذلك وباختصار شديد أن الدين الإسلامى لا صلة له بالجماعات البشرية فى نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، وبذلك عزلوا دين الإسلام عن الحكم وقتلوا الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأصبحنا نسمع من يقول: الدين لله والوطن للجميع، دع مالقيصر لقيصر وما لله لله، وتناسوا قول الله ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ...** ﴾[الأنعام الآيات: ١٦٢-١٦٣].

وكثرت الفتن بعد ذلك، وانتشرت الشبهات، والدعاوى الباطلة والجدل العقيم، ورحم الله امرءاً عرف زمانه واستقامت طريقته فكان البنا الذى أعاد البناء وأقام الأساس بعد أن تأكد له أن المشكلة ليست سهلة كما يظن البعض، فإن ما أصاب العقل المسلم

من صدوع ورضوض وكسور وتقطيع، وغزو فكرى صدّه عن المضى إلى غايته، وحال بينه وبين رسالته لا يمكن أن يعالج فى يوم وليلة بمحاضرة عابرة، أو درس هنا ودروس هناك، أو موعظة وقتية ثم يمضى الواعظ لحال سبيله، أو مقال منشور، أو مؤلف مكتوب ولكنها التربية الطويلة، والجهد المضنى الذى يصنع الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهو يحتاج إلى:

المنهج السديد، والعمل الدءوب، والخلق القويم، والنفس الطويل، والصبر الجميل، والموعظة الحكيمة، والوعى المستنير، والمتابعة المتأنية.

وأى دعوة صادقة لا يتأصل فهمها ويصدر عن الكتاب والسنة هى دعوة مبتوته اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فإذا ما اتصلت بمعينها ومصدر غذائها وحياتها أصبح أصلها ثابت وفرعها فى السماء توتى أكلها كل حين بإذن ربها.

ولكى تتعرف على أى دعوة من الدعوات وتزنها بميزان ثابت معروف لابد من الوقوف على أمور ثلاثة:

١ـ تصوراتها ومعتقداتها. **٢ـ أهدافها وغاياتها.**

٣ـ وسائلها لتحقيق الأهداف والغايات.

وبفضل الله وحده فقد بيّن الإمام الشهيد حسن البنا فى رسائله ذلك تبيانا لا يحتاج إلى إيضاح فلا غموض فيه من حيث: وضوح الفكرة، ووحدة التصور والسلوك، ووحدة الهدف والمصير، ووحدة الغاية ووسائل تحقيق ذلك كله.

ولتأصيل الدعوة كانت رسالة التعليم والتى قال الإمام الشهيد فى مقدمتها:

إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها أو يموتوا فى سبيلها، وهى ليست دروسا تحفظ لكنها تعليمات تنفذ، أما غير هؤلاء فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات ومظاهر وإداريات، ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات.

ثم حدد للشخصية المجاهدة معالم وصفات أخلاقية سميت بأركان البيعة وهى:

الفهم، الإخلاص، العمل، الجهاد، التضحية، الطاعة، الثبات، التجرد، الأخوة، الثقة.

وخص الفهم بأصول تعين المسلم على وضوحه حتى لا يبنى على الظن والهوى، هذه الأصول: هى أصول الفهم وليست أصولا للدين أو الإسلام كما تصور البعض.

وهى تعين المسلم ـ كما قلنا ـ على تحديد إطار للفهم السليم حتى يتوحد التصور والسلوك ليكون كالشمس فى رابعة النهار.

ذلك لأن أخطر ما يؤثر فى بناء شخصية المسلم، ويقلل أو يزيد من فاعليته فى مجتمعه الذى يدعو فيه درجة وضوح فكرته ودعوته، فإذا ما وضحت هذه الدعوة لديه أخذ يدعو إليها كل قلب متفتح على أنها الخير المحض الذى يؤمن به.

لهذا كان لابد للداعى إلى الله أن يقدم التصور السليم الذى يعتقده للناس بالوضوح الذى لديه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ألا ترى إلى ربعى بن عامر حين خاطب رستم قائد الفرس كان واضحا أجلى الوضوح حين قال: إن الله ابتعثنا لنخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وها أنذا ـ بعون الله وحده ـ أحاول جهدى أن أدلى بدلوى وإن كان ماؤه قليل. ولكن يكفينى شرفاً أن أخط بعض ما فهمت مما تركه الإمام الشهيد حسن البنا حول فهم الإسلام فى ظلال الأصول العشرين، وما كنت أفكر أو يخطر ببالى أن يكون لى قلم يتجاسر أو يخط سطورا حول هذا الموضوع لولا إلحاح إخوانى بأن أقوم بجمع ما قلته فى محاضرات سبقت ليكون كتاباً يستفاد به.

فاحترمت رغبتهم وأنا أعلم أن لى أساتذة كرام وعلماء أفاضل هم أهل للتصدى لهذا الموضوع وأستسمحهم عذراً فيما كتبت فما كان لمثلى أن يتناوله ولكنى استخرت الله تعالى فشرح صدرى فكان هذا الكتاب الذى يين يديك والذى أسأل الله تعالى أن يكون فى ميزان الحسنات يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فإن أصبت فمن توفيق الله تعالى لى وإن كانت الأخرى فأسأل الله أن يغفر ذنبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا هو. والله من وراء القصد وهو يهدى إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مولد الرسول ﷺ

الفقير إلى الله

١٢ من ربيع الأول ١٤١٠هـ

وراجى عفو ربه

١٢ من أكتوبر ١٩٨٩م.

جمعه أمين عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات وبعونه يوفق العبد لما يحب ويرضى وبشكره يزيده من فضله وبالتوكل عليه يكن حسبه، وبتقواه يعلمه ما لم يكن يعلم، فالحمد لله حمداً يوافى نعمه ويدافع نقمه ويكافئ مزيده. وأصلى وأسلم على نبى الهدى الذى أمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر وأحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث ووضع عنا إصرنا والأغلال التى كانت علينا، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون.

أما بعد:

فما كان يجول بخاطرى يوما أن يكون لى الشرف فى أن أكتب كتابا أو أسطر سطورا أشرح فيها دعوة الإخوان المسلمين وأبين ما تركه الإمام الشهيد حسن البنا من فهم للإسلام بأصوله العشرين محاولا بهذه السطور ـ بتوفيق الله وحده ـ أن أنفى بها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وأقول بإيمان يملأ القلب: هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين.

والحق يقال: أنى ما كنت أتوقع هذا الإقبال المنقطع النظير على اقتناء هذا الكتاب حتى أن الطبعة الأولى منه نفدت بعد أيام قليلة من صدوره لم تصل إلى الشهرين ولهذا لم تتح لى الفرصة الكافية لسماع توجيهات الأساتذة الأفاضل وملاحظات الأخوة الكرام الذين تفضلوا بقراءته لأستكمل بذلك نقصاً قد فاتنى أو أصوب خطأ زل القلم به.

ولذا كانت هذه الطبعة الثانية كأختها الأولى سواءً بسواء لم أزد عليها حرفا واحدا لقصر المدة والإلحاح فى سرعة الطبعة الثانية تلبية لرغبات طالبيها، فعذرا لعدم إضافة جديد، أو تصويب خطأ، والحمد لله الذى تفضل علينا بهذه الثقة والاهتمام بهذا الفكر الأصيل الذى يقدم الإسلام بفهم دقيق، وإيمان عميق، وحب وثيق، وعمل متواصل، ووعى كامل.

ولعل يكون فى الوقت متسعا إن كان فى العمر بقية أتلقى فيه التوجيهات القيمة من العلماء الذين نحترمهم ونكن لهم كل حب واحترام ونثق فيما يقولون، والملاحظات السديدة من الأخوة الذين هم كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ليكون كل ذلك أمام

الأعين للاستفادة به فى طبعة قادمة بإذن الله تعالى.

فشكراً لله على هذه الثقة وهذا الإقبال على فكر جماعـة صبرت وصابرت محتسبة على ما أصابها فى سبيل الله لتكون كلمـة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى لا نريد جزاء ولا شكورا ،سائلا الله أن يمكن لدينه فى الأرض ويفتح له قلوب الناس.

وإلى أن نلتقى مع طبعـة قادمة بمشيئة الله تعـالى. لكم منى خالص الحب ونسألكم خالص الدعوات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه

جمعة أمين عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومَنْ اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد...

فلقد كنت آمل أن تكون هذه الطبعة قد زيدت أفكارا ونقحت أخطاءً بعد مرور ما يزيد عن العام على الطبعة الأولى، وكنت فى شوق لأستمع إلى توجيهات أساتذتى الكرام، وعلمائى الأفاضل، وإخوانى الأحبة، لكنى لم أتلق أية تعليقات أضيفها أو ملاحظات أحذفها وكنت كلما سألنى إخوانى عن كتابى هذا لا أجد إلا استحسانا لما كتبت ورضاً لما سطرت وأوضحت، فشكرت الله على هذا التوفيق ودعوت الله أن يغفر تقصيرى ويحل عقدة من لسانى؛ ليتضح بيانى، والحق يقال: وهذا من نعم الله على ما كنت أتصور هذا الإقبال الشديد على هذا الكتاب بالذات فى مشارق الأرض ومغاربها، سواء كان فى بلادنا العربية والإسلامية التى تلقته بالقبول الحسن، بل فيها مَنْ طبعه فى بلده ونشره بين إخوانه فأثلج صدرى، وأسال دمعى فسجدت لله داعيا أن يكون ذلك فى ميزان الحسنات، ومما زاد سعادتى استئذان الإخوة فى أوربا وأمريكا فى ترجمته إلى اللغة الإنجليزية ليعمّ نفعه ليشمل الإخوة المسلمين غير الناطقين باللغة العربية، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

وبالرغم من حرصى على مراجعته وتنقيحه لأضيف جديدا أو أحذف مكررا، أو أصحح خطأ، إيمانا منى بأنه ما كتب إنسان قط كتابا من قلبه إلا وقال فى نهاره ليتنى أضفت كذا، ليتنى حذفت كذا لأنه تأليف إنسان لا تصل سطوره إلى الكمال أبدا، ليبقى كتاب الله الخالد « القرآن الكريم» يتحدى العقول على مَرّ الزمان وهو هو ما زيد ولا نقص منه. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، وهذا أكبر إعجاز الزمان أتى به حبيب الرحمن محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه الصادق القائل« **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**»، إلا أن نفاد الطبعات بصورة سريعة، وإلحاح الإخوة فى الطلب لاقتنائه دفع الناشر«**دار الدعوة**» الحبيبة إلى الإسراع فى إعادة طبعة مرة أخرى تلبية للرغبات، ونشراً للأفكار التى أوجزها الإمام البنا إيجازاً هو السهل الممتنع بحق، والذى شرفت بشرح بعضه وتبيانه،

غير أنى لم تتح لى الفرصة لمراجعته كما ينبغى، فضلا عن عدم تلقى أى تعليقات أو توجيهات تدفعنى للإضافة أو الحذف وإنى لمنتظر.

ومما زاد من فرحتى، ورفع من قيمة كتابى، هذه المقدمة القيمة التى شرفنى بها أستاذ جليل، وعالم فاضل، ومرب كريم، وداع فقيه، وأخ فى الله حبيب هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله الخطيب، وهو من هو فى علمه وورعه وفقهه وتربيته ومواقفه وجهاده ـ ولا أزكى على الله أحدا والله حسيبه ـ فهذا مما زاد فى اطمئنانى لما كتبت وثقتى فيما سطرت وصوابى فيما ألفت؛ لأنها تزكية عالم حصيف، ومجاهد كريم، فهى شهادة أعتز بها تدفعنى إلى مزيد عناية لهذا الكتاب فى طبعات أخرى قادمة بمشيئة الله تعالى إن كان فى العمر بقية.

والله أسأل أن يوفقنا جميعا لتجلية ما تركه الإمام البنا رضوان الله عليه من كنوز ونفائس ربت رجالا ﴿ **صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾[الأحزاب:٢٣] وصنعت جماعة ملء السمع والبصر ترث طريقا أوضحه، ومنهاجا بينه بالرغم من قلة مؤلفاته وكتاباته، وما كان قياس عظمة الرجال تعدد ما تركوا من كتب، إنما تقاس عظمة الرجل بما خلَّف من رجال يواصلون مسيرته ويحققون أهدافا نادى بها هى من مشكاة رسول الله ﷺ دون تغيير أو تبديل أو إفراط أو تفريط. فجزاه الله عنى خيرا وألحقنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وإلى لقاء فى طبعة أخرى أسأل الله فيها توفيقا إلى الأحسن والأصوب، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والله من وراء القصد وهو يهدى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

٢٨ من ربيع ثانٍ ١٤١٣هـ

٢٥ من أكتوبر ١٩٩٢م

الفقير إلى الله

وراجى عفو ربه

جمعه أمين عبد العزيز

تقديم فضيلة الشيخ

محمد عبد الله الخطيب

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين - وبعد.

فقد جاء فى الأثر « العلم علمان: علم على القلب فذاك هو العلم النافع، وعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم». وبفضل الله فإن من مميزات العاملين للإسلام، إنهم دائماً يذكرون النعمة التى وكل الله إليهم رعايتها وحفظها، ويعون تماماً المبادئ التى كلفوا بحراستها، ويسعدون دائما. ويحمدون الله حيث تتضح لهم الرؤية، ويبتعدون عن التلبيس أو الانحراف، إن الأقدار الإلهية التى وضعت أقدامهم على الطريق الذى خطه سيد الخلق صلى الله عليه وسلم تحرسهم وترعاهم وصدق الله العظيم: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [سورة محمد: ١٧].

إن هؤلاء الرجال الأبرار الذين يحملون عبء الدعوة إلى الله على بصيرة من بعد السلف الصالح الكرام، يحسون بالسعادة؛ لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ووفقهم الله حين وقفوا عند حدود الالتزام بمنهج الله والذود عنه، ورد أمورهم دائما إلى الله ورسوله، وكل أعمالهم وأقوالهم تخرج من القلب وإلى القلب والحمد لله، فليس هناك مجال لغش، ولا مداخل للشيطان أو الهوى، ولا تنازل من أجل مغنم قريب أو بعيد أو غرض من أغراض الدنيا، لأنهم طلاب آخرة. وهؤلاء هم الذين نجلس إليهم ونتلقى عنهم، ونصغى إلى حديثهم، وأكثر من هذا، أنهم دائما بإذن الله أقوى من الدنيا وعواصفها، وأرسخ من المغريات والعوائق التى تقعد بالبعض أو تحولهم فى منتصف الطريق..

إن أقدام الرجال الصاعدين إلى الذرى والقمم قد يستل منها الدماء لصعوبة الطريق، لكن كل قطرة تجرى هنا أو هناك لها ثقلها ووزنها عند الله فى الدنيا والآخرة.

وإذا تفضل الله علينا وهدانا إلى الطريق وفقنا لمتابعة السير عليه، فقد طوقنا بكرامته، فما عند الله خير وأبقى...

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦].

من هذا المنطلق ننظر إلى كتّاب الحركة الإسلامية وروادها، وحين نتعامل مع دعاتها يسيطر علينا هذا الشعور، وإن ما قلته وبدأت به من وصف للرجال الذين تضعهم العناية الإلهية على الطريق. أحسب أنهم ينطبق عليهم وعلى الأخ الأستاذ جمعة أمين، فهو من رجال هذه الدعوة المباركة الأبرار، ومن القلائل الذين خرجتهم هذه الجامعة العتيدة. جامعة الإسلام، ومدرسة الإخوان، نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحدا.

وقد شرح الله صدره فأقدم على شرح رسالة التعاليم، وأظهر لنا جوانب عظيمة مما حوته من توجيهات وأفكار فى البناء والتربية، وهى رسالة بالغة الأهمية، ولها دورها فى حياة الإخوان العاملين المجاهدين، من قديم، ولقد أفاض فى بيان الأصول العشرين، فجاء شرحه لها أضوأ من الشمس، وأوضح من فلق الصبح، وأبين من غرة النهار.

لقد تحدث المؤلف عن كل أصل وبيّن فى وضوح الأهداف المقصودة منه، ثم مهدّ السبيل للوصول إلى تلك الأهداف، وأشار إلى المناهج المقصودة فى جانب العقيدة أو العبادة أو الحركة، كما أشار إلى مصادر التلقى المعتمدة التى يجب على كل مسلم أن يرد أمره دائما إليها، وأن يتلقى منها، كما كشف عن المصادر التى لا تعتبر أبدا من أدلة للأحكام الشرعية، ومنها شطحات الصوفية وغيرها كالرؤى والأحلام، والكشف والإلهام، ثم أشار إلى موقف الإسلام من التمائم والودع والرقى، وقراءة الفنجان. وأفاض فى ذلك وبيّن للقارئ الأسلوب الصحيح لإنكار المنكر، والشروط التى قررها الفقهاء لذلك، والتى يجب أن تتوافر فيمن يتصدى لهذا الأمر، ونقل عن أئمة السلف الرأى السديد فى هذا، لعل البعض من الأدعياء يعرفون حدود الله ويقفون عندها،وأشار إلى معنى السلفية، وبيّن المقصود منها، ووضع الضوابط الصحيحة فى هذا الأمر، من غير تفريط ولا إفراط، وهكذا مضى الأستاذ المؤلف مع كل أصل من الأصول العشرين يحدد المراد منه ثم يشرحه فى ملحمة شاملة مستدلا من الحديث ومن القرآن ومن عمل السلف الصالح وعن أقوال الفقهاء، حريصا على بيان الأحكام الشرعية الصحيحة، وما تحتاج الدعوة منّا من فهم صحيح شامل وعقيدة ربانية وتوجه سليم، كما تحدث عن البدعة والضلالة التى يجب أن نحاربها ولا نتهاون فى أمرها، وعن البدع المختلف فى الحكم عليها وفرق بينهما فى جوانب كثيرة هامة ومفيدة لكل مسلم يحرص على طلب الحق والعمل به خاصة الشباب، والحق أن دعوة الإخوان تسع جميع المسلمين على ظهر الأرض على اختلاف اتجاهاتهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وتسعهم وتؤلف بينهم، بل وتقيمهم جميعا للعمل صفا واحدا، لإقامة فرائض الله، التى من جملتها أن تكون كلمة الله وحده هى العليا.

وإن رسالة التعاليم بقـواعدها تجمع المسلمين وتجعلهم جسدا واحدا وفـهما واحدا، وتنمى بل وتثـرى حياة كل من رغب فى العـمل للإسلام، تنمى فكـره، وتجدد فهـمه الصحيح للإسلام، وتدفعه إلى الأمام بعيدا عن الجدل والفلسفة التى لاطائل من ورائها، إن رسالة التعـاليم تعمل لتحديد الشـخصية الإسلامـية العاملة المجاهدة، وتضـعها فى إطارها الصـحيح، الإطار الذى تتـمثل فيـه الإسلام عـقيـدة وفكرا وأخلاقا وسـلوكا، والمجتمع الذى يلتزم ويقتنع بالإسلام كنظام وشريعة وحياة نزل بها الوحى من عند الله ـ يقول الإمام الشهيد:

« نحن نعتـقد أن أحكام الإسلام وتعـاليمه شـامله، تنظم شئـون الناس فى الدنيا والآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم: إنما تتناول الناحـية العبادية أو الروحية دون غيرها مخطئون فى هذا الظن، فالإسلام عـقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمـل، ومصحف وسيف، والقرآن الكريم ينطق بذلك كذلك، ويـعتبره من لب الإسلام ومن صحيحه، ويوصى بالإنسان فيه جميعه، وإلى هذا تشير الآية:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [سورة القصص: ٧٧].

إن مفاهيم الأصول العشرين كما حـددها الإمام الشهيد، وكما بينها المؤلف. ندرك منها أن دعوتنا إسلاميـة، وهذا يميزها عن المفاهيم الأخرى التى تريد أن تنطلق بالمسلمين من خلال فهم فـيه غلو أو تجاوز، وهى مفـاهيم لا تكاد تبدأ السير حـتى تتوقف، وإذا مضت فعلى غيـر الطريق السوى، وهؤلاء نناديهم جميعا تعـالوا الطريق الصحيح هنا، وأخيرا.. جزى الله إمامنا الشهيد خير الجزاء عن الإسلام وأهله، وجزى الله الأخ المؤلف الشارح لهذه الأصول والموضح لها خير الجزاء.

وتقبـل منه هذا العمل، وجـعله فى ميـزانه، وأكثر الله مـن أمثاله. من العـاملين الصادقين المجـاهدين والمربين، ونفـعنا الله بما قدم من علم وفـقه سديد لـدعوته، وإنى أطلب إلى الإخـوة أن يحرصـوا على قـراءة هذه الرسالة ودراسـتـها والاهتـمام بهـا، وفهمها. ثم العمل بعد ذلك والالتزام بكل ما ورد فيها. فهى عون لهم على المضى فى

طريق الدعوة ومن لم يفهم رسالة التعاليم، لم يعرف ما يريده« الإخوان المسلمون» من الأخ المسلم اليوم وغدا. . والله أكبر ولله الحمد.

اللهم اجعل عملنا كله صالحا
واجعله لوجهك خالصا
ولا تجعل لأحد فيه شيئا
اللهم آمين

القاهرة .. شبرا ١٠ ربيع ثان ١٤١٣هـ
٧ أكتوبر ١٩٩٢م

محمد عبد الله الخطيب

* * *

تعالوا إلى كلمة سواء

نود قبل أن نبدأ الحديث فى « **فهم الإسلام فى ظلال الأصول العشرين**» للإمام الشهيد حسن البنا أن نتفق على قواعد كلية يجب أن تكون محل اتفاق بين المسلمين إذا عرضوا أمرهم للنقاش.

لأننا لاندرى لما هذه الحرب الضروس. والهجوم الذى لا ينقطع على فكر الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ فى أماكن متفرقة تزامنت فى وقت واحد من أناس من جلدتنا وممن يدافعون عن إسلامنا وعقيدتنا ولا ندرى لما أصبح هذا الفكر خطراً على الدعوة الإسلامية فى أيامنا هذه بالذات، وحصوننا مهددة من الداخل والخارج على حد سواء، والأمر جد لا هزل فيه يحتاج منا أن نهتم بعظائم الأمور ونترك سفاسفها.

إننا نفعل فيما بيننا ما عجز عنه أعداء الإسلام ولم يستطيعوا تحقيقه وحققنا لهم أهدافاً بأيدينا ما كانوا ببالغيها، حتى أصبح البعض منا يرى أن فكر الإمام البنا أخطر من فكر روسيا فى أفغانستان، وإسرائيل فى القدس، وأمريكا فى بلاد الإسلام، وفرنسا فى شمال أفريقيا، أو الصليبية فى جنوب السودان، وليت الأموال التى أنفقت فى الصد عن دعوة الإخوان المسلمين فى صفحات سودت للهجوم عليهم أُنفقت فى التبشير بالإسلام فى أفريقيا أو تعليم أبناء المسلمين فى بيشاور بباكستان، أو شراء سلاح للمقاتلين من أجل الإسلام فى كل مكان، أو حتى شراء حجارة لإرسالها لأطفال الحجارة فى فلسطين لكان خيراً لنا جميعا، إلا أن يكون فكر الإخوان المسلمين أخطر من ذلك وأعظم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

• إن الأمور ـ **يا أحبة** ـ المتنازع حولها ومن أجلها يترتب عليها التمزق وتفريق الشمل بل هى الحالقة التى لا أقول تحلق الشعر بل تحلق الدين فهل نتقى الله جميعاً فى إسلامنا؟ ونحب لله ونبغض لله ونعطي لله ونمنع لله حتى نستكمل إيماننا ويكون ميزاننا الذى نزن به الأمور هو ميزان السلف الصالح.

نسأل الله أن يجمعنا على كلمة سواء وأن يؤلف بين قلوبنا ويجري الخير على أيدينا جميعاً لنتعاون فيما اتفقنا عليه من أصول ويعذر بعضنا بعضا فى فروع ويعيد بناء أمة الإسلام من جديد إنه نعم المولى ونعم النصير.

وهيا إلى القواعد الكلية التى نود أن نتفق عليها جميعاً قبل أن نستعرض فهمنا للإسلام من خلال الأصول العشرين.

أولاً: عدم التعصب للرأى فى سبيل كسب الأنصار، وفرق بين التعصب والتمسك بالحق، فالتعصب يدفع الفرد إلى أن ينسب لغيره الضلال واضطراب العقيدة وينقد الدعاة ويلزمهم حتى ولو ارتكب فى حقهم جريمتى الغيبة والنميمة، بينما التمسك بالحق يصبغ صاحبه بالأخلاق الكريمة والكلمات العفيفة والموعظة الحسنة، والدعوة الحكيمة والمجادلة بالتى هى أحسن. ووجوب رد التنازع فى كل أمر إلى الله ورسوله.

ثانيا: لا يصح لفرد أو جماعة أن تدعى العصمة فيما تقول وتجعل رأيها - فى أمور الرأى - هو الحق وما عداه هو الباطل، أو تدعى أنها تملك الحسم فى الأمور الخلافية. بحيث يصبح الخروج على رأيها خروجاً عن الإسلام أو ضعفاً فى الاعتقاد فلا عصمة لأحد وكل يؤخذ من كلامه ويرد.

ثالثا: الأمور الخلافية لا إنكار فيها شرعا والتماس العذر فيها ليس كتماناً لحق أو انتقاضاً للعقيدة. لكنه تعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

رابعا: أن يكون منهجنا قائماً على تحرى الحق وبلوغ الصواب ليس استظهاراً لرأى أو محاولة إظهار هذا الرأى هو الصواب. ولكن نبحث عن الحق أين كان مصدره سواء ظهر على لسانى أو لسان خصمى، يقول الإمام الشافعى: ما ناظرت أحدا إلا رجوت الله أن يظهر الحق على لسانه، فالحق يقبل من كل من تكلم به.

خامسا: لا يجوز بل لايحل التشنيع والإرجاف على جماعة ما بسبب مسائل تحتمل وجوها فى الفهم والرأى ولا يحل فيها التكفير والتضليل والتفسيق لخطورة ذلك.

سادسا: لا يجوز بل لا يجب أن نبحث عن سقطات الآخرين ولا مواطن السقوط والضعف ونذيعها بين الناس لننفر الناس ممن يخالفنا، فليس هذا المنهج الإسلامى ولا بأخلاق المسلمين.

سابعا: الاتفاق العام على أصول المنهج لا يعنى بالضرورة الاتفاق على التفاصيل ومخالفة المرء لبعض فروع المنهج لا يخرجه عن صحة أصل هذا المنهج. فمثلا قالت السيدة عائشة قال رسول الله ﷺ عن رؤية الله نور أنّى أراه، بينما قال ابن عباس أنه ﷺ قال إنه رأى ربه بفؤاده فاختلفا وما خرجا عن أصل المنهج.

ثامنا: لا ينبغى الحكم على طائفة ما بأنها خارجة عن المنهج الصحيح بسبب خلاف جزئى مع اتفاقها على معظم الكليات، فالحكم باعتبار الغلبة والرجحان.

تاسعا: ضرورة التوسط والاعتدال حتى عند شنآن العداوة واستحكام الخلاف فلابد من الإنصاف.

فمثلا الصوفية يجب الإنصاف فى الحكم عليها لا المغالاة. يقول ابن القيم فى شطحات الصوفية: منهم من أساء الظن بالكلية وفرطوا، ومنهم من أحسن الظن وأفرطوا، وقال الحاكم فى مستدركه على الصحيحين: هم طائفة من المسلمين منهم أخيار ومنهم أشرار.

يقول ابن القيم: وكل أهل نحلة ومقالة يكْسُون نحلتهم ومقالتهم بأحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم بأقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك من الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ كما قيل فى هذا المعنى:

تقول هذا جنى النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت ذا قئ الزنابير
مدحا وذما وماجاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة وجرد قلبك من النفرة والميل، ثم اعط النظر حقه، ناظرا بعين الإنصاف ولا تكن ممن ينظر فى مقالة أصحابه ويحسن الظن بهم نظرا تاما بكل قلبه ثم ينظر فى مقالة خصومه ويسىء الظن بهم كنظر الشرر، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه و، لا يسلم من هذا إلا من أراده الله لكرامته وارتضاه بقبول الحق وقدقيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ... ولكنَّ عين السُّخْط تبدى المساويا

عاشرا: ضرورة الجمع بين النصوص التى قالها عالم من العلماء أو إمام من الأئمة بمعنى أننا قبل أن نتهم إماما أن عقيدته فاسدة أو لديه خطأ فى تصور معين ينبغى ألا نجترئ كلاما من كلامه ثم نعمم الحكم، ولكن ينبغى أن نجمع كل كلامه من متفرقات أقواله فإن أجمل فى موضع وفصَّل فى آخر فإننا نحمل المجمل على المفصَّل، وإن أبهم فى موضع وأوضح فى آخر، فيحمل المبهم على الواضح البين، وكذلك نحمل المطلق على المقيد وهكذا؛ ذلك لأن الاجتزاء قد يؤدى إلى خطأ فى الحكم فلو أنك علمت أن ابن القيم يقول بفناء النار والجنة بعد أن ينال المحسن إحسانه والمسئ جزاءه، وهذه مقولة الجهمية فهل تتسرع بالحكم على ابن القيم بأنه جهمى بالطبع لا يجوز ذلك.

حادى عشر: ضرورة احتمال كلام العالم على أحسن المحامل إحسانا للظن بأخيك المسلم، فإذا كان هناك كلام له وجوه باطلة وأخرى صحيحة نأخذ بالصحيح ونحسن الظن بهذا الإمام واسمع إلى ابن تيمية حيث تكلم بعض الصوفية فقال: من أحبه الله لم يضره الذنب. وهذا كلام له دلالة خطيرة يحمل الإرجاء فإذا بابن تيمية يفسره لصالح قائله ويقول: يقصدون أن من أحبه الله وفقه إلى التوبة والاستغفار حتى

لا يبقى على الذنب وهكذا حمله حملا جميلاً إحسانا بالظن بقائله.

ثانى عشر: إن عرض مسائل الخلاف فيما نختلف فيه مع غيرنا ينبغى أن يكون مستوعبا، أى يجب عرض جميع الجوانب كلها فلا نعرض جانبا ونترك آخر فلابد من الاستيعاب وتخير المقام الذى يقال فيه المسألة: « حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

ثالث عشر: الأئمة المشهود لهم بالإمامة فى الدين والتقى والورع والجهاد تنغمر هفواتهم فى حسناتهم وفضائلهم، ويجب أن نعرف أقدارنا فى العلم ولا نتسرع فى أمر الفتوى. قال الإمام السبكى: يجب أن نسلك الأدب مع الأئمة الماضيين ولا نخوض فيما وقع بينهم من خلاف، فإن القوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل ربما لا يُفهم بعضها فليس لنا إلا السكوت عما شجر ونأخذ الحق من سبيله.

رابع عشر: العناية بدراسة ومعرفة الفرق القديمة لا يلزمنا اليوم إلا بمقدار ما نتعرف على المنهج الصحيح الذى رد به سلف هذه الأمة على فرق الضلال لنجابه به الضلالات المعاصرة، فأهل السنة فى كل زمان واجهوا الباطل فى زمانهم.

واليوم هناك فرق ضالة حديثة كالإسماعيلية والبهائية والقاديانية والماسونية والماركسية وغيرها من الفرق الضالة التى ظهرت لحرب الإسلام، أليست هى الأولى بالمواجهة من الفرق القديمة التى اندثرت وليس لها وجود؟ إننا لا حاجة لنا بالفرق القديمة إلا بقدر معرفة وجه الشبه بين القديم والحديث وننظر فى منهج العلماء الذى واجهوا به أهل الباطل فى زمانهم فإن أفادنا ونفعنا فبها ونعمت، وإلا فلا داعى لتجديد قديم غير موجود حتى لا تكون الحرب فى غير ميدان.

وأخيراً، نقولها من الآن وبصوت مسموع أن الحق الذى ندين به هو منهاج أهل السنة والجماعة وهو منهج السلف الصالح الذى يقوم على صحة النقل وصراحة العقل.

لأن العلم إما أن يكون عن قائل معصوم: وقول عليه دليل معلوم فإما قول مصدق أو استدلال محقق.

ونحن لا نلقى الكلام على عواهنه ولكنك سترى بمشيئة الله تعالى صدق ما نقول ونسأل الله التوفيق فى عرض قضيتنا وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت، فهيا إلى الأصول العشرين.

شمول الإسلام

الأصل الأول

الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء.

* * *

شمول الإسلام

الأصل الأول

الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء.

هذا الأصل يعالج:

١ـ ربانية المصدر.

٢ـ شمول المنهج.

٣ـ عمومية الرسالة.

٤ـ عالمية الدعوة.

٥ـ أخلاقية الوسيلة والغاية وخصائص الدعوة الإسلامية بوجه عام.

لم يتوقف الإسلام عن الانتشار منذ بزوغ فجره حتى فى أشد أيام غزوه من القوى المعادية له، فهم يريدون له انحساراً والله يريد له انتشاراً ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾[الصف الآية: ٨].

ولم يترك أعداء الإسلام وسيلة من الوسائل الخسيسة إلا استخدموها للصد عن سبيل الله ومحاولة إبعاد المسلمين عن منهاج حياتهم بشتى الطرق. يقول زويمر كبير المبشرين فى البلاد فى الثلاثينات: إن الهدف من التبشير ليس إدخال المسلمين فى المسيحية فإن ذلك جد عسير ولكن الهدف هو إخراجهم من الإسلام.

وها هو ذا جلاد ستون يصعد مجلس العموم البريطانى ومعه نسخة من القرآن يلوح بها فى وجه الأعضاء ويقول: إنه ما دام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلا أمل لنا فى إخضاع المسلمين، فإذا بأحدهم يأخذ الكتاب ويمزقه فيقول له: ليس هذا ما أردت إنما أردت أن نفرغه من معانيه.

وبدأت حرب جديدة حرب فكرية تغزو عقول المسلمين وقلوبهم وبَعُدَ المسلمون بعدها عن الفهم الشامل للإسلام كما أرداه المولى سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ **لَّيْسَ الْبِرَّ**

أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة الآية: ١٧٧].

فهذه آية واحدة من آيات الله بينت الشمول فى الإسلام فهى تتضمن:

العقائد ـ والأخلاق ـ والعبادات ـ والمعاملات.

ولذلك فإن المسلم الذى يفهم إسلامه فهما سليماً لا يفرق بين نداء الله له ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة الآية:١٨٣] وهذه عبادة، وبين ندائه سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ...﴾[البقرة الآية:١٧٨] وهذا تشريع، والذى يأمر بالعبادة هو الذى أمر بالتشريع وعلى المسلم ألايفرق بين أحد منهم ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[الأعراف الآية:٥٤].

إن دعوة الإمام البنا بأن الإسلام دين ودولة ونظام مجتمع ومنهج حياة قد أحدثت تحولا خطيراً فى الفكر الإسلامى فى زمانه الذى برز فيه مفهوم الإسلام مجردا من جانبه السياسى والاجتماعى، وفُرِضَ من مفهوم جزئى يقوم على العبادات والمظاهر الدينية المختلفة وأن يكون المجتمع المسلم أشبه بالمجتمع الغربى فى نظراته للدين.

واختلف المسلمون فى ذلك الوقت فى معنى الإسلام اختلافا عظيما، فمن الناس من لا يرى الإسلام شيئاً غير حدود العبادة الظاهرة فإن أداها أو رأى أن يؤديها اطمأن إلى ذلك ورضى به وحسبه وقد وصل إلى لب الإسلام وذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين.

ومن الناس من لا يرى الإسلام إلا الخلق الفاضل والروحانية الفياضة، والغذاء الفلسفى الشهى للعقل والروح. والبعد بهما عن أدزان المادة الطاغية الظالمة.

ومنهم من يقف إسلامه عند حد الإعجاب بهذه المعانى الحيوية العملية فى الإسلام فلا يتطلب النظر إلى غيرها ولا يعجبه التفكير فى سواها.

ومنهم من يرى الإسلام نوعا من العقائد الموروثة والأعمال التقليدية التى لا عناء فيها ولا تقدم معها، فهو متبرم بالإسلام وبكل ما يتصل بالإسلام، وتجد هذا المعنى واضحا فى نفوس كثير من الذين ثقفوا ثقافة أجنبية ولم تتح لهم فرص حسن الاتصال بالحقائق الاسلامية، فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئاً أصيلا أو عرفوه صورة مشوهة

بمخالطة من لم يحسنوا تمثيله من المسلمين.

هذه هى الحال التى دعا فيها الإمام البنا بدعوته، وصحح فيها هذه المفاهيم الخاطئة وحدد بعد ذلك الفهم الشامل للإسلام حين قال:

«نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنظم شئون الناس فى الدنيا والآخرة، وأن الذين ظنوا أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها مخطئون فى هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف، والقرآن الكريم ينطق بهذا كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ويوصى بالإحسان فيه وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[القصص الآية: ٧٧].

وإنك لتقرأ القرآن وفى الصلاة إن شئت قول الله تبارك وتعالى:

فى العقيدة والعبادة: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[البينة الآية:٥].

وفى الحكم والقضاء والسياسة: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء الآية:٦٥].

وفى التجارة والدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة الآية:٢٨٢].

وفى الجهاد والقتال والغزو: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ...﴾[النساء الآية: ١٠٢].

وهكذا اتصل الإخوان المسلمون بكتاب الله واستلهموه واسترشدوه فأيقنوا أن الأساس هو المعنى الكلى الشامل وأنه يجب أن يهيمن على كل شئون الحياة وأن يصطبغ جميعها به، وأن تنزل على حكمه وأن تساير قواعده وتعاليمه وتستمد منها ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاما صحيحا.

ولكى يتأصل هذا الفهم وضع الإمام الشهيد أهدافاً لتوصلنا إلى الغاية المنشودة هى:

١- إصلاح النفس.

٢- تكوين البيت المسلم.

٣- إرشاد المجتمع.

٤ـ دعوة الحكومة لتطبيق شرع الله بالوسائل الحكيمة وآداب الإسلام.

٥ـ الدعوة إلى الوحدة الإسلامية.

والسبيل إلى ذلك:

أولا: دعوة تضبطها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن لا إكراه فيها ولا عنف، شعارها لا إكراه فى الدين.

ثانيا: تربية إسلامية أساسها منهاج القرآن وسنة الرسول ﷺ شعارها اعرف ربك، وأصلح نفسك، وادع غيرك، وأقم دولة الإسلام فى قلبك.

ثالثا: من هذه اللبنات التى تربى تنشأ الأسرة، فالجماعة، فالحكومة المسلمة حتى يتحقق الغرض المنشود بإذن الله.

ثم أردف ذلك بتحديد مناهج التربية كى يفهم الإسلام فهما شاملا فوضع:

منهاجاً للعقيدة: لا إفراط فيه ولا تفريط يُستقى من معين السلف الصالح يبنى رجالا تغرس فى نفوسهم مشاعر ثلاثة:

١ـ الشعور بعظمة هذه الرسالة.

٢ـ الاعتزاز بالانتساب إليها.

٣ـ الثقة فى نصر الله.

منهاجا للعبادة: يقوم على صحة الاعتقاد، وصدق الاتباع ويمتاز بالشمول والعموم، والكمال، والدوام، ولا يفرق بين العقيدة والشريعة، ولا الصلاة والجهاد حتى يقول المسلم: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ...** ﴾[الأنعام الآيات:١٦٢-١٦٣] وبذلك يتحقق الشمول.

وعموم يحقق قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾[الأعراف١٥٨].

وكمال يحقق قوله تعالى: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾[الأنعام ٣٨].

ودوام يحقق قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[آل عمران :٨٥].

منهاجاً للحركة: يهتم بالداعى بصفاته الأخلاقية والسلوكية كالأمانة والصدق والإخلاص والرحمة، والوعى، والفقه إلخ.

كما يهتم بالوسائل والقواعد التى يتبعها ويطبقها[1] والمراحل التى يجب أن يمر

---

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب الدعوة قواعد وأصول للمؤلف ـ ط دار الدعوة الإسكندرية ففيه تفصيل ذلك.

بها، وللعلم فإن هذا الذى دعــا إليه الإمام الشهيد حسن البنــا ليس إسلاماً جديداً وإنما هو جدد قديما نساه الناس أو بعدوا عنه، فمن خصائص المنهج الإسلامى ـ كما رأيت ـ شموله وكليته فهو ليس تصورا عقيديا فحسب، ولا دينا عباديا روحيا وكفى، ولا نظاما اقتصــاديا واجتماعــيا وسياسيــا مجردا ولكنه منهج حيــاة يجمع بين رقة التوجــيه ودقة التشريع وإلى جلال العقيدة، جمال العبادة، وإلى إمامة المحراب قيادة الحرب.

إن الإسلام منهج متكامل الجـوانب. شامل النظرة فيه تنظيم علاقة الفــرد بنفسه، وعلاقته بأسرته، وعلاقــته بمجتمعه، وعلاقة مجتمعه به، وفــيه بيان للأصول والقواعد التي تقوم عــليها النظم والقــوانين التى تحكم سيــر المجتمع والنــاس وفق نظرة الإسلام للكون والإنسان والحياة(١).

وما العجيب فى هذا، فـصانع الشريعة هو الله، وتتمثل فيهــا قدرة الخالق وكماله وعظمته وإحاطته بما كان وما هو كائن، ومن ثم صــاغها العليم الخبير بحيث تحيط بكل شئ فى الحال والاستقبال حيث أحــاط علمه بكل شىء، وأمر جل شأنه أن لا تغير ولا تبدل حيث قال: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾[سورة يونس: ٦٤]؛ لأنها ليست فى حاجة للتغيير والتــبديل مــهمــا تغيــرت الأوطان والأمان وتطور الإنســان(٢) ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك الآية: ١٤].

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ الخاصة بقيام الدولة فى الإسلام لا نلتقى بآية ولا بحديث يقول: يا أيها الذين آمنوا أقيموا دولة الإسلام أو اتخذوا منكم إماما وحاكما يضع القرآن موضع التنفيذ فى شئون الدنيا كلها تماما كما لا نلتقــى بآية تقول أو بحديــث يقول: يا أيها الــذين آمنوا تنشقــوا الهواء...!! ذلك أن القضــية من البداهة بحــيث لا تتطلب أمرا بها ودعــوة إليها، إنما يتــجه القرآن وتتــجه الأحاديث النبوية مباشرة إلى الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها وعن المسئوليات المتبادلة بينها وبين الأمة.

وهذا ما أدركه الإمــام على كرم الله وجهه بفطرته وذكــائه حين قال: « لابد للناس من إمارة ـ برة كانت أو فاجرة.. ».

(١) الإسلام فكرة وحركة فتحى يكن ص ١٧ بتصرف.

(٢) التشريع الجنائي عبد القادر عودة جـ١ ص ١٨.

قيل يا أمير المؤمنين: هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة. . . !! قال: يقام بها الحدود، وتؤمن بها السبل، ويجاهد بها العدو ويقسم بها الفئ[1].

نعم لابد من إمام يقود المسلمين ويضع منهج الله موضع التنفيذ، فيحفظ الدين وينفذ شريعة المسلمين، ويحمى أمنهم، ويبلغ رسالتهم فى مشارق الأرض ومغاربها.

وهل يكون للدولة إمام إلا إذا كان لها نظام شامل، وأمر هؤلاء المنكرين لذلك عجيب، فهؤلاء يرون بابا الفاتيكان يقيم دولته على الإنجيل، وابن جوريون يقيم إسرائيل على التوراة، بل إن الاتحاد السوفيتى أقام دولته على الإلحاد فما العجب أن تقام دولة على القرآن وشتان بين مناهج البشر ومنهج الله.

يقول الإمام الماوردى: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا، ويقول الشهرستانى: قال أبو بكر الصديق بعد خطبته فى سقيفة بنى ساعدة ولابد لهذا الدين من قائم يقوم به فناداه الناس من كل جانب صدقت يا أبا بكر.

إنه دستور نزل على رسول الله ﷺ تبيانا لكل شىء وصدق الله حين قال:

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[العنكبوت:٥١].

دستور لا يزاحم ولا ينافس ولا يضاهى به سواه، وليس أمام الدولة المسلمة ، أى خيار فى أن تأخذ بعضه وتذر بعضه، وإن فعلت صمّها تأنيب الله وهو يقول:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[البقرة:٨٥].

فكل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين وآداب موجود فى إسلامنا، موجود فى قرآننا العظيم، وليس ثمة ما يدعو إلى هجر القرآن ولا هجر الإسلام اللذين ارتضاهما الله لنا كتابا ودينا.

عن الحارث بن علىّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو

---

(١) الدولة فى الإسلام ص ٣٨ خالد محمد خالد.

الفصل ليس بالهـزل مَنْ تركه من جبار قـصمه الله، ومَنْ ابتغى الهدى فـى غيره أضله الله. هو حبل الله المـتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصـراط المستـقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألـسنة ولا تتشعب معـه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقيـاء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عـجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا مَنْ علم علمه سبق، ومَنْ قال به صدق، ومَنْ حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أغور»[(١)]. إنه الشمول فى الدعوة والداعى.

* * *

(١) رواه الترمذى، القرطبى جـ١، ص٤، كتاب الشعب.

مصدر التلقى

الأصل الثانى

«والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات».

* * *

مصدر التلقى

الأصل الثانى

«والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات».

هذا الأصل يعالج:

١ـ المصدر الأول الكتاب ـ القرآن الكريم.

٢ـ المصدر الثانى السنة النبوية وما يتعلق بهما.

حين نقول: إن الإسلام دين ودولة، كان لابد أن يكون لهذا الكلام مصدره الذى يوثقه ويؤيده، وكل كلام فى دين الله ليس له مصدره الصحيح من كتاب أو سنة هو كلام أبتر لا يعتد به.

ولذلك كان الأصل الثانى هو الأصل الذى يحدد مصدر التلقى؛ لأن القرآن والسنة هما أساس الشريعة، وهما اللذان جاءا بنصوص الشريعة المقررة للأحكام الكلية، أما باقى المصادر فهى لا تأتى بأسس شرعية جديدة، ولا تقرر أحكاما كلية جديدة، وإنما هى طرق للاستدلال على الأحكام الفرعية من نصوص القرآن والسنة ولا يمكن أن تأتى بما يخالف القرآن والسنة؛ لأنها تستمد منهما وتستند إلى نصوصهما[١].

فما هو المصدر الأول؟

القرآن: هو المصدر الأول؛ لأنه كلام الله المعجز، ووحيه المنزل على نبيه محمد ﷺ، المكتوب فى المصاحف المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

ولا خلاف بين المسلمين فى أن القرآن من عند الله، وأنه سبحانه وتعالى تجب له الطاعة فالقرآن حجة على كل مسلم ومسلمة وأحكامه واجبة الاتباع أياً كان نوعها.

---

(١) التشريع الجنائى فى الإسلام للشهيد عبد القادر عودة جـ١ ص ١٦٥.

أحكام القرآن:

وأحكام القرآن على نوعين:

١ـ أحكام يراد بها إقامة الدين، وهذه تشمل أحكام العقائد والعبادات.

٢ـ وأحكام يراد بها تنظيم الدولة والجماعة وتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض وهذه تشمل احكام المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية والدستورية والدولية . . إلخ.

ولقد نزلت هذه الأحكام بقصد إسعاد الناس فى الدنيا والآخرة، ومن يتتبع آيات الأحكام يجد كل حكم منها يترتب عليه جزاءان: جزاء دنيوى، وجزاء أخروى.

ولم تشرع آيات الأحكام للدنيا والآخرة عبثا وإنما اقتضى ذلك منطق الشريعة، فهى فى أصلها تعتبر أن الدنيا دار ابتلاء وفناء، وأن الآخرة دار بقاء وجزاء، وأن الإنسان مسئول عن أعماله فى الدنيا ومجزى عنها فى الآخرة، فإن فعل خيرا فلنفسه، وإن أساء فعليها، والجزاء الدنيوى لا يمنع من الجزاء الأخروى إلا إذا تاب الإنسان وأناب.

أحكام القرآن وحدة واحدة:

وأحكام القرآن لا تتجزأ ولا تقبل الانفصال؛ لأن النصوص تمنع من العمل ببعضها وإهمال البعض الآخر كما تمنع من الإيمان ببعضها والكفر ببعض، وتوجب العمل بكل أحكامها والإيمان بها إيماناً تاماً بكل ما جاءت به: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٥].

وتمتاز الشريعة الإسلامية عن الشرائع الوضعية بميزات عظيمة: هى أن أحكامها شرعت للدنيا والآخرة ـ كما قلنا ـ وهذا هو السبب الوحيد الذى يحمل معتنقيها على طاعتها فى السر والعلن، والسراء والضراء؛ لأنهم يؤمنون بأن الطاعة لله نوع من العبادة تقربهم إليه، وأنهم يثابون على هذه الطاعة ومن استطاع منهم أن يرتكب جريمة ويتفادى العقاب الدنيوى فإنه لا يرتكبها مخافة العقاب الأخروى وغضب الله عليه(١).

ولذلك فهى تلزم معتنقيها أن يتخلقوا بالأخلاق الفاضلة، ومَنْ تخلق بالأخلاق الفاضلة ندر أن يرتكب جريمة، وهم بعد ذلك يعلمون أن الله رقيب مطلع على أعمالهم، وأنهم مهما استخفوا من الناس فلن يستخفوا من الله وهو معهم أينما كانوا

---

(١) التشريع الجنائى فى الإسلام للشهيد عبد القادر جـ ١ ص ١٧١.

وبذلك تقل الجرائم، ويحفظ الأمان وتصان الجماعة، ومصالحها العامة بعكس الحال فى القوانين الوضعية فانها ليس فى نفوس من تطبق عليهم ما يحملهم على طاعتها، ومَنْ استطاع أن يرتكب جريمة ما وهو آمن من سطوة القانون فليس ثمة ما يمنعه من ارتكابها من خلق ودين ولذلك تزداد الجرائم زيادة مطردة فى البلاد التى تطبق القوانين الوضعية، وتضعف الأخلاق، ويكثر المجرمون من الطبقات المستنيرة تبعا لزيادة الفساد الخلقى فى هذه الطبقة ولقدرة أفرادها على التهرب من سلطان القانون.

ولأنها من عند الله فإنها أصلح نظام وأكمله وأعدله وأشمله لا نقول تصلح لكل زمان ومكان ولكننا نقول تصلح الزمان والمكان للشمول الذى تمتاز به من حيث نظرتها للإنسان، ونظرتها للكون ونظرتها للحياة.

فالعقيدة تنطلق منها وحدة المشاعر، والعبادات تمثل وحدة الشعائر، والنظام يمثل وحدة الشرائع، ومزج الشريعة بين أحكام الدنيا والدين وإيمان المسلمين بها ضمن للشريعة الاستمرار والثبات وبث فى المحكومين روح الطاعة والرضاء، ودعاهم إلى التخلق بالأخلاق الكريمة وجعل للشريعة قوة فى الردع ليست لأى قانون وضعى آخر مهما أحكم وضعه وأحسن تطبيقه وتنفيذه[1].

ما اشتمل عليه القرآن:

واشتمل القرآن الكريم على أصول الشريعة وقواعدها فى الحلال والحرام وجاءت أكثر أحكامه مجملة تشير إلى مقاصد الشريعة، وتضع بيد الأئمة والمجتهدين المصباح الذى يستنبطون فى ضوئه أحكام جزئيات الحوادث فى كل زمان ومكان وهذا سر خلود الشريعة وشمول قواعدها الكلية ومقاصدها العامة لما يحدث فى الناس من أقضيات.

وإنما فصّل القرآن ما لابد فيه من التفصيل الذى يجب أن يسمو عن مواطن الخلاف والجدل كما فى العقائد وأصول العبادات، أو لأنه يبنى على أسباب لا تختلف ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة وذلك كما فى تشريع المواريث ومحرمات النكاح وعقوبة بعض الجرائم[2].

وللقرآن علوم منها المكى، والمدنى، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمشكل وأسباب النزول وغيرها من العلوم التى عرفت عند العلماء بعلوم القرآن.

(١) التشريع الجنائى فى الإسلام للشهيد عبد القادر عودة جـ ١ ص ١٧٣ بتصرف.

(٢) التشريع والفقه فى الإسلام تاريخاً ومنهاجاً ص ٤٨ للشيخ مناع القطان مدير المعهد العالى للقضاء جامعة الإمام محمد بن سعود.

ولذلك كان لابد للمفسر لآيات القرآن من علوم يحتاج إليها من أهمها:

١ـ اللغة والاشتقاق؛ ذلك لأن بعض الفرق الإسلامية المنحرفة حرفت بعض آيات القرآن وأولتها تأويلابعيدا عن معانى اللغة وضوابطها كأصحاب التأويلات الباطنية والرمزية وغيرهما، وصدق عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قال: (عليكم ديوانكم لا تضلوا) ويقول مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب».

٢ـ النحو والصرف.

٣ـ الأدب وعلوم البلاغة.

٤ـ علوم القرآن.

٥ـ علم أصول الدين والتوحيد.

٦ـ أصول الفقه.

٧ـ الحديث النبوى والفقه والسيرة.

٨ـ علوم أخرى كالعلوم الاجتماعية والتاريخ والجغرافيا. . . إلخ.

ولهذا فإن الصحابة أنفسهم كانوا يتفاوتون فى فهم القرآن تبعا لمواهبهم واطلاعهم على لغتهم وآدابهم، فضلا عن معرفة أسباب النزول.

فهذا ابن عباس ترجمان القرآن يقول: كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول: أنا ابتدأتها.

وها هو ذا أبو بكر وفى رواية ﷺ لا يعرف معنى «**وأبا**» فيقول: أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت فى القرآن برأيى[٢].

والذى نريد أن نشير إليه إشارة سريعة أن قوما اكتفوا بالقرآن وأنكروا السنة ويقول عنهم الإمام الشاطبى:

«إن الاقتصار على الكتاب رأى قوم لا خلاق لهم خارجين عن السنة، إذ عولوا ما بنيت عليه من أن الكتاب فيه بيان كل شىء، فأطّرحوا أحكام السنة، فأدّاهم ذلك إلى

(١) الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ١١٣ والبرهان للزركشى ٢/ ١٦٢.
(٢) تفسير سورة عبس ابن كثير جـ ١ آية ٣١.

الانخلاع عن الجماعة وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله»[1].

وعلى هذا فإن القرآن هو أساس الدين، ومصدر التشريع، وحجة الله البالغة فى كل عصر ومصر بلغه رسول الله لأمته امتثالا لأمر ربه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]. وأمرنا ربنا باتباعه﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، واعتبروا بأمثاله.

واعلموا أن الرسول ﷺ أوتى القرآن ومثله معه هو المصدر الثانى للتشريع.

المصدر الثانى:

السنة: التشريع إما أن يكون وحيا إلهيا بالمعنى واللفظ وذلك يتمثل فى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسولنا ﷺ.

وإما أن يكون وحيا إلهيا بالمعنى دون اللفظ، وذلك يتمثل فى سنة الرسول ﷺ فإن لفظ الحديث من كلامه وإن كان معناه وحيا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

والله سبحانه وتعالى هو المشرع ورسوله ﷺ هو المبين لشرعه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٣]. وأوجب الله طاعة الرسول؛ لأنها من طاعته ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠].

وجعل حكمه عن إلهام منه ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[النساء: ١٠٥].

فلا شرع إلا ما شرع الله وإما ما شرع رسوله ﷺ، ولهذا كان للتشريع الإسلامى مصدران أساسيان، الكتاب والسنة، وبانتهاء حياة الرسول ﷺ انتهى عهد التشريع[2].

والسنة هى ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ـ مع اختلاف فى

(١) الموافقات للإمام الشاطبى جـ ٤ ص ١٢٠.

(٢) التشريع والفقه فى الإسلام للشيخ مناع القطان ص ٢٨.

هذا التعريف بين العلماء ـ وهى على ثلاثة أنواع :ـ.

السنة القولية: ـ وهى أحاديث الرسول ﷺ التى قالها فى مختلف المناسبات مثل قوله: «لا يحل قتل امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بدون نفس».

السنة الفعلية: ـ وهى أفعاله ﷺ مثل قضائه بالعقوبة فى الزنا بعد الإقرار وقطعه اليد اليمنى فى السرقة، وقضائه بشاهد واحد ويمين المدعى.

السنة التقريرية: ـ وهى ما صدر عن بعض أصحابه ﷺ من أقوال أو أفعال أقرها الرسول ﷺ بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه فيعتبر عمل الصحابى أو قوله بعد أن أقره الرسول ﷺ كأنه صادر من الرسول ﷺ نفسه، ومثل ذلك أن النبى ﷺ لما بعث معاذ إلى اليمن سأله بم تقضى؟ قال: بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله، فإن لم أجد أجتهد رأيى، فأقره الرسول ﷺ على ذلك حيث قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى رسول الله ـ أو كما قال ﷺ.

والسنة هى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن فى المرتبة:

أحكام السنة:

وأحكام السنة من الناحية التشريعية لا تعدو أن تكون واحداً من ثلاثة:

١ ـ إما أن تكون سنة تقرر وتؤكد حكماً جاء به القرآن فيكون الحكم مرجعه القرآن والسنة معا، كتحريم القتل بغير حق، وشهادة الزور والسرقة إلى آخر ذلك من الأوامر والنواهى التى جاء بها القرآن والسنة.

٢ ـ وإما أن تكون سنة مفصلة مفسرة حكما جاء به القرآن مجملاً أو مقيدة ما جاء فى القرآن؛ مطلقاً، أو مخصصة الذى جاءت به السنة بياناً للمقصود من الحكم الذى جاء به القرآن، لأن الله جعل لرسوله ﷺ حق البيان لنصوص القرآن ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. فالسنة هى التى فصلت الصلاة، والحج، والزكاة لأن القرآن يأمر بهم ولم يبين لا كيفية الصلاة، ولا مقادير الزكاة ولا مناسك الحج فجاءت السنة وبينت ذلك:

ونصوص القرآن أحلت البيع وحرمت الربا والسنة هى التى بينت بيوع الربا، ونصوص القرآن حرمت الميتة والدم والسنة قيدت هذا الإطلاق وهكذا.

٣ ـ وإما أن تكون سنة مثبتة حكماً سكت عنه القرآن فيكون الحكم أساسه السنة

وليس له دليل من القرآن كقول الرسول ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها» وكقوله في تحريم الذهب: «حرام على رجال أمتي حلال لنسائها - أو كما قال ﷺ - وكقوله يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهكذا[1].

ويتكون الحديث من السند وهو سلسلة الرجال الموصلة إلى متن الحديث، أى نصه ويشترك فى السند رجال من الصحابه والتابعين عادة.

الصحابى: هو من لقى النبى ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام، طالت مجالسته أم قصرت، روى عنه أو لم يرو، غزا معه أو لم يغز رآه رؤية ولم يجالسه وكذلك من لم يره لعارض كالأعمى[2].

التابعى: قال الخطيب البغدادى: «هو من صحب الصحابى» فهو لا يكتفى بمجرد اللقاء بل يشترط أن تكون هناك صحبة بين الصحابى والتابعى.

أما الحاكم النيسابورى قال: هو من لقى الصحابى وروى عنه وإن لم يصحبه كسعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله بن عمر إلخ.

أنواعها بحسب روايتها: سنة متواترة - ومشهورة - آحاد.

السنة المتواترة: هي ما رواه عن رسول الله جمع يمتنع عادة أن يتواطأ أفراده على الكذب لكثرتهم وأمانتهم، ثم رواه عن الجمع جمع مثله، وعن هذا الجمع جمع آخر وهكذا حتى وصلت إلينا بسند كل طبقة من رواته جمع لا يتفقون على كذب من مبدأ التلقى عن الرسول حتى وصلت السنة إلينا، ومن هذا القسم السنن العملية فى أداء الصلاة، والصوم وغير ذلك من شعائر الدين تلقاها المسلمون جموعا عن الرسول، ولقنوها جموعاً آخر دون خلاف عليها مع اختلاف الأعصار وتباعد الأمصار.

السنة المشهورة: - هى ما رواها عن الرسول صحابى أو أكثر دون أن يبلغ الرواة حد التواتر ثم نقلها من الراوى أو الرواة جمع من جموع التواتر وتناقلها عن هذا الجمع جموع أخرى حتى وصلت إلينا بسند أول طبقة منه فرد أو أفراد لا يبلغون حد التواتر وباقى طبقاته من جموع التواتر، ومن هذا القسم ما رواه عمر بن الخطاب وابن مسعود وغيرهما من الصحابة.

سنة الآحاد: هى ما رواها عن الرسول ﷺ أحاد أو جمع لم يبلغ حد التواتر وتناقلها عن هؤلاء أمثالهم من الآحاد أو الجموع التى لم تبلغ حد التواتر، ومن هذا

(١) التشريع الجنائى فى الإسلام للشهيد عبد القادر عودة ص ١٧٠ بتصرف.
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى جـ ١ ص ٤.

القسم معظم الأحاديث[1].

والسنن جميعاً قد تكون قطعية الدلالة وهذا إذا كانت لا تحتمل تأويلاً وقد تكون ظنية الدلالة، وهذا إذا كانت تحتمل التأويل، وجميعها مصدر تشريعي واجب الاتباع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ويجدر بنا أن نشير إلى أن جميع الأقوال والأفعال التى صدرت عن الرسول ﷺ بقصد البيان والتعليم والإرشاد هى تشريع ملزم.

أما التى صدرت عنه بخبرته الخاصة بالشئون الدنيوية كالاتجار والزراعة وتنظيم الجيوش فليست تشريعاً؛ لأن معناها الخبرة الشخصية **«أنتم أعلم بأمور دنياكم منا»**.

وما صدر منه باعتباره بشر كالقيام والقعود والشرب لا تعتبر تشريعاً فليست جزءاً من رسالته إلا ما سنّه ﷺ.

وكذلك الأفعال التى صدرت عنه ودل الدليل على أنها من خصائصه لا يشاركه فيها أحد كالزواج بأكثر من أربعة، ودخوله مكة بغير إحرام والوصال فى الصوم، لا يعتبر تشريعاً؛ لأن ذلك خاص به ﷺ لا يشاركه فيه غيره.

وإذا كانت هناك الأحاديث القولية والفعلية والتقريرية فهناك أيضاً الحديث القدسى الموحى معناه دون لفظه وهذا هو الفرق بينه وبين القرآن إذ إن القرآن موحى بلفظه ومعناه وترتيبه فليس للنبى ﷺ إلا التبليغ وهومتواتر كله.

وأما الحديث القدسى ففيه الصحيح والضعيف والموضوع والمكذوب.

ومن هنا فإنه لابد من دراسة الحديث سنداً ومتنا، ولقد وضع العلماء لدراسة كل منهما موازين ومقاييس تساعدهم إلى أدق الأحكام وأصحها.

فمن العلوم التى استنبطوها لدراسة:

السند:

١ ـ علم تاريخ الرواة.

٢ ـ علم الجرح والتعديل.

٣ ـ علم علل الحديث.

---

(١) هذه التعاريف من كتاب التشريع الجنائى فى الإسلام للشهيد عبد القادر عودة جـ ١ ص ٧٦

المـــتن:

١ ـ علم غريب الحديث، ويبحث فى غريب الكلمات وألفاظه التى تخفى.

٢ ـ علم مختلف الحديث، ويبحث فى الحديثين اللذين ظاهرهما التعارض.

٣ ـ علم الناسخ والمنسوخ.

يقول الإمام ابن حزم: نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبى ﷺ مع الاتصال أخص الله به المسلمين دون سائر الملل، فقد حرص الصحابة والتابعون ومَنْ بعدهم على أداء ما سمعوه من رسول الله ﷺ بأمانة وإخلاص وتحروا فى النقل حتى انتهى هذا إلى أئمة رجال الحديث ودونت السنة(١).

ويالهـا من دقة لم تسـبق إليهـا أمة، فـقد وضـع العلماء مع هذه العلوم شـروطاً للصحة والحسن والضعف من حيث:

اتصال السند، العدالة، الضبط، عدم الشذوذ، عدم العلة.

وقالوا إذا ضعفت صفة من هذه الصفات أو فقدت صار الحديث ضعيفاً بل وقسموا الضعيف نفسه الذى لم تجتمع فيه صفات الحديث الصحيح أو الحسن إلى أنواع:

المرسل، المنقطع، المعضل، المدلَّس، المضطرب، المقلوب، الشاذ، المنكر، المتروك، المعلل وهكذا.

بل ورتبوا كتب الصحاح كما اتفق عليها العلماء كالآتى:

أولاً : ما اتفق عليه البخارى ومسلم.

ثانياً: ما انفرد به البخارى.

ثالثاً: ما انفرد به مسلم.

رابعاً: ما كان على شرطهما ـ وإن لم يخرجاه.

خامساً: ما كان على شرط البخارى.

سادساً: ما كان على شرط مسلم.

سابعاً: ما صححه غيرهما من الأئمة.

وهكذا يتضح أهمية هذا المصدر من مصادر التشريع.

---

(١) التشريع والفقه فى الإسلام للشيخ مناع القطان ص ٦٩.

خلاصة هامة:

إن من الآفات التى تتعرض لها السنة أن يقرأ بعض الناس المتعجلين حديثاً فيتوهم له معنى فى نفسه هو يفسره به، وهو معنى غير مقبول عنده فيتسرع برد الحديث لاشتماله على هذا المعنى المرفوض، ولو أنصف وتأمل وبحث لعلم أن معنى الحديث ليس كما فهم، وأنه فرض عليه معنى من عنده لم يجئ به قرآن ولا سنة ولا ألزمت به لغة العرب ولا قال به عالم معتبر من قبله.

قرأ بعضهم الحديث الذي رواه ابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى والطبرانى عن عبادة بن الصامت «اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً، واحشرنى فى زمرة المساكين» ففهم المسكنة الفقر من المال والحاجة إلى الناس وهذا ينافى استعاذة النبى ﷺ من فتنة الفقر وقوله لعمرو بن العاص نعم المال الصالح للمرء الصالح، ولقد امتن الله عليه بالغنى فقال له: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾ والمعنى هنا هو التواضع وخفض الجناح، قال ابن الأثير أراد به التواضع والإخبات وألا يكون من الجبارين المتكبرين.

وقرأ أحدهم الحديث الذى رواه أبو داود والحاكم وصححه غير واحد عن أبى هريرة مرفوعاً **«إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»** ففهم من التجديد التطوير والتغيير بما يلائم الزمان، بينما التجديد هو تجديد الفهم له والإيمان والعمل به، بينما التجديد يعنى العودة به مرة أخرى حيث كان فى عهد الرسول ﷺ وصحابته ومن تبعهم.

إن رد كل حديث يشكل علينا فهمه ـ وإن كان صحيحاً مجازفة لا يجترئ عليها الراسخون فى العلم، ومن أجل ذلك ألف الإمام محمد بن قتيبة كتابه « تأويل مختلف الحديث للرد على مثل هذه الزوابع»(1).

إنه لا فقه بغير سنة ولا سنة بغير فقه، وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة كما قال البنا رضوان الله عليه.

والفقه شيء غير حفظ النصوص وسرعة الاستشهاد بها، ففهم الدين هو الأصل فى التدين، وعليه يتوقف إنجازه، ولذلك كان للفهم فقهه الخاص به، وقد أفاض الأصوليون فى بيانه وتبويبه وتنظيره حتى غدا منضبط القواعد ولما كان الدين محررا فى أصول ثابتة هي القرآن والسنة، وكلاهما يختص بخصائص، ويتصف بصفات من حيث حملهما لتعاليمه، كما أن الدين غايته الفعل فى الواقع لإجرائه على ما يحقق المصلحة

---

(1) كتاب الأمة « فى قصة التدين فهماً وتنزيلاً» الدكتور عبد المجيد النجار ج١ ص ٤٣.

فإن ذلك يقتضى أن يكون فهم المراد الآلهى بأوامره ونواهيه مبينا على أساسين:

أولهما: خصائص الأصول في الدلالة على الأوامر والنواهي - وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله حين نتكلم عن الخلاف الفقهى.

ثانيهما: اعتبار الغاية التطبيقية فيهما.

وكلما اختل فى الفهم أحد هذين الأساسين أو كلاهما أدى ذلك إلى الخطأ فى إدراك المراد الآلهى من تعاليمه[1].

ولهذا فإن فهم الدين من أصله النصى ليس بالأمر الهيِّن كما يظن بعض الناس، بل هو أمر خطير الشأن وخاصة إذا لابسته ظروف من الضعف، فى فقه اللغة العربية، وقوانينها فى التعبير أو من الميل إلى التعسف فى استخراج المعانى من وعائها اللغوي، وقد وقعت من ذلك نماذج كثيرة فى التاريخ الإسلامى.

والنص الدينى نفسه، ورد يحمل من المعنى ما يناسب البشر جميعاً فى كل مكان وزمان، باعتبار خاتمية الوحى فيه، وهذا ما يجعل المجموع النصى يحمل من كنوز المعانى ما لا يستنفده فهماً جيل واحد من المسلمين، بل يمكن أن يكتشف فيه كل جيل ما لم يكتشفه الذى قبله، وذلك وجه من وجوه إعجازه، كما أن لعملية الفهم علاقة بكسب العقل البشرى من العلوم والمعارف التى يكتسبها من خارج دائرة النص.

ولهذا فلابد للرجوع إلى العلماء. ولا نتعامل مع النص وجها لوجه ونحن لا نملك أدوات الفهم بل لابد أن نكون تلاميذ إمام لا تلاميذ كتاب، وهذا ما أشار إليه الإمام البنا فى هذا الأصل حين قال: « ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات، ولا يحيط بذلك كله إلاعالم فقهه الله فى الدين وعلمه التأويل».

* * *

---

(١) المرجع السابق ص ٨١.

مصادر ليست من أدلة الأحكام الشرعية

الأصل الثالث

« وللإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه ».

* * *

مصادر ليست من أدلة
الأحكام الشرعية
الأصل الثالث

« وللإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه».

هذا الأصل يعالج:

١ ـ الإيمان الصادق.

٢ ـ العبادة الصحيحة والمجاهدة.

٣ ـ المصادر التى ليست من أدلة الأحكام الشرعية كالإلهام والخواطر والكشف والرؤى.

الإيمان والعبادة والمجاهدة: يتحقق الإيمان الصادق بصحة الاعتقاد، وصدق الاتباع كما تتحقق العبادة الصحيحة بإخلاص النية، ومتابعة عمل الرسول ﷺ ، وأما المجاهدة فمتعددة فتجاهد النفس، والهوى، والشيطان، ومن فضل الله على العباد أن أرسل الرسل وأنزل الكتب بل وأيد الإنسان بملك كريم فى مقابل هذا الشيطان اللعين كلما أمره شيطانه بأمر أمر الملك بأمر الله، والإنسان على نفسه بصيرة، كما جعل المولى له مقابل النفس الأمارة بالسوء نفساً مطمئنة تعده بالخير، فضلاً عن أن المولى سبحانه وتعالى جعل له نوراً وبصيرة وعقلاً والعاقل من هدى إلى صراط مستقيم.

والعبد لابد له من أمر يفعله، ونهى يجتنبه، وقدر يصبر عليه، وهو بين فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور يغزو الشيطان قلبه بسلاحين:

سلاح الشهوات ليفسد به سلوكه، وسلاح الشبهات يفسد به فكره وتصوره واعتقاده ولكن من فضل الله عليه منحه ما يواجه به عدوه: سلاح الصبر يجاهد به الأهواء والشهوات، وسلاح اليقين يجاهد به الشكوك والشبهات، وصدق الله القائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

إن الإيمان الصادق الذى يتحلى به المسلم هو الحياة الطيبة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...﴾[النحل:٥٧] وهو النور الذى يمشى به

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ...﴾[الأنعام:١٢٢] ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[النور:٤٠] وهو الروح التى يحيا بها ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا...﴾ فهو يعيش مطمئن النفس، مرتاح البال إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلى صبر، وإذا أذنب استغفر، فهل بعد هذه الجنة التى يعيشها فى دنياه شقاء أو ضلال أو ظلم أو رهق صدق ربى القائل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا...﴾[طه:١٢٣-١٢٤].

إن للإيمان الصادق حلاوة يتذوقها المؤمن الذى رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وكيف لا يشعر بهذا المذاق من يقول : إياك نعبد وإياك نستعين، فعبد الله بما يحبه ويرضاه فشكره وأحبه وخشيه ومن تفضل الله عليه بهذا المذاق كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

إنك بهذا الإيمان الصادق دخلت جنة الدنيا فكيف تُحرم من جنة الآخرة؟ إنك تعيش بين الناس بهذا الإيمان تصل من قطعك، وتعفو عن من ظلمك، وتعطى من حرمك فينزل الله لك القبول على الأرض ويأمر جبريل أن يحبك وملائكته فتعيش فى مودة ورحمة بين الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] والمؤمن إلف ألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

السكينة والأمن والأمان:

أى سعادة ، وأى حلاوة بهذا الإيمان، أى سكينة وأى أمن وأمان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وأى راحة بال واطمئنان نفس ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد:٢] فكيف لا يسعد المؤمن وهو الذى إذا أصابته سراء شكر وإذا أصابته ضراء صبر فكان خيراً له فى كل الأحوال.

إن السعادة تكتنفه فى حياته كلها حتى فى ساعة الاحتضار ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣١] وإن هذه السعادة لا توهب إلا لمن أحبه الله من عباده؛ لأنه سبحانه يعطى الدنيا من أحب ولمن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الدين فقد أحبه.

ولك أن تسأل وكيف يحبنا الله حتى ننعم بهذه الحلاوة؟.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] وهكذا يتحدد للطريق معالمه، فاسلك طريق رسول الله ﷺ يتحقق لك حب الله لك، واسمع إلى عيسى عليه السلام وهو يقول: « تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم والتمسوا رضا الله بسخطهم، قالوا يا روح الله فَمَنْ نجالس؟ قال: جالسوا مَنْ تذكركم الله رؤيته، ومن يزيد فى إيمانكم كلامه، ومن يرغبكم فى الآخرة عمله»[1].

وقيمة الحياة يحصرها عمر بن الخطاب رضوان الله عليه فى ثلاثة فيقول: لولا ثلاثة ما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد فى سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[الكهف:٢٨].

وينقل إلينا ابن تيمية ما قاله بعض السلف يقول: قال بعض السلف: بصيرة المؤمن تنطق بالحكمة، وإن لم يسمع فيها بأثر فإذا جاء الأثر كان نورا على نور[2] فهو دائماً على بصيرة من ربه إن أقبلت عليه الدنيا قال: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ وإن أدبرت قال: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ فالمؤمنون دائماً يستبشرون بنعمة من الله وفضل وهم الذين استجابوا لله من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

لا نعبد أشخاصاً :

والمسلم لكى يذوق طعم الإيمان يعمل لفكرة وعقيدة وتصور وليس لشخص أياً كان هذا الشخص (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤] وفرق كبير جداً بين احترام العلماء وتقدير المجاهدين، ورد الفضل لأهله وبين عبادة

---

(١) إحياء علوم الدين الإمام الغزالى ج ٥ ص ٩٢٤.   (٢) الفتاوى لابن تيمية ج ٢٤ ص ٣٧٦.

الأشخاص والتعلق بهم بمجرد أن تعجبك عبادته فتحكم عليه بأنه ولى من أولياء الله ثم تعتقد بعد ذلك أن كل ما يقوله إلهام وكل خواطره حقائق، وكل رؤاه مكشوف عنها الحجاب فهو يصلى الفجر في القاهرة والظهر فى مكة والعصر فى المدينة، والمغرب فى بيت المقدس ثم يعود طائراً فى الهواء ليصلى العشاء فى السيد البدوى.

وليس معنى ذلك أننا ننكر الولاية والكرامة ـ وسنتناول هذا تفصيلاً بمشيئة الله تعالى ـ ولكننا نحدد مصادر أدلة الأحكام الشرعية التي نستقي منها وبهذه المصادر تستطيع أن تتعرف على استقامة أية دعوة وصلاحها أو اعوجاجها وفسادها وسترى بعد قليل شطحات بعضهم حين يتخذ من الرؤيا مصدراً لحكمه ولكن الذى نريد أن ننبه عليه أن ما قاله الإمام البنا من أن الإلهام والخواطر والكشف والرؤيا ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه ليس بجديد إنما هو جدد قديماً نسيه الناس بعد أن اختلفت عندهم فى زمانه المفاهيم ونشأت بعض التصورات المنحرفة التى استبدت بهم وأثرت فى سلوكهم بعد اتباعهم لأهوائهم بغير علم فجدد ما ذكره ابن تيمية رضوان الله على الجميع حين قال[1]: والرؤيا المحضة التى لا دليل يدل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شىء بالاتفاق: فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، ورؤيا من الشيطان**» ورضوان الله على عثمان بن عفان حين دخل عليه أنس بن مالك ـ وكان قد نظر إلى امرأة جميلة وهو في الطريق إليه ـ فقال له عثمان رضى الله عنه: ما لكم تدخلون علىّ وأثر الزنا فى وجوهكم، قال أنس: أوحى بعد رسول الله ﷺ قال: لا ولكنها الفراسة... وبالرغم من هذه الفراسة ولكنها ليست مصدراً من مصادر الأحكام، مع أن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن للحسنة ضياء فى الوجه ونورا فى القلب وقوة فى البدن وسعة فى الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادا فى الوجه وظلمة في القلب ووهنا فى البدن، ونقصا فى الرزق، وبغضا فى قلوب الخلق.

شطحات ننكرها:

واسمع إلى شطحات بعضهم: قال أحد الحكام لأحد رعاياه تعال وأحضر النطع والسيف، فقال: ما حدث؟ قال: رأيت فى المنام أنك تعرض عنى وتعطينى قفاك وعبَّرها معبرى أنك تضمر لى شراً، وتظهر لى طاعة، فقال له: ما أنت بإبراهيم الخليل ولا معبرك بيوسف عليه السلام، أفبهذه الرؤيا تقطع رقاب الرجال !!!.

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٢٤ ص ٣٧٦.

إن الرؤيا عند بعض الناس ـ من الصوفية ـ تعتبر من الأحكام وكأنهم لم يقرأوا قول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] والرؤيا لا يكون لها حكم إلا أن يراها نبى ـ كما رأى سيدنا إبراهيم رؤيا ذبح إسماعيل ـ أو يقرها نبى كما أقر رسول الله ﷺ رؤيا الآذان أما غير ذلك فلا.

إن المضحك المبكى أن بعضهم يقول حدثنى قلبى عن ربى، ويقول: أنتم تأخذون كلامكم من ميت إلى ميت ونحن نأخذ كلامنا من الحى الذى لا يموت ويقول: صح عندنا كشفاً ولم يصح عندنا سنداً، ويذكرنى ذلك بما كان يحدث في السجن أيام عبد الناصر حين كان الأخوة يرون رؤى كثيرة ويصبح وقد أولها مستبشراً منتظراً فرج الله عليه فلما كثرت الرؤى وكثر المؤولون لها أطلق الأخوان على كثرة الرؤى وأخبارها «وكالة أبشروا» ، تبشيراً لا تنفيراً ومن باب الدعابة وبعد ذلك كله فإنا نتساءل: هل قال الإمام البنا بما قاله هؤلاء من الصوفية وأقرهم على قولهم أم خالفهم وبين خطأ بعضهم وبين موقفه من الصوفية حين قال عن دعوة الإخوان « حقيقة صوفية».

فما هى الصوفية حتى يتبين لنا حقيقة ما قال؟.

بالنسبة للمصطلح قالوا:

إنها من لبس الصوف: ونحن نتساءل هل الأحق بالولاية لابس الصوف، لقد تهكم أحدهم فقال: لو كان التقى بالصوف لطار الخروف.

وإن كان الإمام ابن تيمية يقول: إنها أول ما ظهرت فى البصرة على يد بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وهو من أصحاب أبى الحسن البصرى، ورجح ابن تيمية هذه التسمية من لبس الصوف زهداً.

وقال آخرون هى نسبة إلى الصّفة لاتصافهم بالمحامد، أو أنه من الصفاء لصفاء قلوبهم.

وقال آخرون: إنه انتساب إلى أهل الصّفة ﷺ.

وأهل الصفة: هم قوم عبدوا الله حق عبادته، واتقوا الله حق تقاته وجاهدوا في الله حق جهاده، وأذاعوا علما وفضلاً، كانوا إذا ضرب أمر وجد جد، وعدا على المسلمين عاد خرجوا للجهاد باذلين أرواحهم فى سبيل الله، فلم يكونوا كفقراء التكايا يأكلون ويشربون ويصلون وينامون، لم يكونوا أهل دعة وتكفف فكانوا زهاء أربعمائة من فضلاء العباد والزهاد انقطعوا للذكر والتبتل فى مسجد المصطفى ﷺ ولكنهم لم يكونوا من القاعدين عن نصرة الحق والإسلام.

فأنت ترى أن المصطلح مختلف فيه أصلاً، كما اختلف فى النظر إليهم كما سيأتى.

فهل يجوز استخدام المصطلح؟

إن استخدام المصطلح جائز شرعاً حين يقصد به الجانب الإيجابى والمفيد للمسلمين، وأنت تقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ... ﴾ وذكرها المولى هنا فى مجال الذم، إلا أننا نرى رسول الله ﷺ استخدمها فى مجال يعود على المسلمين بالنفع قال ﷺ: «رهبانية أمتى الجهاد».

فالقرآن ذم الرهبانية والرسول ﷺ استخدم الكلمة فيما يفيد المسلمين تربية:

وفى الحديث الثابت عن النبى ﷺ: إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم بينما القرآن يقول: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ... ﴾[الأحزاب:٤٠].

ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يقال فيه ﷺ إنه أبو المؤمنين وإن كان يقال فى أزواجه أمهات المؤمنين، فيقال هو مثل الأب أو كالأب أو بمنزلة أبينا، ولا يقال هو أبونا أو والدنا، بالرغم من أن بعض العلماء جوز هذا، والأحوط التورع والتحرز عن ذلك [١].

واسمع إلى هذا الموقف: روى أن رجلين قدما على رسول الله ﷺ فخطب أحدهما فعجب الناس من فصاحته وبلاغته فقال رسول الله ﷺ: **إن من البيان لسحراً.**

فإن قيل: كيف سمى عليه السلام روعة البيان سحراً مع أن السحر مذموم عقلاً ونقلاً.

فالجواب أن هذا على المجاز لاعلى الحقيقة فالخطيب يستميل القلوب بحسن بيانه، وروعة أدائه، وجمال تعبيره كما يستميل الساحر قلوب الحاضرين إليه بخفته ورشاقته وتمويهه على الحاضرين فمن هذا الوجه سمى البيان سحراً [٢].

أفلا يجوز حتى ولو من باب المجاز أن يستخدم الإمام البنا مصطلح «حقيقة صوفية» فى بعض أوصاف جماعته؟.

إن للنقد آداباً وإنصاف العلماء أمر مطلوب ومرغوب، فهم إن أصابوا لهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجرهم. فحسن الظن بهم مقدم. واسمع إلى أدب الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى وهو يعلمنا كيف يكون موقفنا من العلماء إن قالوا غير ما نعتقد،

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩.

(٢) تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ ١ ص ٧٦.

يقول عن الإمام الشيخ محمد عبده: « وقد أخذ على الشيخ محمد عبده ـ وانظر إلى الأدب فى قوله أُخذ المبنى للمجهول ـ بعض آرائه فى تأويل القرآن، كقوله فى قصة آدم، وكلامه عن الطير الأبابيل، ونحو ذلك، وعذره أن الحضارة الغربية كانت فى أوجها وكان الانبهار بها على أشده، لذلك غلبت النزعة العقلية، ومحاولة إخضاع النص حتى يوافق المفاهيم الجديدة.

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما، وتقدير فكره وعمله أن يضعه فى إطاره التاريخى والخاص لا يعدو به زمانه ومكانه إلى زماننا نحن ومكاننا، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحاً مسلماً لم يكن كذلك فى زمنه، فرحم الله امرءاً أنصف من نفسه، وأعطى كل عامل ما يستحقه وأقام الشهادة لله»[1].

أرأيت يا أخى كيف يكون النظر إلى كلام العلماء وكيف ننصفهم؟.

ومن هنا فإننا نستطيع أن نستخدم المصطلح فيما يحمل من معنى يعود على المسلمين بالنفع. فلم يخطئ إذاً الإمام البنا حين قال عن دعوة الأخوان «حقيقة صوفية» مستخدماً الكلمة قاصداً جانبها الإيجابى كما سنبين بمشيئة الله تعالى.

انطباع خاطئ: عند بعض الناس انطباع عجيب إذا ذكر التصوف، فهو عندهم صورة شائهة لحلقات الذكر المليئة بالبدع والمنكرات والخرافات، فإذا ذكر التصوف ذكر التصوف الفلسفى الذى نقل عن الهنود واليونان الأقدمين وانطباعه عن الصوفية دائماً أنه عقائد وحدة الوجود والحلول، وشطحات المخرفين والمخربين منهم كالحلاج وابن عربى والفارابى وغيرهم، ونحن لا نختلف فى انحرافهم كيف لا وأحدهم يقول: أن القطب على قدم الرسول ﷺ ويقول على كل قدم نبى من الأنبياء عليهم السلام ولى من أولياء الله تعالى. وأن فى الأرض سبعة وأبدال ونقباء ونجباء، وكلما مات رجل أقام الله عز وجل عوضه رجلاً ولا تزال الوراثة دائمة فى علم الباطن وفى علم الظاهر إلى قيام الساعة.

بل وصل بهم الأمر إلى تفسير بعض آيات القرآن بهذا الأسلوب المنكر يقول بعضهم فى قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**...﴾ [التوبة:١٢٣] قالوا هى النفس. أمرنا بقتال من يلينا؛ لأن النفس أقرب الشر إلى الإنسان نفسه.

ويقولون: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ** ..﴾ يقولون نوح هو العقل ويعتقدون أن الله تعالى يلقى إليهم كلاماً ينتفعون به حتى أن ابن الصلاح يقول: إن الإمام أبا الحسن

(١) فقه الدعوة ملامح وآفاق ص ١٥٧.

الواحدى المفسر رحـمه الله قال: إن كان قد اعتـقد أن ذلك من التفسير فـقد كفر، وإن كان غير ذلك فقد سلك مسالك الباطنية وهذا فيه من الإيهام والالتباس ما فيه [1].

وهذا لا يختلف فيه مسلم أنه من المناكيـر التى يجب محاربتها، ولكن يبقى سؤال هل كل الصوفية على هذا المنوال وهذا الانحراف وهل كلهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار فى حلقات منكرة وأقوال منكرة وأفعال منكرة؟.

رأى علماء أهل السنة فى الصوفية؟

اسمع إلى ابن تيمية يقول: قد انتسب إلى الصوفية طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج وابن عربى.

ثم يقسم موقف العلماء منهم فيقول:

طائفة ذمتهم وقالوا مبتدعون خارجون عن السنة.

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء.

ثم يقول رأيه: إنهم مجتهـدون في طاعة الله كما اجتهد غـيرهم من أهل الطاعات ففيهم السابق المقرب بحسب اجتـهاده، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين، ومنهم مَنْ يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ويقول: وهذا باب قد تنازع فيه يقول هذا : أنا حنبلى، ويقول هذا أنا أشعرى وقد أحضرت كتب الأشعرى وكتب أكابر أصـحابه مثل كتب أبى بكر الباقلانى، وأحضرت أيضاً من نقـل مذاهب السلف من المالكيـة والشافعـية والحنبليـة وأهل الحديث **وشيـوخ الصوفية** وأنهم جميعاً متفقون على اعتقاد واحد [2].

ولنا وقفة:

إن التصوف الفلسـفى والذى قارب من الرهبانية البوذية والنصرانيـة وحارب الجسد واستـدار عن عمـارة الدنيا وكون أجـيالاً من الكسـالى القاعـدين المنسحـبين، وكذلك التصوف الذى يدعو لتشييد القبور فى المسـاجد ليطاف بها ويحتفى بأصحابها فى موالد ينكر كل عاقل ما يفعل فيها فضلاً عن المسلم الفاهم لدينه.

هذا تصـوف نرفضـه وننكره بقواعـد الإنكار المعروفـة ابتداءًا ولكن هناك تـصوف المجاهدين كـعبد الله بن المبـارك أو شقيق البلخى. هذا التـصوف الذى نبت فى أكناف

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٥.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج ٢ ص ٢٠٥.

الإيمان والإسلام والإحسان واهتم بالعبودية الحقة والحس الرقيق إن سجنى لخلوة، وإن نفى سياحة وإن موتى لاستشهاد.

تصوف يؤدى التكاليف برضى نفسْ رحب، ويترك المعاصى باستغناء واستعلاء ويتذوق الإيمان فينقله من التعريف إلى الاحساس القلبى؛ لأن العالم الذى لا قلب له كالشجرة التى لا ظل لها ولا ثمر، فالدين عقل وقلب وهنا نرى علماء جمعوا بين العقل والقلب، ألا ترى ابن القيم حين يتكلم فى مدارج السالكين كم يخفق قلبك أو تدمع عيناك أو يقشعر جسدك وكأنك ترى الجنة رأى عين أو أبا حامد الغزالى وهو يكشف لك اعوجاج أرسطو فى فكره، وأفلاطون فى نظره، وابن الجوزى وابن عطاء السكندرى والجنيد الذى قال فيه ابن تيمية وكان الجنيد ﷺ سيد الطائفة وإمام هدى، ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً[1]، وأثنى عليه ابن القيم فى مدارج السالكين[2]، أبو الحسن الشاذلى وغيرهم الكثير.

ماذا تقول عن تصوف أهل العلم والاستقامة كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبى سليمان الدارانى، وسهل بن عبدالله التسترى الذين ضبطوا التصوف بضوابط الشريعة فقدموا لنا دراسة عن البواعث النفسية وفرضوا رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية وعلمونا كيفية التمرس بمقام الإحسان وطول البقاء فى نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فإذا وهم يتتبعون آيات الله فى الأنفس والآفاق ومحاولة تدارس الحاضر والماضى والارتقاء على مستوى الكتاب والسنة ليحققوا الشخصية الإسلامية التى افتقدناها.

أبعد هذا يرفض التصوف بالكلية؟ ليس من النصفة فى شىء فإن التعميم فى الأحكام ليس بمنهج علمى.

واسمع إلى تلميذ من تلاميذ الإمام البنا يقول:

الأصل فى الصوفية أخذ النفس بأسلوب يطهرها من أدرانها ويزكيها ويصقلها فيرقى بها إلى مدارج الكمال الإنسانى وهو أسلوب من أساليب التربية ونحن الإخوان المسلمين نعتبر التربية الروحية أساس دعوتنا لتكوين الفرد. . . ثم يقول:

وليس معنى هذا أن ينقطع المسلم لهذا الأسلوب وينعزل عن المجتمع ولا يتخذ هذا الأسلوب للارتزاق وجمع المال والتسلط على الناس وكسب الصيت والسمعة، فللأسف

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ٥ ص ٤٩١ والمنطلق للراشد ص ١٩.
(٢) مدارج السالكين لابن القيم جـ ٢ ص ٢٧٦.

الشديد أن بعض مشايخ الطرق انحرفوا بأتباعهم عن الطريق الصحيح وانعزلوا عن المجتمع، ولما أحسوا بتيار الإخوان المسلمين الحركى يجذب بعضهم بعد أن عرضت عليهم فكرة الشمول أعلنوا الحرب على الجماعة خاصة فى الريف[1]. أليس هذا الفهم من أستاذه الذى عايشه وفهم منه؟

وإن تعجب فعجب قولهم: إن الإخوان المسلمين صوفيون مبتدعون، بينما الرجل - كما رأيت - يبين أن الصوفيين الذين انحرفوا حاربوا الجماعة، فبالأمس كان يحاربنا الصوفيون المنحرفون لانحرافنا عن الفهم السليم، واليوم نحارب لأننا صوفيون مبتدعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الحقيقة التى ندين بها :

من هنا فإننا لا نرفض الصوفية بالكلية، وكيف نرفضها بالكلية وهم الذين نشروا الإسلام فى إفريقيا، وماذا عن الذين رفعوا راية الجهاد فى بلادهم السنوسية فى ليبيا، والمهدية فى السودان، بل وفى الجزائر وتونس ومراكش وغير ذلك من بلاد المسلمين فضلاً عن أفاضل علمائهم الذين أشرت إليهم.

كما أن الحكم الدقيق فى هذه المسألة: أن منهم العالم التقى الورع المجاهد ومنهم الجاهل بدينه، ومنهم الكاذب المشعوذ، وقد تجد ذلك فى غيرهم من الجماعات. . . فهل أخطأ الإمام البنا حين قال عن دعوة الإخوان أنها «حقيقة صوفية»؟ أحسب أنه أصاب والله أعلم.

فاللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ للأستاذ محمود عبد الحليم ج ١ ص ١٣٦ دار الدعوة الإسكندرية.

المنكر الذي يجب محاربته

الأصل الرابع

«والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة، وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته. إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة».

***

المنكر الذى يجب محاربته

الأصل الرابع

« والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة، وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته. إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة» .

هذا الأصل يعالج:

المنكر الذى يجب محاربته كالتمائم والرقى والودع والرمل والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب.

قواعد وأصول محاربة المنكر:

هذا الأصل استكمال للأصل الثالث ينفى من مصادر التشريع ما ليس منها، ليتحدد الفهم السليم تحديداً دقيقاً ـ خاصة أن مثل هذه الأمور من التمائم والرقى والودع والرمل وغير ذلك كانت منتشرة فى زمان الإمام البنا، فانظر فقهنى الله وإياك كيف يعالج المربى مشاكل عصره وزمانه.

والقضية أن بعض الناس حتى يومنا هذا يدَّعون معرفة الأسرار والغيبيات بوسائل شتى حتى أن بعضهم يتشاءم من أماكن معينة وأيام محددة، بل وأشياء بعينها، وهذا لون من الجهل حاربه الإسلام منذ نزوله ليتوجه إلى الله وحده، ويقبل على عمله معتمداً على العزيز الحكيم فى تذليل ما قد يعترضه ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ . [الأنعام: ٧١].

حب الإنسان لمعرفة الغيب

يرجع حب الإنسان لمعرفة الغيب إلى أمرين يتملكان الإنسان:

أولاً: رغبته الملحة في سرعة اكتشاف الغيب وخاصة فيما يتعلق بمستقبله ومستقبل من يتصل به ﴿**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾ .

ثانيا: خوفه الشديد من اعتراض ما يعوقه عن أهدافه التى يتجه إليها ويعزم عليها ولذلك أخذ يتسمع لما يجرى بين الناس من الوهم والخيال عن طريق معرفة الغيب فى خيره وشره[1] .

(١) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت ص ٢٤ .

ومن هذه الطرق الشاذة: الولاية، الكهانة، التنجيم، ضرب الحصى والودع، وخطوط الرمل، الفنجان، الكف، المندل، استخارة المسبحة، استخارة القرآن، التشاؤم بالزمان والمكان سواء كان فى الساعة أو اليوم أو الشهر أو الأشخاص والأشياء والكلمات وأضغاث الأحلام وفى زماننا هذا تحضير الأرواح وحظك اليوم.

وهذا الدجل، وهذه الشعوذة تعطل الأعمال وتهمل سنن الله التى وضعها للسعادة والشقاء وتتعامى عن الأخذ بالأسباب.

فكم من ابنة منعوها من الزواج دجلاً، وكم من تاجر قعد عن السفر وأهمل تجارته اعتمادا على نبوءة دجال كاذب، وكم من مريض أهمل الأطباء والعلاج. وأخذ بهذه الشعوذات والخزعبلات، وكم تنشر الصحف والمجلات من هذا الدجل الكثير وهى التى يفترض فيها أن تكون مصدراً للثقافة والعجيب أننا سمعنا عن قرارات سياسية فى دول عظمى صدرت بعد استشارة منجمة كان يستشيرها الحاكم.

موقف الإسلام من التشاؤم:

أنكر الإسلام التشاؤم فقديماً تشاءم قوم موسى **﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾** [الأعراف: ١٣١] وتشاءم قوم صالح **﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾** [النمل: ٤٧] وتشاءم أهل قرية برسلهم **﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾** [يس: ١٨] فكان الرد عليهم أن الشر جاء من قبلكم ومن عند أنفسكم بكفركم وعنادكم وإهمالكم سنن الله **﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾** [الأعراف: ١٣١].

والغريب أنَّ هؤلاء المتشائمين يستشهدون بالقرآن للتدليل على صوابهم فى مثل قوله تعالى **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾** [القمر: ١٩] **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾** [فصلت: ١٦] **﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾** [الحاقة: ٦، ٧].

والحقيقة أن الإمام الألوسى وضح هذا اللبس الذى لديهم وهذا الفهم المعكوس حين قال: **﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾** فإذا كانت نحوسة الأيام لذلك فقل لى: أى يوم من الأسبوع خلا منها. والحق كما قال: إن كل الساعات سواء ولا اختصاص ليوم بنحوسه ولا لآخر بسعد وأنه ما من ساعة من الساعات إلا وهى سعد على شخص ونحس على آخر باعتبار ما يقع فيها من خير على هذا ومن الشر على ذاك وهكذا.

الغيب:

والإيمان بالغيب صفة من صفات المؤمنين، فهم يصدقون بما غاب عنهم وما لم تدركه حواسهم من البعث، والجنة والنار، والصراط والحساب وغير ذلك مما أخبر عنه القرآن أو النبى ﷺ يقول ربنا ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

فمن ادعى علم الغيب فقد تألى على الله وكذب على الناس، والغريب أن الجن الذين يدّعون وساطتهم فى ذلك يقولون: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وفى قصة سليمان بعد موته استبان حال الجن﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤]. وصدق الله القائل: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] وها هو ذا رسول الله ﷺ يقول:« لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء..» ويقول: ﴿لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠] وكذلك وجدنا يوسف عليه السلام يقول لصاحبى السجن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف:٣٧].

أبعد هذا يدعى مدع أنه يعلم الغيب. .إنه والله لكاذب.

التمائم والودع:

يكفى قول ربنا: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعا« مَنْ تعلق تميمة فلا أتمَّ الله له، ومَنْ تعلق ودعة فلا ودع[1] الله له» وفى رواية« من تعلق تميمة فقد أشرك»، والمعنى من علق

(١) أى لا جعله فى دعة وسكون وهذا دعاء عليه.

هذه الأشياء متعلقاً بها قلبه فى طلب خير أو دفع شر فلا أتم الله له، وهو دعاء عليه بعدم حصوله ما أراد.

وفى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى ﷺ: أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره فأرسل رسولا أن لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت»[1].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتوله شرك»[2].

والتوله شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى زوجته وهو نوع من السحر، وإنما كان من الشرك لما يراد من جلب المنافع ودفع المضار من غير الله.

الرقى:

والرقية ليست على إطلاقها ولكن المأثور منها مطلوب مرغوب وسنة عن الرسول ﷺ حين يقول: « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» أو تقول: « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما أجد وأحاذر» أو تقول: «اللهم رب الناس أذهب البأس واشفه أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً».

أو تقرأ الراقية فاتحة الكتاب والمعوذتين وغير ذلك من الأدعية والرقى المأثورة. . . أما ما يقال من الكهان والسحرة والمشعوذين وغيرهم فباطل وكل ما كان من هذا الباب فهو باطل ومنكر يجب محاربته.

كيف نحاربه؟

بالتثقيف وبث الوعى والتعريف بالإسلام الصحيح والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. والمجادلة بالتى هى أحسن فإذا لم يفد ذلك فبالزجر وبالتعنيف، وهذا يدعونا إلى أن نتكلم عن كيفية إنكار المنكر. .

كيفية إنكار المنكر:

قد يظن القارئ حينما يسمع ما قاله الإمام البنا: « **وكل ما كان من هذا الباب منكر يجب محاربته**» أن الأمر يحتاج إلى عنف وقوة وإرهاب؛ لأنه قال يجب محاربته لكن حين يفقه دينه ويعلم أن العلماء ـ صحيح ـ أنهم اتفقوا على وجوب الأمر بالمعروف

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه أحمد والترمذى.

والنهى عن المنكر اختلفوا فى تحديد هذا الواجب من وجهين:

١ـ فى صفة الواجب.

٢ـ فيمن يلزمهم هذا الواجب.

فقال بعض الفقهاء فى صفة الواجب أنه فرض عين على كل مسلم ولو كان هناك من هو أقدر منه، وأما الجمهور على أنه فرض كفاية؛ لأن الله يقول: ﴿ ولتكن منكم أمة﴾ و﴿من﴾ هنا التبعيض.

وأما فيما يلزمهم الواجب فالجمهور على أنه كل أفراد الأمة﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾[آل عمران:١١٠] وغيرهم قالوا القادرين عليه وهم علماء الأمة دون غيرهم، وحجتهم أن الجاهل ربما نهى عن معروف أو أمر بمنكر، وقد يغلظ فى مواطن اللين والعكس، وربما عرف الحكم فى مسألة وجهل الأخرى ولذلك فهم يقولون إنه فرض على العلماء، ولقد رد عليهم العلماء وقالوا: إن الواجب لا يسقط بتحميله للبعض دون البعض وإنما يسقط بالأداء فإذا لم يقم به العلماء فهو فرض على غيرهم؛ لأن فرض الكفاية يقتضى أن يلزم به الكل أولا حتى يقوم به من يكفيهم[(١)].

الشروط الواجب توافرها فى الآمر بالمعروف:[(٢)]

١ـ أن يكون مكلفا، أى مدركا مختارا.

٢ـ أن يكون مؤمنا بالدين الإسلامى.

٣ـ القدرة فإن كان عاجزاً فلا وجوب عليه إلا بقلبه.

٤ـ العدالة وهذه مختلف فيها، يقول سعيد بن جبير: إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شىء لم يأمر أحد بشئ.

٥ـ الإذن: وهو مختلف فيه بين العلماء أيضاً هل يأذن له الإمام أم لا والجمهور لا يشترط هذا فضلا عن العلم والورع وحسن الخلق.

ويشترط عند النهى عن المنكر لتغييره:

١ـ وجود منكر وهو كل معصية حرمتها الشريعة أو كل ما كان محذوراً فى الشرع.

(١) التشريع الجنائى فى الإسلام للشهيد عبد القادر عودة جـ١ ص ٤٩٥ بتصرف.

(٢) التشريع الجنائى (المرجع السابق) جـ١ ص.٤٩٩ بتصرف.

٢ـ أن يكون معلوماً دون اجتهاد، أى من الأمور القطعية المجمع عليها.

٣ـ أن يكون موجوداً فى الحال ـ أى وقت ارتكاب المنكر.

٤ـ أن يكون ظاهراً دون تجسس ولا تفتيش لأن الرسول ﷺ نهى عن تتبع عورات المسلمين وقال لمعاوية: «إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم».

وقصة الرجل الذى اعتلى عمر بيته ليضبطه متلبساً بجريمته فقال له: إن كنتُ قد ارتكبتُ منكراً واحداً فقد ارتكبت ثلاثة مناكير يا عمر: تجسست والمولى يقول: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وأتيت البيت من ظهره والمولى يقول: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ولم تستأذن والله يقول﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾[النور:٢٧] فتركه عمر واشترط عليه التوبة(١).

٥ـ دفع المنكر بأيسر ما يندفع به لا بأقل فلا يقف عند القليل من الدفع إن كان يقدر على الأكثر، ولا بأكثر إن كان الأيسر لا يحتاج إلا القليل.

وسائل تغيير المنكر:

١ـ **التعريف**: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ويقول المولى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٢) [التوبة: ١١٥] فوجب التعريف أولاً.

٢ـ **النصح والوعظ**: فالدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

٣ـ **التعنيف**: ويكون عند العجز عن المنع باللطف ويوجه إلى المصرّ المستهزئ بالوعظ والنصح ويشترط فى التعنيف شرطان.

أ ـ ألا يقدم عليه إلا عند الضرورة والعجز بعد اللطف.

ب ـ ألا ينطق المعنف إلا بالصدق ولا يسترسل بالتعنيف بما لا يحتاج إليه.

٤ـ **اليد**: وتكون لمن له ولاية ولها شروط:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) يمكن الرجوع تفصيلا لهذا الموضوع فى كتاب الدعوة قواعد وأصول للمؤلف دار الدعوة الإسكندرية.

أ ـ لا يكون إلا فى المعاصى التى تقبل بطبيعتها التغيير المادى أما معاصى اللسان والقلب فليس فى الاستطاعة تغييرها ماديا بعكس كسر أوانى الخمر أو إخراجه من الدار المغصوبة.

ب ـ لا يباشر التغيير باليد طالما استطاع أن يحمل فاعل المنكر على التغيير، فليس له أن يريق الخمر مثلا بنفسه إذا استطاع أن يكلف شاربها بإراقتها وهكذا.

جـ ـ أن يقتصر فيه على القدر المحتاج إليه بمعنى لا يشده من لحيته إن كان يستطيع أن يجذبه من يده، أو يحرق أدوات الملاهى إن استطاع كسرها أو يكسر أوانى الخمر لأن الأصل فى التغيير لا يقصد منه عقوبة فاعل المنكر ولا زجر غيره.

٥ـ التهديد بالضرب والقتل: التهديد يسبق الضرب كلما أمكن أى استخدام اللسان ويشترط فيه أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لأنهَبَنَّ دارك أو لأضربنَّ ولدك، أو لأسجنن والدك، أو لأسجنن زوجتك .. الخ.

وكل هذه الوسائل فى حق الكافة عدا:

أ ـ الوالدين: فالولد ليس على والديه إلا التعريف ثم النهي بالوعظ والنصح وليس له أن يعنفهما أو يهددهما أو يضربهما﴿ **فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا**﴾.

ب ـ الزوجة: حكمها مع زوجها حكم الولد مع ابويه لقول الرسول ﷺ «**لو جاز السجود لمخلوق لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها**» فلا تؤذى الزوجة زوجها.

جـ ـ الحاكم: ليس للرعية على الحاكم المسلم الذى يحكم بما أنزل الله إلا التعريف والنهى بالموعظة والنصح، أما التغيير باليد الراجح أنه غير جائز لأنه يفضى إلى خرق هيبته، وإسقاط حرمته وذلك محظور لقول الرسول ﷺ «مَنْ كانت عنده نصيحة لذى سلطان فلا يكلمه بها علانية، وليأخذ بيده فليخْل به فإن قبلها قبلها وإلا قد أدى الذى عليه والذى له» وقوله ﷺ «**من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله فى الأرض**»[1].

تغيير المنكر وابن القيم: [2].

جعل ابن القيم إنكار المنكر أربع درجات، فأنت حين تفكر فى التصدى لإنكار المنكر تحدث إحدى الاحتمالات الأربعة الآتية:

---

(١) التشريع الجنائى فى الإسلام للشهيد عبد القادر عودة جـ ١ ص ٥٠٦.

(٢) يراجع إعلام الموقعين الجزء الأول.

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده. **الثانية**: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله. **الرابعة**: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأولى والثانية مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد إما أن تزيله وإما أن تتركه، والرابعة محرمة أى أنك إن أقدمت على إزالته تقع فى الإثم.

وهكذا ترى الإمام الشهيد رضوان الله عليه يضع القواعد والضوابط والأصول، حتى يكون سلوك المسلم منضبطا ودعوته مؤصلة، وخطواته ممنهجة، ووعيه بعصره دقيق، ثم يدعو إلى الله على بصيرة لتقوية الروح الإنسانية والسمو بها عن مزالق الأوهام والخرافات إلى ميدان الحقائق والسنن الإلهية الثابتة التى بنى عليها صرح هذا العالم، ينقى العقائد مما شابها إذ إن العقيدة الصحيحة ما جاءت إلا لتخلص الإنسان من هذه الأوهام فبين - رحمه الله عليه - دجل الدجالين وشعوذة المشعوذين، ونبه إلى عبث العابثين حتى تصفو العقيدة فيجمع المسلم بين صحة الاعتقاد وصدق الاتباع ثم ينطلق فى طريقه متوكلا على الله متحملا الإيذاء فى سبيله، ويقول: ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

* * *

مصالح العباد والأصل فى الأشياء

الأصل الخامس

« ورأى الإمام ونائبه فيما لانص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة، وفى المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل فى العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعانى وفى العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد ».

* * *

مصالح العباد والأصل فى الأشياء
الأصل الخامس

«ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة، وفى المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل فى العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعانى وفى العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد».

هذا الأصل يعالج:

١ـ رأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه وفيما يحتمل وجوهاً عدة.

٢ـ المصالح وأنواعها وحكمها.

٣ـ الأصل فى الأشياء الإباحة.

٤ـ الأصل فى العادات والعبادات.

قد يظن البعض أن الرأى هو القول فى مسألة بالهوى والظن دون قواعد ولا أصول، هذا فهم خاطئ لا شك فى ذلك؛ لأن الرأى فى الشرع قد يكون مرادفا للاجتهاد كما ذكر الإمام الشافعى، وهو على كل حال الاعتماد على الفكر فى استنباط الأحكام الشرعية.

وقول ربنا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ إنما يعنى أن تكون المشاورة فيما يحكم فيه بطريق الاجتهاد، لا فيما يحكم فيه بطريق الوحى، وقد ورد عنه ﷺ قوله: **«أنا أقضى بينكم فيما لم ينزل فيه وحى»**.

وروى عن على بن أبى طالب ﷺ أنه قال: قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن، ولم يمض فيه منك سنة، قال: أجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد».

أو كما قال ﷺ :

فالرأى إذاً الاجتهاد، والاجتهاد له شروطه وقواعده وأصوله فليس كل أحد يقول برأى فى الشرع، ولذلك قال الإمام البنا ورأى الإمام ونائبه.

من هو الإمام: هو إمام المسلمين وحاكمهم وأميرهم فما هى شروطه:

١ـ الإسلام: فهو من المسلمين لقول الله: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ويقول: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾.

٢ـ الذكورة أو الرجولة «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»(١).

٣ـ أن يكون عدلا فى دينه لا يعرف عنه فسق، متقيا الله ورعـاً، عارفاً بأمور السيـاسة وشـئون الحكم، جريئـاً على إقامـة حدود الله لا تأخذه فـى الله لومة لائم، شجاعاً ذا دراية بمصالح الأمة وسبل تحقيقها مع الحرص عليها.

٤ـ أن يكون جامعاً للعلم بالأحكام الشرعية، لأنه مكلف بتنفيذها، إذ لا يمكنه التنفيذ مع الجهل﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾.

هذا الإمام ونائبه هو الذى له حق الرأى فيـما لا نص فيه(٢). فإذا اختلف الفقهاء فى مسألة خلافية فيهـا أكثر من رأى فله هو أو نائبه إلزام الجماعة المسلمة برأى من هذه الآراء تلزمه ولا تحيد عنه. فما هو النص(٣)؟

إن علمـاء الأصول بحـثوا دلالات الألفـاظ والعبـارات وما فـيها مـن وضوح أو غموض، لأن بعضهـا يكون واضحاً وبعضها يكون غامضـاً، ثم بحثوا اللفظ من حيث اشتراكه في أكثر من معنى ـ والموضوع له تفصيل فى كتب الأصول لمن أراد ـ.

ذلك لأن قواعد التفسير اللغوى تقتضى أن ندرس الدلالات والعبارات والألفاظ أو مفهوماتها.

فالنص الشرعى مكون مـن ألفاظ لها دلالاتها، وعبارات لـها مفهومات: مـفهوم العبارة، ومفهوم الإشارة، ومفهوم الدلالة، ومفهوم الاقتضاء، ومفهوم المخالفة.

وتنقسم الألفاظ والعبارات والنصوص من حيث ظهور معناها إلى:

أ ـ نوع واضح الدلالة على معـناه وليس فى دلالته غمـوض ولا إبهام وهو ليس على درجة واحدة، بل وضوح دلالة بعضه أوضح من بعض وهو مقسم إلى: الظاهر ـ والنص ـ والمفسر ـ والمحكم.

ب ـ نوع غـامض الدلالة وفيـه غمـوض وخـفاء وليس أيضـاً على درجة واحـدة فهناك:

---

(١) رواه الإمام البخارى.

(٢) جميع الشروط ذكرها شهيد الإسلام عبد القادر عودة فى كتابه القيم التشريع الجنائى فى الإسلام جـ ١.

(٣) مختار من المرجع السابق.

الخفى ـ والمشكل ـ والمجمل ـ والمتشابه .

وفى الأمر تفصيل ليس هنا مجاله ولكن المهم هو أن النص ما دلت صيغته دلالة واضحة على معناه المقصود أصلاً من السياق كقول الله : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فهذا نص على عدم المماثلة بين البيع والربا .

فهو إذن اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره. بعكس المتشابه الذى يحتمل معنيين احتمالاً متساوياً، فرأى الإمام إذن كما قال البنا فيما لا نص أى النصوص التى تحتمل تأويلاً والتى لها وجوه عدة معمول به ومعتبر، فإذا اصطدم بنص أو قاعدة شرعية لا يعتد به ولا يعتبر على خلاف وهاك مثالاً على ذلك:

هناك إجماع أن رسول الله ﷺ كان يصلى العيد أولا ثم يخطب الناس وهناك أحاديث صحيحة كثيرة تثبت ذلك منها .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «شهدت مع رسول الله ﷺ العيد وأبى بكر وعمر وعثمان فكلهم صلى قبل الخطبة بغير آذان ولا إقامة»(١) .

وعن طارق بن شهاب عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: أخرج مروان المنبر فى يوم عيد ولم يكن يُخْرج به ـ أى أن رسول الله ﷺ ما كان يخطب على منبر فأخرج هو المنبر ـ ويبدأ بالخطبة قبل الصلاة ولم يكن يُبدأ بها ، وقال فقام رجل فقال لمروان خالفت السنة ، وأخرجت المنبر يوم عيد ولم يك يخرج به فى يوم عيد، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة ولم يك يُبدأ بها قال فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه [يقصد أمر ونهى عن منكر] سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من رأى منكم منكرا فإن استطاع أن يغيره بيده فليفعل وقال مرة فليغيره بيده، فإن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع بلسانه فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» .

فهذا حاكم المسلمين فى زمانه رأى أن من مصلحة العباد تقديم خطبة العيد على الصلاة فأصبحت هذه المصلحة غير معتبرة؛ لاصطدامها بنص وهنا نحتاج إلى وقفة لنتعرف على:

مصلحة العباد: ومصلحة العباد، ورفع الحرج عنهم هى أصل الشريعة **«وما جعل عليكم فى الدين من حرج»** بنيت شريعة الله على ذلك فلا يوجد نص فى الكتاب والسنة يصطدم بمصلحة العباد **﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾** .

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود وابن ماجه والدارقطنى.

ومصلحة العباد هى ما يدفع عنهم المضرة، ويجلب لهم المنفعة ﴿ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.. ﴾.

ولذلك قسم الفقهاء المصالح إلى ثلاثة أنواع:

١ـ مصالح معتبرة: وهى التى أعطاها الشارع الحكيم درجة الاعتبار ونص على حلها كالزواج، والبيع والشراء وكل ما أمر الله به فعلاً للمأمور وتركاً للمحظور ولا يمكن أن يكون هناك حكم من الله يضاد مصلحة العباد على القطع، لأن الشرع وحى من الله وهو معصوم من ذلك وهو يقدر المصلحة التى تعود على العباد بالفائدة فى حياتى الدنيا والآخرة، وحكم الله يتعدى العقل والحكمة.

وتنقسم المصالح إلى:

المصالح الضرورية: وهى التى لابد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا إذا فقدت لم تحصل المصالح وهى «حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال».

المصالح الحاجية: وهى المصالح التى توسع على المكلفين وترفع الضيق الذى يؤدى إلى الحرج كرخصة السفر ـ والفطر فى المرض، وقصر الصلاة، وإباحة الصيد إلخ.

المصالح التحسينية: وهى ما يرجع إلى التحسين والتزيين كستر العورة، والزينة، والنوافل وآداب المأكل والمشرب وهكذا.

٢ ـ مصالح مهدرة: أى غير معتبرة وهى المصالح التى أعطاها الشارح الحكيم درجة الإهدار ونص على حرمتها، بالرغم من أن فيها منافع للناس، فالخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس وغير ذلك الكثير.

ـ كالذى يأمر بالإفطار فى رمضان لمصلحة الإنتاج.

ـ والذى يجعل صلاة الجمعة متعددة فى أوقات مختلفة بإمام واحد حرصا على الدخل القومى.

ـ أو يساوى بين الرجل والمرأة فى الميراث.

ـ أو يقيد الطلاق ويحدد عدد الزوجات بواحدة.

- أو يحدد النسل باثنين فقط.

- أو يجيز الربا لمصلحة البلاد والعباد.

- أو يحل الخمر والنساء للسياحة ولزيادة العملة الصعبة.

- أو الاختلاط بين الجنسين.

كل ذلك مصالح مهدرة غير معتبرة؛ لأنها تصطدم إما بقاعدة شرعية أو نص.

٣- مصالح مرسلة: وهى التى أرسلها الشرع فلم ينص عليها باعتبار أو إهدار ولا تصطدم بقاعدة شرعية مثل: لا ضرر ولا ضرار، درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها، الضرر يدفع بقدر الإمكان وهكذا وهذه المصالح المرسلة مثل زراعة صنف معين كالذرة والقمح أو القطن لحاجة البلاد فلا بأس بها؛ لأن ذلك لا يصدم لا بقاعدة شرعية ولا نص وكذلك الصناعات المختلفة وكل شىء فيه مصلحة للناس لم ينص عليها الشرع كالترع والمصارف والكبارى والمستشفيات والمدارس والملاهى إلخ.

فرأى الإمام يعمل به فى هذه المصالح وفقاً للظروف والعادات والأعراف والقاعدة فيها: يمكن تغيير الحكم فيها طبقا للمصلحة الإسلامية، يقول الإمام الشافعى: واجتهادات الإمام قد تتغير بحسب الظروف والعرف والعادات.

الأصل فى الأشياء الإباحة:

كان هذا أول مبدأ قرره الإسلام، الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع هو الحل والإباحة ولا حرام إلا بنص، ونص صريح وصحيح من الشارع بتحريمه فإذا لم يكن النص صحيحاً كبعض الأحاديث الضعيفة - أو لم يكن صريحاً فى الدلالة على الحرمة بقى الأمر على أصل الإباحة.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ومن هنا يجب أن تتنبه إلى أن دليل الحل ليس هو المطلوب وإنما دليل التحريم فإذا عرفته استبان لك الحلال؛ لأن الأصل فى الأشياء الإباحة، ولذلك فإن المولى يقول: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

من هنا ضاقت دائرة المحرمات ضيقاً شديداً واتسعت دائرة الحلال اتساعاً بالغاً،

فالنصوص التى جاءت بالتحريم قليلة جدا، ومـالم يجئ بحله أو بحرمته فهو باق على أصل الإباحة فى دائرة العفو الإلـهى[1].

يقول ﷺ [2] : ما أحل الله فى كـتابه فهو حـلال، وما حرم فهـو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا وتلا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[مريم: ٦٤].

وعن سلمان الفـارسى سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفـراء، فقال: الحلال ما أحل الله فى كتابه، والحرام ما حرم الله فى كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنكم[3].

ويقول ﷺ : إن الله فـرض فرائض فلا تضـيعوها، وحـد حدوداً فلا تعـتدوها وحرم أشـياء فـلا تنتهكوها، وسكت عن أشـياء رحمـة بكم غيـر نسيان فـلا تبحـثوا عنها[4].

يقول الدكـتور القرضـاوى: لا تقتصـر الإباحة على الأشـياء والأعيـان بل تشمل الأفعال والتصرفـات التى ليست من أمور العبادة وهى التى نسميـها العادات والمعاملات وقوله: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ عام فى الأشياء والأفعال هذا بخلاف العبادة.

ويقول ابن تيمية: إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم، وعادات يحتاجون إليها فى دنياهم.

فباستقراء أمور الشريعة تعلم أن العـبادات التى أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بشرع.

وأما العادات فهى مـا اعتاد الناس فى دنياهم مما يحتاجون إليـه، والأصل فيه عدم الحظر فلا يحظر منه إلا ما حظره الله؛ وذلك لأن الأمر والنهى هما شرع الله.

ويقول الإمام أحمد وفقهاء الحديث: إن الأصل فى العبادات التوقيف فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله وإلا دخلنا فى معنى قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ والعادات الأصل فيها العفو فلا يحظر منها إلا ما حرمه وإلا دخلنا فى معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

---

(١) الحلال والحرام للدكتور يوسف القرضاوى ص ٢٠ بتصرف.

(٢) رواه الحاكم وصححه وأخرجه البزار.

(٣) رواه الترمذى وابن ماجة.

(٤) رواه الدراقطنى وحسنه النووى.

ويقول ابن القيم: الأصل فى العبادات البطلان إلا ما شرعه الله ورسوله، والأصل فى الفروج التحريم إلا ما أباحه الله ورسوله، عكس هذه العقود والمطاعم الأصل فيها الصحة والحلال إلا ما حرمه الله ورسوله وأبطله.

ومن هذا الباب قول جابر بن عبد الله: كنا نعزل والقرآن ينزل، فلو كان شىء ينهى عنه لنهى عنه القرآن، فهم فى حل لأفعالهم حتى يبين القرآن[١].

ومن هنا فإن القاعدة أن الأصل فى العبادات التوقيف والتعبد بها لله سبحانه وتعالى، والأصل فى العادات البحث فى الحكم والمقاصد، فإن فهمنا حكمة الله فى شئ حمدنا الله على ذلك فإن عجز العقل عن إدراكها اتهمنا العقل بالعجز ولا نتهم الشرع بالنقص. . . فهل فى هذا ما يخالف كلام الإمام البنا.

لقد أصبت يا إمام رضوان الله عليك حين قلت: الأصل فى العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعانى وفى العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد.

* * *

(١) الحلال والحرام للدكتور القرضاوى.

الميل القلبي والتعصب للأشخاص

الأصل السادس

« وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله تعالى عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أولى بالاتباع ، ولكنا لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا » .

* * *

الميل القلبى والتعصب للأشخاص
الأصل السادس

« وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله تعالى عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أولى بالاتباع، ولكننا لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا».

بعد أن قدم الإمام البنا الفهم الشامل للإسلام، وحدد مصادر هذا الفهم وبين لنا المصادر التى ليست من أدلة الأحكام الشرعية والمنكر الذى يجب محاربته انتقل بعد ذلك إلى احترام رأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه وحدد مصالح العباد المعتبرة والمهدرة والمرسلة ثم انتقل إلى معالجة الميل القلبى والتعصب لبعض الأشخاص حتى تكون الطاعة لله وحده لا شريك له فكان هذا الأصل الذى يعالج الأمور الآتية:

١- مصدر التلقى الكتاب والسنة، أما غير ذلك فيؤخذ منه ويرد ولا عصمة إلا لرسول الله ﷺ .

٢- احترام العلم والعلماء لا الميل القلبى للأشخاص والتعصب لهم.

٣- من هم السلف والسلفية ووجوب اتباعهم.

٤- احترام الصحابة وحبهم وعدم الخوض فى الخلاف الذى كان بينهم.

وبعض الشباب حين يستشهد بهذا النص « **وكل يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ** » ينتابه شعور بأن من حقه التطاول على العلماء ورد ما يقولون وينسى أن حق الرد على العلماء للعلماء أمثالهم فإن للعلم والعلماء فضل نحب أن نبينه، كما نبين منزلة العالم والمتعلم حتى يعرف كلٌ قدره.

فضل العلم:

لا يجهل مسلم أن أول ما أنزل على رسول الله ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ..﴾ ثم أقسم الله بمادة العلم ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ثم ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وأمر رسوله

ﷺ أن يقول: ﴿ رب زدنى علما﴾ فقال ﷺ « اللهم إنى أسألك علما نافعا».

ولعن المولى سبحانه وتعالى الذين يكتمون العلم النافع﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

وأخذ الميثاق من الذين أوتوا الكتاب﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

لهذا فإنه ليس من المعقول شرعا ولا عقلا أن يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون والقرآن يبين ذلك فيقول: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ويقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ويقول: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ولا عجب فى ذلك فبصلاح الحكام والعلماء يصلح المجتمع أليسوا ورثة الأنبياء؟

ولذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس[1]»؟

وعن معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين».

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «من سلك طريقا يلتمس منه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة».

وعن أبى أمامة يقول: إن الله وملائكته وأهل الأرض حتى النملة فى جحرها حتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير.

فضل العلماء[2]:

كان ابن عباس يأخذ بركاب زيد بن ثابت ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا.

وعن سعيد بن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: « كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاما فكنت أحفظ عنه فما يمنعنى من القول إلا أن ههنا رجالا هم أسن منى»[3].

واسمع إلى ما يقوله على رضي الله عنه وهو يقول: إن من حق العالم عليك:

(1) الفتح الربانى جـ ١ ص١٤٤ حديث ١.
(2) عن كتاب أعلام الموقعين لابن القيم الجزء الأول.
(3) متفق عليه.

ـ أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية.

ـ وأن تجلس أمامه.

ـ ولا تعينه فى الجواب.

ـ ولا تطلبنّ عثرته.

ـ وإن زل قبلت عثرته.

ـ ولا تقولن له سمعت فلانا يقول كذا ولا إن فلانا يقول بخلافك.

ـ ولا تصفنّ عنده عالما فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر حتى يسقط عليك منها شىء.

ويقول ابن عمر عن رسول الله ﷺ « أفضل العبادة الفقه وأفضل الدين الورع»[1] وقال ﷺ : « ثلاث لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة فى الإسلام، وذو العلم وإمام مقسط»[2].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يظهر الإسلام حتى يختلف التجار فى البحار وحتى تخوض الخيل فى سبيل الله ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون: مَنْ أقرأ منا؟ مَنْ أعلم منا؟ مَنْ أفقه منا؟ ثم قال لأصحابه هل فى أولئك من خير قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «أولئك منكم من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار»[3].

ويقول ابن عباس عن النبى ﷺ : إن عيسى عليه السلام قال: «إنما الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعه، وأمر تبين لك غيه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فرده إلى عالم»[4].

من أجل ذلك قال أبو ذر: العالم والمتعلم شريكان فى الخير وسائر الناس لا خير فيهم، كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك.

والعلماء هم المتواضعون أصحاب الأخلاق العالية فهم أحاسن الناس أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ولذلك:

يقول عمر بن الخطاب: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن يعلمكم، وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا من جبارى العلماء فلا يقوم عملكم مع جهلكم»[5].

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٦٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية للإمام شمس الدين بن عبد السلام الحنبلى جـ ٢ ص ٥١.

وتقول عائشة ﵂: تغفلون أعظم عبادة: التواضع[1].

وقال الشعبى: «اتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين فإنه آفة كل مفتون»[2].

وقال الثورى: نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون[3].

وقال الفضيل بن عياض: إن الله يحب العالم المتواضع ويبغض العالم الجبار[4] لهذا كان يتورع العلماء عن الفتيا وكثرة الكلام، وكانوا يتعففون عن إبداء الرأى وإظهار الحكم فى مسائل الاجتهاد وكانوا لا يرغبون فيها.

يقول عبد الرحمن بن أبى ليلى أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ودّ أن أخاه كفاه ذلك، ثم آل الأمر إلى أقوام يدعون العلم يقدمون على الجواب فى مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر واستشارهم[5].

بالرغم من أنهم كالإخاذ، الإخاذ يروى الرجل ويروى الرجلين ويروى العشرة والألف والإخاذ لو اجتمع عليه أهل الأرض لكفاهم.

ولذلك فإنك تستمع إلى عمر بن الخطاب يقول: العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة ماضية، ولا أدرى[6].

وقال ابن مسعود: إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون.

وقال الإمام أحمد: ليس كل شىء ينبغى أن يتكلم فيه، كان النبى ﷺ حين يُسأل يقول: لا أدرى حتى أسأل جبريل.

وقال سفيان: من فتنة الرجل إذا كان فقيها أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت[7].

وقال عبد الملك بن عمير: إضاعة الحديث أن يحدث به من ليس بأهل.

وصدق الرسول الكريم ﷺ القائل: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من

---

(1) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥١.
(2) المرجع السابق جـ ٦ ص ٥١.
(3) الآداب الشرعية جـ ٢ ص ٦٥.
(4) المرجع السابق.
(5) أعلام الموقعين الجزء الأول.
(6) الآداب الشرعية جـ٢ ص ٦٥.
(7) الأقوال السابقة من كتب الآداب الشرعية جـ٢ ص ٦٥.

الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُترك عالما، اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1].

وعن أنس بن مالك: رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت **الجهل** (أى ينتشر) وتشرب **الخمر ويظهر** الزنا[2] هذا هو فضل العلم والعلماء فأين نحن من ذلك، فهل أدركت أخى المسلم الشاب **أن الكل يؤخذ من كلامه ويرد،** وهذا لا خلاف فيه ولكن هل سألت نفسك من له حق الرد على العلماء أعتقد أن الأمر وضح الآن فليس كل إنسان له هذا الحق إلا لفسدت الأمور، واختل النظام وهلك الحرث والنسل فتصدى غير المتفقه وغير العلماء لمثل هذه الأمور العلمية الدقيقة وتوسد الأمر إلى غير أهله.

فعن زيادة بن لبيد رضي الله عنه قال: ذكر النبى ﷺ شيئا فقال وذاك عند أوان ذهاب العلم قال قلنا: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبنائنا ويقرؤه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة قال: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنتُ لأراك أفقه رجل بالمدينة أو ليس اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء»[3].

وعلى هذا فإن الذى يرد قول العلماء لابد وأن يكون أهلا لذلك ويجب أن يتحلى بـ:

١ـ تحرى الصدق.

٢ـ تحرى القصد.

٣ـ تحرى الأسلوب الطيب.

٤ـ تحرى الموضوعية.

لأنه لا عصمة إلا لأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ولا عصمة لأحد غيرهم.

يقول الإمام الشافعى: إذا صح الحديث فهو مذهبى، ويقول غيره من العلماء: إذا خالف قولى حديث رسول الله ﷺ فاضربوا به عرض الحائض فأين هذا الكلام من المتعصبة الذى قال أحدهم: كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو منسوخ أو مؤول فأى غلو وأى تعصب هذا !!.

أعتقد أن الفرق وضح بين التعصب واحترام العلماء وكيف نختلف معهم؟ فالإخوان المسلمون يحترمون ويقدرون إمامهم البنا رحمة الله عليه ويسندون ما يقولونه إليه لأنه كما قيل من بركة العلم إسناده لقائله.

---

(١) الفتح الربانى جـ١ ص ١٨١.

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٨٣.

(٣) الفتح الربانى جـ١ ص ١٨٣.

وإلا ماذا نقول عن إمام كابن القيم كثيراً ما يقول قال شيخنا يقصد ـ ابن تيمية ـ ويسند ما يقوله إليه بل إن ابن تيمية نفسه كثيرا ما يذكر الإمام أحمد بن حنبل ويسند ما يقوله له وأحمد بن حنبل يذكر الشافعي والشافعي يذكر الإمام مالك وهكذا فهل هؤلاء متعصبون لعلمائهم أم مقدرون لهم؟.

إننا نلتزم بالأصول التي قالها البنا وأصَّل بها دعوته؛ لأنها مستمدة من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من تختلف، فالأهداف التى حددها لا يختلف عليها مسلم وكذلك الغايات، أما الوسائل فقد نختلف من زمان إلى زمان ومن بيئة إلى أخرى فما العيب فى ذلك؟

إننا فى كل ما يقول الإمام البنا ويعتقده نرده إلى الله ورسوله؛ ذلك لأن الله يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾، فالله وحده المشرع ورسوله هو المبين فلا شرع إلا ما شرع الله أو ما شرع رسوله ﷺ وبوفاة الرسول ﷺ انتهى عهد التشريع أى انتهت العصمة.

والعصمة: معناها حفظ ظواهر الأنبياء وبواطنهم من التلبس بمعصية فهو معصوم من القتل حتى يبلغ رسالة ربه.

معصوم من العيوب التى تنفر الناس منه، لأن وجودها يمنع الفائدة من الرسالة وما قيل عن أيوب عليه السلام أنه مرض مرضا منفرا كذب وافتراء عليه.

لكنهم لهم صفات البشر:

١ـ يأكلون ويشربون ويتصلون بأزواجهم.

٢ـ يرضون ويفرحون ويحزنون ويغضبون ويخافون.

٣ـ يمرضون بأمراض لا تعجزهم عن أداء رسالتهم ولا تنفر الناس منهم فلا يجوز عليهم الإغماء الطويل، ولا الجذام والبرص والجنون والعمى.

٤ـ يجوز عليهم السهو وعدم إصابة الأولى، وأما النسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم.

والذين يعتقدون فى عصمة علمائهم وأئمتهم، هم الشيعة وغلاة المتصوفة فالكيسانية من الشيعة تقوم على أساس أن الإمام شخص مقدس يبذلون له الطاعة ويثقون بعلمه ثقة مطلقة ويعتقدون فيه العصمة عن الخطأ؛ لأنه رمز للعلم الإلهى وكذلك الاثنى عشرية الذين يعتبرون الأئمة أوصياء استودعهم النبى أسرار الشريعة

ليبينوا ما لم يبينه الرسول ﷺ ، وإن ما يقول الأوصياء شرع إسلامى لأنه تتميم للرسالة حتى أنهم يخصصون النصوص العامة ويقيدون النصوص المطلقة، ولذلك قرروا أن الإمام معصوم عن الخطأ والنسيان والمعاصى، يجوز أن تجرى خوارق العادات على يده لتثبيت إمامته ويسمونها معجزة.

فهل ترى بعد أن بينا معنى العصمة، فهل ترون أن أتباع الإمام البنا يعتبرونه هكذا ويصفونه بهذه الصفات وينشرونها بين الناس كعقيدة لديهم أجيبونا بصدق وأنصفونا يرحمكم الله ورضوان الله عليه حين قال: «**وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم** ﷺ » هذا ما طالبنا به رحمة الله عليه.

وهذا كلام السلف الذى ندين به فمن هم السلف؟

السلف والسلفية: معناها زمانا القرون الثلاثة الأولى تنتهى عند المأمون تقريبا «خير القرون قرنى ثم الذى يليه ثم الذى يليه».

والسلفية ليس المقصود بها الزمان فقد انتهى زمانها، وليست المقصود بها مكانا معينا ولا علماء معينين فبعض الناس يقصرون السلفية على فقه الإمام أحمد بن حنبل فماذا عن غيره من الأئمة؟ وفقهاء السلف الذين خالفوا الإمام أحمد فى أصوله؟.

والذين يظنون أن السلفية هى مدرسة النص فماذا عن مدرسة الرأى وهى كمدرسة الأثر سواء بسواء أم نعتبر الإمام أبا حنيفة ليس سلفيا لا هو ولا تلاميذه ولا مدرسته. أجيبونا غفر الله لنا ولكم.

ونحن نرى أن السلفية هى نزعة عقلية وعاطفية ومنهجية ترتبط بخير القرون وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتبذل الجهد لإعلاء كلمة الله على الأرض ولذلك فهى لها منهج للعقيدة يفسر الكون والحياة والإنسان بعيدا عن علم الكلام ومستمدا من منهج القرآن(١)، ومنهج للعبادة يقوم على الشمول والعموم والكمال والسمو ينبع من صحة الاعتقاد وصدق الاتباع ومنهج لحركة تعريفا وتكوينا وتنفيذا.

فإذا جاء عالم من العلماء بهذا التصور فى أى زمان وفى أى مكان وبأى لغة يعبر بها عن هذا المنهج وبلغة عصره كان سلفيا عقيدة وعبادة وحركة طالما أنه يقدم مفاهيم السلف الصالح ويتمسك بسنة الخلفاء الراشدين.

فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل

(١) يراجع كتاب منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف، طبعة دار الدعوة ـ الإسكندرية.

علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله كأنه موعظه مودِّع فماذا تعهد إلينا؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدى سيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(١).

فنحن الإخوان المسلمين دعوة سلفية عقيدة وعبادة وحركة.

فضل الصحابة:

الآيات القرآنية فى فضل الصحابة كثيرة منها**﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾** وقوله: **﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ...﴾** وقوله: **﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾**.

وها هو ذا عمر يقول مرفوعا: سألت ربى عن اختلاف أصحابى من بعدى فأوحى إلىّ: يا محمد إن أصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء بعضها أقوى من بعض ولكل نور، فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم فهو عندى على هدى(٢).

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: من كان مستنا فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير أمة أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم والله ورب الكعبة(٣).

وعن قتادة قال: سئل ابن عمر ﷺ: هل كان أصحاب النبى ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإيمان فى قلوبهم أعظم من الجبال(٤).

ولهذه المنزلة العالية فإننا لا نتعرض لخلافهم وأشخاصهم بشىء فيما اختلفوا فيه، ويا لروعة ما قاله بعض العلماء سئل عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فقال: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته ـ حين قال لا تثريب عليكم.

وسئل الحسن البصرى عن قتالهم قال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا.

(١) أخرجه الترمذى وأبو داود.
(٢) جمع الفوائد جـ٢ ص ٢٠١.
(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية جـ١ ص ٣٠٥.
(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية جـ ١ ص ٣١١.

وقال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله عز وجل[1].

فهل نتأدب بهذا الأدب العالي وننهج هذا المنهج القويم نسألك اللهم علما نافعا وقلبا خاشعا ولسانا ذاكرا وعملا صالحا متقبلا وجسدا على البلاء صابرا.

* * *

(١) روائع البيان جـ ٢ ص ٤٨٢ والقرطبي جـ ١٦ ص ٣٢٢.

المذهبية ودرجة النظر أو الاجتهاد والتقليد

الأصل السابع

« ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح مَنْ أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر ».

* * *

المذهبية ودرجة النظر
أو الاجتهاد والتقليد
الأصل السابع

« ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح مَنْ أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر».

هذا الأصل يعالج:

١ـ قضية الاجتهاد والتقليد.

٢ـ المذهبية وهل للعامى أن يتبع مذهبا؟.

٣ ـ عدم التعصب للمذهب.

نقول وبالله التوفيق ابتداء لا يمكن تصور تساوى الناس علماً وفهماً وتحصيلاً فى أى مجتمع من المجتمعات فهذا محال لسبب بسيط وهو أن المولى سبحانه وتعالى أخرجنا جميعاً من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ومنحنا أدوات المعرفة. وتفاوت الناس إنما يرجع إلى اختلاف قدراتهم فى استخدام هذه الأدوات يقول المولى سبحانه وتعالى: **﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [النحل: ٧٨].

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولذلك كان التفضيل بين المؤمنين بالعلم والعمل، لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون.... ورفع الدرجات بينهم يرجع للعلم الذى بذل فيه الجهد البشرى والتوفيق الربانى **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾** وتدبر الآيات إنما يكون بهذا العلم **﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾** **﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾** فكان من الطبيعى أن يكون أحق الناس بخشية الله هم العلماء **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** فهم ورثة الأنبياء لاشك فى ذلك.

ولما اختلف الناس فى درجة العلم فمنهم الأمى والعامى والعالم والجاهل كان من الطبيعى أن يتوجه الجاهـل إلى العالم بالسؤال ليكشف له ما غُمّ عليه ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[النساء:٨٣] ولما كان المجتمع فى أمس الحاجة إلى هؤلاء العلماء أثم المجتمع كله إذا لم يوفر مجموعة من العلماء تكفيـه حاجته فيما يحتاج إليه من العلوم المختلفة ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

ومجتمع رسـول الله ﷺ نفسه وجد فيه العامى والأمى والجـاهل والعالم كما وجد فيه الفـقيه الورع، وترجمان القرآن، والمحـدث عن رسول الله ﷺ، وعالم الفرائض وكاتم سر النبى ﷺ وهكذا.

درجات الصحابة من حيث الرواية:

بل إن العلماء منهم متنوعون[1] من حيث الرواية فمنهم المكثرون وهم سبعة.

عمـر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن مـسعود، وعـائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعـبد الله بن عمر، يقول ابن حزم: يمكن أن يجمع لكل واحد منهم سفر ضخم، وقـد جمع لابن عباس رضى الله عنهما فتيا فى عشرين كتاباً.

المتوسطون: أبو بكر، وأم سلمة، وأنس بن مالك، وأبو سـعيد الخدرى، وأبو هريرة، وعثمان بن عفان وغيرهم.

المقلّون: لا يروى الواحد منهم إلا المسألة أو المسألتين كأبى الدرداء، وأبى عبيدة، والحسن والحسين، وأبى ذر وغيرهم... يقول ربنا: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سورة سبأ] قالوا هم أصحاب محمد ﷺ.

قال أبو البختَرى: قـيل لعلى بن أبى طالب حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: عن أيِّهم؟ قالوا عن عبدالله بن مسـعود، قال: قرأ القرآن وعلم السنة ثم انتهى، وكفاه بذلك قالوا فحدثنا عن حذيفة قال: أعـلم أصحاب محمد بالمنافقين، قالوا فأبى ذر قال: كنيف مُلأ علم عجز فيه، قالوا: فعمار قال: مؤمن نَسيٌ إذا ذكرته ذكر، خلط الله الإيمان بلحمه ودمه ليس للنار فيه نصـيب قالوا فأبى موسى، قال: صُبِغَ فى العلم

(١) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ١٢.

صبغة، قالوا فسلمان قال: علم العلم الأول والآخر بحر لا ينزح منا أهل البيت قالوا فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين قال: إياها أردتم، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت[١].

وصدق مسروق إذ يقول: جالست صحابة رسول الله ﷺ فكانوا كالإخاذ الإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو عرض له أهل الأرض لأصدرهم[٢].

غياب بعض المعانى عن الصحابة:

ومع هذا فإننا نجد بعض المعانى تغيب عنهم، فابن عباس رضى الله عنهما يقول: كنت لا أدرى (ما فاطر السموات) حتى أتانى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها ـ يقول أنا ابتدأتها[٣].

وهذا عدى بن حاتم حين قرأ: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أتى بعقالين أحدهما أبيض وآخر أسود حتى ضحك رسول الله ﷺ من تصرفه وأعلمه أنه بياض النهار وسواد الليل.

وهذه عائشة تسأل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[المؤمنون:٦٠] أهو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال لها: لا يا بنت الصديق !! ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك، يخاف الله عز وجل[٤].

وها هم أصحاب رسول الله ﷺ لما نزل قول ربنا: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ...﴾ أشفقوا منها وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

فما بالك بالمستعربين والأرقاء وأهل الحيرة والطلقاء، بل ماذا نقول فى زماننا هذا عن المسلمين الذين لا يعرفون عن العربية شيئاً ولا للقرآن قراءة بل ماذا نقول عن الأوربى والأمريكى والروسى الذى يسلم وجهه لله، أمثل هؤلاء يجتهدون ولا يقلدون رضوان الله عليك يا ابن عباس حين قلت: نزل القرآن على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من لغتها ووجه لا يعذر مسلم بجهله، ووجه لا يعلمه إلا العلماء، ووجه لا يعلمه إلا الله.

(١) أعلام الموقعين جـ ١ ص ١٦. (٢) المرجع السابق، والإخاذ: عين الماء.

(٣) الإتقان للسيوطى جـ ١ ص ١١٣ والبرهان للزركشى جـ ٢ ص ١٦٢.

(٤) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٣١٣ سورة المؤمنون والحديث أخرجه الإمام أحمد.

فالناس إذن من عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا بين: عالم ومتعلم، وتابع ومتبوع، مقلد ومجتهد.

ونسأل سؤالاً...هل إذا جاءك إنسان يريد أن يتعلم الصلاة مثلاً ماذا أنت فاعل؟.

هل تقول له يقول ربنا... ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ...﴾[المائدة:٦] ثم تتركه يجتهد فى فهمها أم أنك تقول له: تعال وافعل ما أفعل وتتوضأ أمامه كى يتعلم، فهل هو فى هذه الحال يقلد أم يجتهد؟

وكذلك فى باقى الأمور والأحكام الأخرى من حج وصيام إلخ. وهنا لابد لنا من الحديث عن الاجتهاد والتقليد حتى تتبين لنا المسألة.

التقليد:

هو الأخذ بقول الغير ممن ليس قوله حجة شرعية من غير مطالبته بالدليل الذى بنى عليه حكمه.

ولقد ذم القرآن تقليد الأبناء للآباء فى العقائد حين قال: ﴿ إ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء:٧٤].

ولذلك قال كثيرون من العلماء بذم التقليد فى العقائد؛ لأن الإيمان هو التصديق الجازم للشىء، والتصديق يتطلب اليقين ولذلك لا يصح فيه التقليد.

ولهذا تجد كثيراً من الاستدلالات العقلية التى توصل إلى الإيمان بالوحدانية فى كتاب الله فى مثل قوله: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟﴾ وفى قوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ وفى قوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾. وفى قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ وفى مثل قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[آل عمران:١٩٠] والآيات فى هذا المجال كثيرة[١].

يقول ابن القيم: [٢] الأمور الاعتقادية المتعلقة بأصول الدين لا يجوز التقليد فيها بالإجماع. لأن هذه الأمور لا يغنى فيها الظن وإنما سبيلها اليقين والقطع لقوله تعالى:

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء:٣٦].

---

(١) راجع كتاب منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام.

(٢) أعلام الموقعين.

ويقول الإمام أحمد:

من ضيق علم الرجل أن يقلد فى اعتقاده، وقال لرجل: لا تقلد دينك أحداً وعليك بالأثر.

ويقول ابن مسعود: ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً، إن آمن آمن وإن كفر كفر، وقال: «لا يكن أحدكم إمعة يقول: إنما أنا رجل من الناس إن ضلوا ضللت، وإن اهتدوا اهتديت»[1].

لكن العلماء اتفقوا على تقليد العامى للعالم فى الأحكام العملية مع مراعاة ما يأتى:

أولاً: تقليد العامى لعامى مثله هو تقليد محرم اتفاقاً.

ثانياً: تقليد مجتهد اجتهد فى مسألة لمجتهد آخر فى تلك المسألة هو ممنوع أيضاً[1] اتفاقاً.

ثالثاً: تقليد مجتهد لعامى وهذه وإن كانت بعيدة الاحتمال، إلا أن العقل لا يستبعدها وهذه ممنوعة أيضاً اتفاقاً بالقياس الأولوى على السابقة.

رابعاً: تقليد مجتهد قبل اجتهاده في مسألة لضيق الوقت أو غيره لمجتهد آخر فى تلك المسألة، قد وقع فيه خلاف والراجح جواز التقليد فى هذه الحالة[2].

خامساً: تقليد عامى لمجتهد من غير أن يطلب منه دليلاً على ما وصل إليه من الأحكام. وهذه الصورة التى حددها العرف لتكون محلا للخلاف بين العلماء وتقسيماتهم:

يقول ابن القيم فى أعلام الموقعين: يجوز التقليد لمن لم يبلغ مرتبة الاجتهاد، وأن عليه اتباع إمام يسترشد به ويقلده فى أحكام الحلال والحرام، ولا يجوز لمثل هذا الإنسان أن يفتى الناس ولو توفرت له كتب «الحديث» فهل هناك فرق بين هذا الكلام وكلام الإمام البنا؟.

ويقول فى أعلام الموقعين:

المذموم من التقليد ثلاثة:

١ - الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء ﴿ إِ بَلْ وَجَدْنَا

---

(١) مسلم الثبوت جـ ٢ ص ٣٩٢.

(٢) الأحكام للآمدى جـ ٤ ص ٢٠٤.

آباءَنَا كَذَلِكَ يفعَلُونَ﴾[الشعراء:٧٤].

٢ ـ تقليد مَنْ لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

٣ ـ التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

وبالمناسبة فإنه لا فرق بين التقليد والاتباع لغة، والذين يقولون إننا نتبع ولا نقلد نقول لهم: إن المولى سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم يقول: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ○ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ..﴾[البقر:١٦٦-١٦٧] وهذا تعبير عن التقليد فى أسوأ أنواعه وهو التقليد الأعمى.

ويقول الإمام الغزالى فى المستصفى: دليل التقليد إجماع الصحابة فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد، علما بأن المستفتى لم يلتزم مع ذكر الحكم ببيان دليله.

ويقول الآمدى فى الأحكام: أما الإجماع فهو أنه لا تزال العامة فى زمن الصحابة والتابعين يستفتون المجتهدين ويتبعونهم فى الأحكام الشرعية، والعلماء منهم يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى ذكر الدليل فكان إجماعاً على جواز اتباع العامى للمجتهد المطلق.

ويقول الإمام الشاطبى فى الاعتصام: فتاوى المجتهدين بالنسبة للعوام كالأدلة الشرعية بالنسبة للمجتهدين.

وسئل ابن الصلاح هل إمام الحرمين، والإمام الغزالى، والإمام أبو إسحاق رضى الله عنهم، بلغ أحد من هؤلاء الأئمة المذكورين درجة الاجتهاد فى المذهب ـ الشافعى ـ على الإطلاق أم لا؟ وما حقيقة الاجتهاد على المذهب؛ وهل بلغ أحد منهم درجة الاجتهاد المطلق؟.

الإجابة: لم يكن لهم الاجتهاد المطلق، وبلغوا الاجتهاد المفيد فى مذهب الشافعى ﷺ، ودرجة الاجتهاد المطلق تحصل بتمكنه من تعرف الأحكام الشرعية من أدلتها استدلالاً من غير تقليد، وأما الاجتهاد المقيد درجة تحصل بالتبحر فى مذهب إمام من الأئمة بحيث يتمكن من إلحاق مالا ينص عليه ذلك الإمام بما نص عليه معتبراً قواعد مذهبه وأصوله[1].

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٨.

فما هو المذهب؟

تعريف المذهب: المذهب يقتضى أن يتكون من منـهاج علمى لفريق من الدارسين الباحثين، يبنون فيه أصولاً لتفكيرهم مـتميزة واضحة، ثم يكون لكل منهاج طائفة أو مدرسة تعتنق هذه الأصول ، وتدافع عنها وتقويها بموالاة البحث والدراسة»[(١)] .

وهذا غير الفـرق الإسلامية: فهذه اخـتلافاتها فى أمور العقـيدة، أما المذاهب فاختلافـاتها فى فروع الأحكام وشتان بين الاثنين، فـالأولى تفرق وتمزق وتخرج عن منهاج أهل السنة والجماعة والثانية تجمع وتعطى سـعة وتوسعة واختلاف الرأى فيها لا يذهب للود قضية - وسنتناول ذلك بتفصيل فى حينه:

وعلى هذا فإننا نرى أن العلماء اتفقوا على تقليـد العامى لمذهب معين، فهو سُلّم لابد منه للوصول إلى هدى الرسول ﷺ ، فالمذاهب هى لب الإسلام وجوهره وهى التى بصرت المسلمين فى كل زمن بأحكام دينهم ويسرت لهم سـبيل التمسك بالكتاب والسنة وفرق كبير بين اتباع مذهب والتعصب له.

فالمسلمون الذين لم يبلغوا درجة النظر - درجـة الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة عليهم أن يتبعوا مذهب إمـام من الأئمة الذين بلغوا تلك الدرجة ، وللواحد منهم أن يلازم إماما من الأئمة إن شاء وله أن يتحول إن شـاء إلى غيره، وقد كان فى الصحابة من لا يأخذ برأى ابن عباس فى مسألة ويتحول إلى غيره ولم ينكر عليه ذلك.

ولقد عاش أهل العراق أمدا طويلا من الزمن وهم يلتـزمون مذهب عبد الله بن مسعود متمثلاً فى شخـصه أو فى أشخاص تلاميذه من بعده دون أن ينكر عليهم أهل العلم ذلك كما عاش أهل الحجاز أمدا مثله يلتـزمون مذهب عبد الله بن عمر وتلاميذه وأصحابه دون أن ينكر عليهم أحد من أهل العلم ذلك.

وقد انفرد عطاء بن رباح ومجاهد بالفتوى فى مكة زمناً طويلاً، وكان يصيح منادى الخليفة «أن لا يفتى الناس أحد إلا هذان الإمامان» ولم يقم أحد من علماء التابعين بنكر على الخليفة أو على الناس هذا الالتزام فكيف نمنع نحن ذلك[(٢)] .

فتقليد العامى أو من لم يبلغ مرتبة الاجتهاد مذهب إمام مجتهد سواء التزم واحدا بعينه أو عاش يتحول من واحد لآخر - دون ترقيع أو تتبع للرخص - أمر جائز شرعاً.

والذين يقولون: إن تقليد العامى للأئمة بدعة منكرة نقول لهم: ولماذا يكون اتباع

---

(١) المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة جـ ١ ص ٢٣.

(٢) رسالة المذهبية أخطر بدعة للدكتور محمد سعيد البوطى.

مذهب ابن عباس وعبد الله بن مسعود، وأم المؤمنين عائشة وغيرهم صواباً؟ وهل أخذ الأئمة إلا من هؤلاء، فنحن نتبع إماماً من حيث إنه عالم بحكم الله فى المسألة فهو فى هذه الحالة مبلغ عن رسول الله ﷺ والرسول ﷺ مبلغ عن ربه، فاتباعنا لإمام ليس لشخصه، وإنما لطاعته لرسول الله ﷺ وعلمه بالحكم.

وهناك مقولة ظاهرها فيه الرحمة تقول: إن الأخذ بأقوال العلماء وقياساتهم بمنزلة التيمم إنما يصار إليه عند عدم الماء، فحيث وجد نص من الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رضى الله عنهم، فالأخذ به واجب لا يعدل عنه إلى أقوال العلماء.

وظاهر هذا القول لدى الرجل العامى صحيح، ولكن العلماء يعتبرون هذا القول من البلاء العظيم، والشر المستطير ! ! !.

ولكى يتضح لك هذا الشر، ضع صحيحى البخارى ومسلم أمام سواد المسلمين اليوم، وقل لهم حاولوا أن تفهموا أحكام دينكم من النصوص التى فيهما ثم انظر كيف سيكون الجهل والتخبط والعبث بالدين، كمزين الصحة الذى يدعى مهارة فى الطب ويودى بمريضه ويهلكه. أفهذا الذى يريده من ينكرون المذاهب؟.

إن توفر كتب السنن وحدها ـ كما قال ابن القيم ـ لا يكفى فى صحة الفتوى بل لابد إلى جانبها بلوغ درجة الاستنباط وتوفر أهلية البحث والنظر وإن لم يتوفر لديه ذلك ففرصته فى قول الله: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

أما إذا تمرس المقلد فى فهم مسألة من المسائل وتبصر بأدلتها من الكتاب والسنة وأصول الاجتهاد وجب عليه أن يتحرر فى الأخذ بها من مذهب إمامه وحرم عليه التقليد فيها طالما أمكنه أن يجتهد فيها معتمداً على طاقته المتوفره لديه فلا يرجح رأى إمامه على ما هداه إليه اجتهاده فى تلك المسألة وهذا ما يسمى أو يطلق عليه «**مجتهد فى المذهب**» وهو غير المجتهد المطلق كما رأيت [(١)].

الأئمة على حق:

وينبغى أن نفهم أن جميع الأئمة على حق، بمعنى أن اجتهاد كل منهم جعله معذوراً عند الله عز وجل إن هو لم يستيقن حقيقة الحكم الذى أراده الله عز وجل لعباده فى تلك المسائل الاجتهادية، فليس عليه إلا أن يسير فيه حسب ما هداه إليه اجتهاده.

ومن هنا كان اتباع المقلد لمن شاء منهم اتباعاً لحق وتمسكاً بهدى وهو إذ يختار واحداً منهم لا ينبغى أن يتصور أن الآخرين على خطأ ولذلك أجمع العلماء على صحة

(١) المرجع السابق.

اقتداء الحنفى بالشافعى أو المالكى والعكس، ولك أن تعلم أن العز بن عبد السلام مثلاً شافعى المذهب، وابن القيم حنبلى المذهب، والدهلوى حنفى المذهب، والجميع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ملتمس:

يقول الإمام الشاطبى فى الموافقات:

إن المكلف بأحكام الشريعة لا يخلو من أحد أمور ثلاثة:

أولاً: أن يكون مجتهدا فيها فحكمه ما أداه إليه اجتهاده فيها.

ثانياً: أن يكون مقلدا صرفا خلياً من العلم الحاكم جملة، فلابد له من قائد يقوده وحاكم يحكم عليه، وعالم يقتدى به، ولا يحل اتباعه إذا علم أنه ليس أهلاً لذلك؛ لأنه لا يسلم المريض نفسه إلى أحد يعلم أنه ليس بطبيب إلا أن يكون فاقد العقل.

ثالثاً: أن يكون غير بالغ مَبْلَغ المجتهدين لكنه يفهم الدليل وموقعه ويصلح فهمه للترجيح بالمرجحات المعتبرة فى تحقيق المناط وهو في هذه الحالة إما أن يعتبر نظره أو لا يعتبر.

ولذا وجب علينا أن نتعرف على ما هو الاجتهاد؟ ومَنْ هو المجتهد حتى نعرف قدرنا؟

الاجتهاد(1): هو بذل غاية الجهد، واستفراغ غاية الوسع فى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بطريق النظر وإعمال الفكر.

وهو فرض عين على من أنس فى نفسه الكفاية له، والقدرة عليه إذا لم يجد فى المسلمين من يسد مسده.

وهو فرض كفاية على الأمة فى مجموعها تأثم إذا لم يتوافر لها عدد من أبنائها يسد حاجتها فيه.

ولا يوجد فى الإسلام طبقة تحتكر الاجتهاد فليس عندنا رجال دين ولكن لدينا علماء دين، عالم متخصص يملك أدوات الاجتهاد وتتحقق فيه شروطه.

شروطه (2):

منها شروط علمية وثقافية مثل العلم باللغة العربية، والكتاب والسنة ومواضع الإجماع المتيقن، والعلم بأصول الفقه، وطرائق القياس والاستنباط، والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية.

---

(1) كتاب الأمة فقه الدعوة ملامح وآفاق «بحث» الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة د. القرضاوى ص ١٥٧.

(2) المرجع السابق ص ١٦٠.

ولابد أن يكون له ملكة الاستنباط وهى تنمو بممارسة الفقه ومعرفة اختلاف الفقهاء ومدارسهم، ولهذا قالوا: « **مَنْ لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه** ».

ويضيف ابن القيم فى أعلام الموقعين أن يكون عالماً بالناس؛ لأن الفتيا تتغير زمانا ومكانا وشخصا، فضلا عن شرط الإخلاص والعدل، وأن يكون مرضيّ السيرة يخشى الله تعالى.

والمجتهد الحق هو الذى ينظر إلى النصوص والأدلة بعين وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى حتى يوائم بين الواجب والواقع ويعطى لكل واقعة حكمها المناسب لمكانها وزمانها وحالها. فهل هذا يتوفر لكل الناس؟

قال حذيفة: يفتى الناس أحد ثلاثة: من يعلم ما نسخ من القرآن أو أمير لا يجد بدا، أو أحمق متكلف. قال فربما قال ابن سيرين فلست بواحد من هذين ولا أحب أن أكون الثالث.

ويقول الإمام مالك: ما جلست للفتيا إلا بعد أن شهد لى سبعون من أهل العلم أنى أهل لذلك.

ويقول الإمام الشافعى: لا يحل لأحد يفتى فى دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه وتأويله وتنزيله - مكيه ومدنيه وما أريد منه، وكذا السنة كما عرف من القرآن، بصيراً باللغة والشعر وما يحتاج إليه للسنة والقرآن وإلا لا يفتى.

ويقول الإمام أحمد : قلت لأبى ما تقول فى الرجل يسأل عن الشىء فيجيب بما فى الحديث وليس بعالم فى الفقه، قال: ينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بالسنن، عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالأسانيد الصحيحة[(١)] .

ويقول رضوان الله عليه: «لا ينبغى للرجل أن ينصّب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

أولاها: أن تكون له نية فإن لم تكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور.

الثانية: أن يكون على علم وحلم ووقار وسكينة.

الثالثة: أن يكون قوياً على ما هو فيه، وعلى معرفته.

الرابعة: الكفاية وإلا مضغه الناس.

الخامسة: معرفة الناس.

---

(١) هذه الأقوال من كتاب إعلام الموقعين لابن القيم.

فهل بعد ذلك كله يقول قائل للعامى لا تقلد ولا تتمذهب وعليك بالكتاب والسنة وربما لا يعرف أن يقرأ فيها فضلاً عن معرفة الأحكام ! !.

مَنْ هؤلاء الذين تقولون لهم لابد من النظر فى الدليل؟ إن كانوا أولئك الذين أوتوا القدرة على فهم الحكم من الكتاب والسنة بدون الاستعانة بمفت أو إمام فهذا لا يخالفكم فيه أحد، فهم أهلٌ لذلك إذ لا يصح تقليده لأحد وليس فى المسلمين حديثاً أو قديماً من يخالفكم فى ذلك ! !.

وإن كان من عامة الناس ومن لا يملك وسيلة الاجتهاد والاستنباط والتبصر بالأدلة فنقول: «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا» اللهم إلا علم من أعطى لنفسه حق تشخيص الداء والدواء وهو ليس أهلاً لذلك». وها هو ذا القاسم بن محمد بن أبى بكر يسأل عن شىء فقال: لا أحسنه فقال السائل: إنى جئت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتى وكثرة الناس حولى والله ما أحسنه فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه يا ابن أخى ألزمها فوالله ما رأيتك فى مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسم: والله لئن يقطع لسانى أحب إلىّ من أن أتكلم بما لا علم لى.

وقال أحد أصحاب مالك: شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين منها لا أدرى، وقيل ربما كان يسأل عن خمسين فلا يجيب فى واحدة منها، وكان يقول من أجاب فى مسألة فينبغى من قبل أن يجيب أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف يكون خلاصه فى الآخرة ثم يجيب عنها.

وسئل عن مسألة فقال: لاأدرى ، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس فى العلم خفيف أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾؛ وقال ما أفتيت حتى شهد لى سبعون من أهل العلم أنى أهل لذلك.

وسئل الشعبى عن شىء فقال لا أدرى فقيل له ألا تستحى من قولك لا أدرى وأنت فقيه العراق؟ فقال لكن الملائكة لم تستح حين قالت: لا علم لنا إلا ما علمتنا، وصدق أبو الذيال حين قال تعلم لا أدرى فإنك إن قلت لا أدرى علموك حتى تدرى وإن قلت: أدرى سألوك حتى لا تدرى.

وقال عبد الله كنت أسمع أبى كثيراً يسأل عن المسائل فيقول لا أدرى ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف، وكثيراً ما كان يقول سل غيرى فإن قيل له مَنْ نسأل؟ قال سلوا العلماء.

والغريب أن بعض الناس يقولون ما لنا والمذاهب نحن نأخذ من الكتاب والسنة

مباشرة، وكأن أصحاب المذاهب لا يأخذون من الكتاب والسنة أو هم مقطوعى الصلة بالعلماء قبلهم وبعدهم تعال لنرى:

إن الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ تفرقوا فى الأمصار، فهذا ابن عباس فى مكة وله تلاميذ، وهذا عبد الله بن عمر فى المدينة وله تلاميذ، وهذا ابن مسعود فى العراق وله تلاميذ.

ثم جاء التابعون واشتهر منهم: سعيد بن المسيب فى المدينة ، وعطاء بن رباح فى مكة ، والنخعى والشعبى فى الكوفة، والحسن البصرى فى البصرة، ومكحول فى الشام وطاووس بن كيسان فى اليمن.

وكان لكل منهم منهج فى الاجتهاد فابن المسيب مثلاً وأصحابه يرون أن أهل الحرمين أثبت الناس فى الفقه، بينما كان النخعى وأصحابه يرون أن ابن مسعود وأصحابه أثبت الناس فى الفقه.

وهكذا تأثر كل تابعى بمنهج حتى جاء عصر ما بعد التابعين فوجدنا **فقهاء الأمصار**: الليث بن سعد فى مصر، والأوزاعى فى الشام، ومالك وابن الماجشون فى المدينة، وابن جريج فى مكة، وأبو حنيفة وسفيان الثورى، وابن أبى ليلى فى الكوفة وهكذا حتى تتابع الأئمة المجتهدون كالشافعى، وأحمد بن حنبل وتلاميذهم.

فهم كما ترى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها حتى تميزوا إلى مذهبين: أهل الرأى، وأهل الحديث.

ولم يكن هناك تعصب ممقوت، كما أن المذاهب لم تكن محصورة فى عدد معين، بل كان الأئمة كثيرين إلى أن جاء القرن الرابع وما بعده بدأ التقليد المذموم والتعصب البغيض، والتشنيع على من يخرج عن آراء المذهب، ومرت على الفقه الإسلامى فترة جمود قيل فيها قفل باب الاجتهاد.ولاتدرى مَنْ الذى أغلقه وكيف؟ والناس تجدّ لها مشاكل وأحوال يحتاجون للنظر فيها تختلف عن سوابقها فلكل زمان مشاكله وظروفه فكيف يغلق باب الاجتهاد؟ يجب أن نعلم أن الممقوت ليس اتباع مذهب ولكن الممقوت هو التقليد مع القدرة على الاجتهاد بعد أن تحقق شروطه كما رأيت، أو التعصب البغيض للمذهب ولذلك سمعنا من الأئمة كلمات تثلج الصدور واسمع إلى:

الإمام أبو حنيفة: يقول هذا أحسن ما وصلنا إليه فمن رأى خيراً منه فليتبعه، وقد سأله بعض الفقهاء: أهذا الذى انتهيت إليه هو الحق الذى لاشك فيه؟ فقال الإمام: لا أدرى لعله الباطل الذى لاشك فيه.

ويقول الإمام الشافعي: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا جاء حديث رسول الله ﷺ وخالفته، إذا صح الحديث فهو مذهبي.

ولذلك رأى الإمام أبو حنيفة تلميذه أبا يوسف يكتب ما يقوله، فقال له: «ويحك يا يعقوب أتكتب كل ما أقول إني قد أرى رأياً اليوم وأخالفه غدا، وقد أرى الرأى غدا وأخالفه بعد غد».

ذلك لأن الناس لم تفهم أن أقوال الفقهاء ديـن يتبع من غير لفظ، وما دعوا هم الناس إلى اتباعهم بل دعوهم إلى اتباع الدليل الذى يوصل إلى الحق ولو خالف أقوالهم لو كانوا أهلا لذلك.

وصدق القائل: إن أقوال الفقهاء بالنسبة للشـريعة كمثل أغصان الشجرة تتشعب وتتفرع والأصل الذى انبعث عنه واحد يغذى جميع الأغصان المتفرعة.

بقى أن تعلم أن الاجتهاد يعمل فى منطقتين:

إحداهما: منطقة ما لا نص فيه مما تركه الشارع لنا قصداً منه ورحمة غير نسيان.

ثانيهما: منطقة النصوص الظنية سواء أكانت ظنية الثبوت ومعظم الأحاديث النبوية كذلك، أو ظنية الدلالة ومعظم نصوص القرآن كذلك.

وسيأتى هذا الموضوع تفصيلاً حين نتحدث عن الخلاف الفقهى بمشيئة الله تعالى.

وهكذا ترى الإمام البنا يضع الضوابط فى كل شيء فعلى من لم يبلغ درجة النظر أن يتبع إماما من أئمـة الدين ويحسن به مع الاتباع أن يجتهد مـا استطاع فى تعرف أدلته . . .فيحث القادر على الاجتهاد أن يجتـهد ويحث الذي يتبع إماماً أن يجتهد فى تحقيق العلم ويستكمل فقهه العلمى حتى يبلغ درجة النظر. رزقنى الله وإياك علماً نافعاً وقلباً خاشعاً ولسانا ذاكراً.

* * *

ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز

الأصل الثامن

« والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا للتفرق في الدين ، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب » .

***

ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز
الأصل الثامن

«والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا للتفرق في الدين ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب».

هذا الأصل يعالج:

١ ـ الخلاف الفقهي في الفروع.

٢ ـ أنواع الخلاف.

٣ ـ المختلف فيه لا إنكار فيه.

٤ ـ نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

هذه الدعوة التي منّ الله بها علينا ، تحتاج منا إلى:

الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق، والعمل المتواصل ، والوعي الكامل.

وذلك لأن الفهم الدقيق يؤلف القلوب، ويوحد الصفوف، ويعالج النفوس، فنتعاون مع مَنْ يوافقنا، ونعذر من يخالفنا الخلاف المعتبر ـ فالفهم يحدد معالم الطريق بل هو الضمانة الحقيقية لشرعية علاقاتنا، والملاذ الوحيد في تصفية خلافاتنا، فإذا بإيماننا يزداد وعلاقاتنا تقوى وحبنا يعمق ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . ﴾[الأنفال: ٤٦].

من أجل ذلك حذرنا الرسول ﷺ من التشرذم والتفرق والتقاطع والتدابر، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إذا كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»[1].

والحديث عن هذا الافتراق مشهور عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وسعد

(١) رواه أبو عيسى الترمذي وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٣١

والحديث عن هذا الإفتراق مشـهور عن النبى ﷺ من حديث أبى هريرة وسعد ومعـاوية وغيرهم فـما هو الاختـلاف المقصود هنـا والذى نهى عنه رسول الله ﷺ ؟ والخلاف المعتبر شرعا؟ إن رسول الله ﷺ أخبـر بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعـون هم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم وهـو اختلاف إما فى الدين فقط ، وإما فى الدين والدنيا ثم يؤول إلى الدين وقد يكون فى الدنيا فقط.

وهذا الاختـلاف الذى دلت عليه هـذه الأحاديث هو ما نهـى عنه المولى سبـحانه وتعالى فى قوله: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٠٥] وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[الأنعام: ١٥٩] وقوله: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[الأنعام: ١٥٣].

والاختلاف المنهى عنه، هو الخلاف الذى يفرق الأمـة كالاختلاف الذى حدث بين الفرق الإسلامـية التى اختلفت فى أمور تتـصل بالعقائد لا يجوز الخـلاف فيها فـتمزق الصف وتشتت الجمع، وهذه الفرق الإسلامية غيـر المذاهب الإسلامية كما قلنا من قبل وكما سنبين بمشيئة الله تعالى.

ولكى نوضح المسـألة ـ بتـوفـيق الله ـ لابد أن نبين مـا ذكـره القـرآن فى قضـيـة الاختلاف.

أنواع الاختلاف التى ذكرها القرآن:

الاختلاف الذى ذكره القرآن قسمان[1]:

إحداهما: أنه يذم الطائفتين المختلفتين جميعا كقوله تعالى: ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ.. ﴾[هود:١١٨-١١٩] فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[البقرة:١٧٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ.. ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾.

وترى وصف القرآن لاختـلاف النصارى فى قـوله تعالى: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ص ٣٥ وما بعدها.

وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

ووصف اختلاف اليهود بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ...﴾ وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين سببه:

١ـ فساد النية لما فى النفوس من البغى والحسد والعلو فى الأرض والفساد ولذلك يجب أن يذم قول غيره أو فعله، أو غلبته ليتميز عليه، أو نصرة مذهب معين، أو حصول الرياسة وهذا لا شك من الظلم.

٢ـ جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذى يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذى يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما عند الآخر من الحق فى الحكم أو فى الدليل وإن كان عالما بما مع نفسه من الحق حكما ودليلا.

والجهل والظلم هما أصل كل شر ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢].

الثانى: وأما الاختلاف من النوع الثانى المذكور فى كتاب الله فهو ما حُمِدَ فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون، وذم الأخرى كما فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. [البقرة: ٢٥٣].

وكقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ...﴾ إلى أن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ..﴾.

ففى الصحيح أنها نزلت كما ذكر أبو ذر فى المقتتلين يوم بدر: على وحمزة وعبيدة بن الحارث من الصحابة والذين بارزوهم من الكفار: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة.

والحقيقة أن أكثر الاختلاف الذى يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول وقد يصل إلى سفك الدماء والبغضاء، واستباحة الأموال؛ ذلك لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك وكل يبتغى الانتصار على الآخر.

ولذلك فإن الرسول ﷺ بيّن أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة هم أهل السنة والجماعة مَنْ كانوا على مثل ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه.

ولكى نفرق بين ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز يجدر بنا أن نتعرف على:

أحكام القرآن: فقد جاءت أحكام القرآن على نوعين:

أولا: ما أبانه الله لخلقه نصا وجاء بصيغة قاطعة لا مجال للاجتهاد فيه، وهذه أحكام جاءت تفصيلية سموا بها عن الجدل ببنائها على أسباب لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة كآيات وجوب الصلاة، والزكاة، والصيام، والمواريث التى حددت أنصبة الوارثين، وتحريم الفواحش ما ظهر منهاوما بطن كحرمة الزنا، والقذف والخمر وأكل أموال الناس بالباطل، والقتل بغير حق، وأكل الميتة ولحم الخنزير وما إلى ذلك من العقائد والعبادات وأمهات الأخلاق والرذائل مما اشتهر عند المسلمين وأخذ حكم المعلوم بالضرورة.

ثانيا: ما جاء حكمه فى القرآن مجملا وبينه الرسول ﷺ بسننه القولية والعملية وهى الأحكام التى تشير إلى مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية وتدع للمجتهدين مجال الفهم والاستنباط على ضوء هذه القواعد وتلك المقاصد، وهذا المنهج من ضرورة خلود الشريعة ودوامها.

والجدير بالذكر أن هذه الأحكام المجملة منها ما فصله الرسول ﷺ كمواقيت الصلاة، وعدد ركعاتها وسائر أحكامها، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها، والأموال التى تزكى، وبيان أحكام الصوم، وتفاصيل الأنكحة والبيوع إلخ ذلك وهذا يدخل فى قول الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴾[النحل:٤٤].

وهذا الذى بينه الرسول ﷺ منه ما هو متفق عليه، مجمع على حكمه وتواتره فلا مجال للاجتهاد فيه، وبعضه لا يتعين المراد منها فهى ظنية الدلالة فكانت مجالا للبحث والاجتهاد، لأنه ليس من المعقول أن تعرض شريعة جاءت على أساس من الخلود والبقاء والعموم لتفصيل أحكام الجزئيات التى تقع فى حاضرها ومستقبلها. فإنها مع كثرتها الناشئة من كثرة التعامل وألوانه، متجددة بتجدد الزمن وصور الحياة، فلا مناص إذن من هذا الإجمال والاكتفاء بالقواعد العامة والمقاصد التى ينشدها للعالم، وبإزاء هذا حث على الاجتهاد واستنباط الأحكام الجزئية التى تعرض حوادثها من قواعدها الكلية ومقاصدها العامة وبذلك ظهرت بحق أنها صالحة لتنظيم جميع الشئون الاجتماعية والفردية إلى يوم الدين»[1].

(١) كتاب التشريع والفقه فى الإسلام تاريخا ومنهاجا لفضيلة الشيخ مناع القطان ص ٦٦ بتصرف.

والفرق بين الذى لا مجال للاجتهاد فيه، والذى مجاله البحث والاجتهاد أن الأول بمنزلة العقائد وهو واجب الاتباع عينا على كل إنسان، فمن أنكره يكون خارجا عن الملة - بالقواعد الشرعية - بخلاف الثانى فإن من أنكر فيه فهما معينا تحتملة الآية كما تحتمل غيره لا يكون كذلك وكل مجتهد يتبع فيه ما ترجح عنده.

هذه الأحكام فى كتاب ربنا يبقى بعد ذلك أنواع تتصل بالسنة وهى:

ثالثا: وهو ما سنه رسول الله ﷺ مما ليس فيه نص حكم بالقرآن، حيث فرض الله فى كتابه طاعة رسوله والانتهاء إلى حكمه ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ فمن قبل هذه السنة امتثل أمر الله، فالسنة فيها أشياء لا تحصى كثرة لم ينص عليها القرآن، كتحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع، وألا يقتل مسلم بكافر، وتحريم الذهب والحرير على الرجال إلخ. . .فلا مناص من الاعتراف بأحكام فى الشريعة لم تثبت إلا فى السنة وحدها، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وأن ما حرم رسول الله كما حرم الله»[1].

من هذا يتضح معنى قول العلماء فى « **تفصيل مالا يتغير وإجمال ما يتغير** ».

وعلى هذا يجب أن نعلم:

أولا: أن الفقهاء لم يختلفوا فى الأصول ولا فى مسائل الإيمان وكل ما يمس أصول الاعتقاد وكذلك فى وجوب العمل بما أنزل الله، ووجوب العمل بالحديث، وأمهات الأخلاق، وأمهات الرذائل، أو بمعنى آخر النصوص القطعية فى ثبوتها وفى دلالتها من الكتاب والسنة المتواترة سواء كانت الأحكام الدالة عليها معلومة من الدين بالضرورة، أو كانت مما خفى على بعض الناس كأنصبة المواريث مثلا أو كانت من المقدرات الشرعية التى لا مجال للرأى فيها وتثبت بالسنة المتواترة كعدد الركعات فى كل صلاة ومواقيت الصلاة وما شاكلها[2].

هذا بالإضافة إلى الإجماع الصريح المنقول إلينا بالتواتر لا يجوز الاجتهاد معه بل ويكفر جاحد الحكم الثابت لهذا الإجماع القطعى إذا كان معلوما بالضرورة فى أحد أقوال ثلاثة للعلماء.

ثانيا: اختلفوا فيما كان ظنيا فى ثبوته ، ظنيا فى دلالته على الحكم،وما كان من

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه.

(٢) الأحكام للآمدى جـ ٤ ص ١٦٤ والمدخل للأستاذ مدكور ص ٢٩٣.

الأدلة ظنيا فى ثبـوته قطعيا فى دلالتـه فهذا يقبل الاجـتهاد أيضا، ومـا كان من الأدلة قطعيا فى ثبوته ظنيا فى دلالته على الحكم وهذا يتمثل فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز تحتمل التأويل.

وهنا قد يعنّ سؤال:

لماذا لا تكن كل الأدلة قطعية؟ : قد يسأل الإنسان نفـسه سؤالا لماذا لم تكن كل الأدلة قطعية حتى لا تخـتلف الأنظار فيها فتتفـرق الكلمة، ويختلف الصف ولا تكون كلمة المسلمين واحدة ويقع الخلاف المفضى إلى النزاع وتفريق الكلمة؟

الحقيقـة كما رأيت أن المسائل الأساسـية فى الدين سواء أكانت اعتقـادية أو عملية والتى يكون الخلاف فيها مفضيا إلى التشتت والنزاع، وتفريق الكلمة، تأتى أدلتها قطعية ـ لا تحتمل تأويلا ـ والاخـتلاف فيها اخـتلاف فى الدين والله يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ..﴾ وهذه دائرة لا يعذر فيها أحد باختلافه فيها بل يجب التعاون فيها كواجب مفروض على محاربة المخالف بالطرق الشرعية.

أما ما وراء ذلك من أحكام فليس الاخـتلاف فيها ضرراً أو مفـسدة بل هو توسعة على الأمـة فى مجال الاختـيـار، وفسـحة أمامـهم فى طريق العمل يأخـذون من هذه الأحكام مـا يحـقق مصـالحـهم، ويتـفق مع ما تـتطلبه حـيـاتهم ويرفع عنهم الحـرج والضيق»[1].

« بل كان هذا الاخـتلاف نفسه مـصدر ثروة تشريعـية عظيمة، وتراث فـقهى رائع يستوعب حاجات الناس فى ظلال شريعة الإسلام الخالدة»[2].

وهنا يظهر بوضوح الفرق بين الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية.

الفرق بين الفـرقة والمذهب: فالفرقـة هم أصحاب الاختلاف العقـائدى والسياسى كالمعتزلة، والشيعة، والمرجئة، والقدرية، والجبرية، وغيرهـم فالاختلاف عندهم اختلاف فى العقائد، فالشيعة وهم فرق كثيرة اختلافهم كبير فيما يتصل بالعقائد والخوراج كفروا بالكبيرة، والمعتـزلة قالوا بالمنزلة بين المنزلتين، والمرجئة قالوا لا يضر مع الإيمان مـعصية كمـا لا ينفع مع الكفر طاعـة، والجبرية نفـوا صفات الخـالق حتى لا يشـبه المخلوق، والقدرية قالوا لا قدر والأمر أنف.

فهل يـتساوى هؤلاء مع المذاهـب التى لا تتنازع فى الأصول ولا تخـتلف فيـها،

(١) المدخل للفقه الإسلامى للأستاذ عيسوى أحمد ص ١٤٠.

(٢) المدخل للفقه الإسلامى للأستاذ محمد سلام مدكور ص ٢٩٥.

فالنتائج فى الأولى كبيرة والفروق شاسعة، بينما الاختلاف فى المذاهب وبين الأئمة فى الفروع ونتائجها محددة وأظهر هذا الاختلاف مرونة فى هذا الدين إذ لو جاءت الشريعة كلها قطعية لجمدت وما اتسعت بعالميتها مشارق الأرض ومغاربها تشمل الزمان والمكان والأشخاص، فأقوال الفقهاء بالنسبة للشريعة تمثل أغصان الشجرة تتشعب وتتفرع والأصل الذى انبعثت منه واحد والذى: تتغذى منه واحد يغذى جميع الفروع والأوراق والأغصان المتفرعة. ولذلك قال العلماء:

١ـ أن الأدلة لو جاءت قطعية كلها لكان فى هذا حجر على العقول البشرية وفى هذا ما فيه من جمود الأفكار.

٢ـ إلزام الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها: بحكم موحد فيه حرج شديد وتضييق كبير، فكان اختلاف الرأى فى غير المسائل الأساسية توسعة على العباد، وهذا ملحظ الإمام مالك ﷺ عندما رفض أن يكون موطأه دستورا للأمة الإسلامية حين عرض عليه المنصور أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس عليه حسما لمادة الخلاف فرد الإمام مالك قائلا: لا تفعل فإن الصحابة تفرقوا فى الآفاق وردوا أحاديث أهل الحجاز التى اعتمدتها وأخذ الناس بذلك فاتركهم على ما هم عليه[1].

٣ـ أن قطعية النصوص تجعلنا نقف عاجزين أمام المسائل المتجددة فى كل عصر والتى يطلب الناس معرفة حكمها ولا يكون ذلك على الوجه الأكمل إلا إذا نظر المجتهدون فى الظنى من النصوص واستنبطوا منها أحكاماً لما يجد من الحوادث وبذلك تتعامل الشريعة مع مصالح الناس فى كل مصر وعصر.

ولو جاءت النصوص قطعية لقال هلا جاءت مرنة حتى لا نكون أمام النصوص آلات لا إرادة لها ولا اختياز ولا إعمال عقل ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾.

أقوال العلماء عن الخلاف: واسمع ما قاله علماء السلف فى قضية الخلاف الفقهى:

يقول عمر بن عبد العزيز: ما يسرنى أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالا، وإذا اختلفوا فأخذ رجل يقول هذا ورجل يقول هذا كان فى الأمر سعة.

ويقول الإمام أحمد: الخلاف سعة[2].

ويقول القاسم بن محمد بن أبى بكر: لقد نفع الله باختلاف أصحاب الرسول

(١) تاريخ الفقه الإسلامى للشيخ السايس ص ٩٨ وقد نسب الإمام ابن تيمية هذه المحاورة إلى الرشيد الفتاوى جـ ٣ ص ٧٩.

(٢) مسودة ابن تيمية ص ٤٩٧.

ﷺ في العمل لا يعمل الواحد منهم إلا لأنه يرى في ذلك سعة.

ويقول يحيى بن سعيد: أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون فيحل هذا ويحرم هذا فلا يعيب هذا على هذا.

ويقول الإمام الشاطبي: إن اختلافهم كان رحمة بالأمة.

ويقول الإمام النووي: إن المختلف فيه لا إنكار فيه، ولكن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق.

وعلق المحقق المقدسي على كلام الإمام النووي قائلا: هو التحقيق الذى عليه جماهير العلماء من جميع المذاهب.

ويقول ابن تيمية: إن ما فيه خلاف إن كان الحكم المخالف يخالف سنة أو إجماعاً وجب الإنكار عليه، وكذلك يجب الإنكار على العامل بهذا الحكم، وإن كانت المسألة ليس فيها سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيه مساغ فإنه لا ينكر على المخالف لرأى المنكر ومذهبه سواء كان المخالف مجتهداً أو مقلداً.

ولذلك قالوا: **مَنْ لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه.**

يقول الإمام الخطابي: الاختلاف في الدين ثلاثة:

١ـ في اثبات الصانع ووحدانيته وإنكاره كفر.

٢ـ في صفاته ومشيئته وإنكارهما بدعة.

٣ـ في أحكام الفروع المحتملة وجوها، فهذا جعله الله رحمة وكرامة.

ويقول أبو حنيفة: أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس؛ لأن من ينظر للأمر من كل وجوهه يكون أجدر على الحكم فيه بالصواب والخطأ.

لا إنكار على المخالف في الفروع: لوفقه المسلمون هذه القاعد «المختلف فيه لا إنكار فيه» لانتهت كثير من المعارك التى في غير ميدان، « يقول ملا على القارى لا إنكار في المختلف فيه بناء على أن كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد إلا أن المخطئ غير متعين لنا، مع أن الإثم موضوع عنه وعمن اتبعه.

ويضيف قائلا: ليس للمجتهد على الأصح ـ أن يحمل الناس على مذهبه سواء كان مجتهداً أو مقلداً فلم يزل الخلاف بين الصحابة والتابعين.

ويقول الإمام الغزالي: كل ما هو محل اجتهاد لا حسبة فيه.

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة يقول: هذا أحسن ما وصلنا إليه فمن رأى خيراً منه فليتبعه وحين سأله رجل أهذا الذى انتهيت إليه هو الحق الذى لا شك فيه: قال الإمام: لا أدرى لعله الباطل الذى لا شك فيه.

وكان تلميذه أبو يوسف يكتب كل ما يقوله الإمام من فتاوى فقال له: ويحك يا يعقوب أتكتب كل ما أقول إنى قد أرى رأياً اليوم فأخالفه غداً وقد أراه غداً فأخالفه بعد غد.

قد أصاب الإمام البنا حين قال: يجب أن نعلم أن الخلاف الفقهى فى الفرعيات أمر ضرورى لابد منه، إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام لذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة.

فهل اختلف الصحابة حقاً؟ نعم اختلفوا.

أسباب اختلاف الصحابة: الذى لا خلاف فيه بين العلماء أن الصحابة رضوان الله عليهم قد أجمعوا على أن يستقوا الأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يحكموا بالرأى والاجتهاد فى كل واقعة وقعت لهم ولم يجدوا فيها نصاً، وأحياناً كانوا يجمعون على ما وصلوا إليه من حكم وتكون المسألة من مسائل الإجماع الذى لا يجوز الخلاف فيه، وأحياناً أخرى يبقى كل فريق عند رأيه وتبقى المسألة مختلفاً فيها قابلة للبحث والنظر والمناقشة والمشاورة.

والمسائل الخلافية بين الصحابة لا تعد ولا تحصى ابتداءً من قصة بنى قريظة وأمر الرسول ﷺ لصحابته أن يصلوا العصر فى بنى قريظة وخلافهم فى ذلك إلى أمور أخرى كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

خلافهم فى التلبية والتكبير: فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: غدونا مع رسول الله ﷺ إلى عرفات منّا المكبر ومنّا الملبى[1].

فالشائع بين الحجيج أنه لا تكبير فى عرفات ولكن الجميع يلبى، قال العلامة السندى فى حاشيته على النسائى: الظاهر أنهم كانوا يجمعون بين التلبية والتكبير، فمرة يلبى هؤلاء ويكبر آخرون ومرة العكس. والظاهر أنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم وجدوا النبى ﷺ فعل مثله.

ولقد ذكر الحافظ ابن حجر ما هو صريح فى ذلك قال عند أحمد وابن أبى شيبة والطحاوى من طريق مجاهد عن معمر عن عبدالله قال: خرجت مع رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم وأحمد فى المسند والنسائى والبيهقى.

فما ترك التلبية حتى يرمى جمرة العقبة إلا أن يخالطها بتكبير، فالأقرب للعامل أن يأتى بالذكرين جميعاً لكن يكثر التلبية ويأتى بالتكبير فى أثنائها والله أعلم.

وقول السندى - رحمه الله - مرة يلبى هؤلاء ويكبر آخرون وبالعكس ليس بلازم على هذا النظام، لا يجوز أن كل واحد منهم كان يجمع التلبية والتكبير بغير هذا النظام والله أعلم(١).

اختلافهم فى صلاة الكسوف والخسوف: ذكر الإمام مسلم فى رواية ابن عباس عن جابر أنها ركعتان فى كل ركعة ثلاث ركعات، ومن روايات بن عباس وعلى فكل ركعة أربع ركعات، وقال الشافعى: إنها ركعتان فى كل ركعة قيامان وقراءتان وركوعان وأما السجود فسجدتان كغيرهما، وقال الكوفيون، هما ركعتان كسائر النوافل عملا بظاهر الحديث الذى رووه.

بل فى رواية أبى بن كعب ركعتين فى كل ركعة خمس ركعات، وقد قال بكل نوع بعض الصحابة.

قال الشوكانى إن صح تعدد الواقعة أن الأحاديث المشتملة على الزيادة الخارجة من مخرج صحيح يتعين الأخذ بها لعدم منافاتها للمزيد وإن كانت الواقعة ليست إلا مرة واحدة، فالمصير إلى الترجيح أمر لابد منه، وأحاديث الركوعين أرجح.

قال الحافظ ابن القيم - رحمه الله - فى الهدى، وذهب جماعة من أهل الحديث إلى تصحيح الروايات فى عدد الركعات وحملوها على أن النبى ﷺ فعلها مرارا وأن الجميع جائز(٢).

هذا غير اختلاف الصحابة فى النوم هل ينقض الوضوء أم لا على ثمانية مذاهب كما ذكر الإمام النووى. واختلافهم فى أحكام الصيام وما يجوز فيه الزكاة ومسائل كثيرة لا نستطيع أن نحصيها فى فروع العقيدة والعبادة والشريعة.

بالرغم من أن مصادر تشريعهم كانت واحدة إلا أنهم اختلفوا فى جزئيات تتعلق بهذه المصادر وتعال لنرى تبيان ذلك.

أولا: بالنسبة للقرآن الكريم كانت أسباب خلافهم فى هذا المصدر ترجع إلى:

١- ما كان يسبب تعارض النصوص واجتهادهم فى دفع هذا التعارض.

مثال: خلافهم فى عدة الحامل المتوفى عنها زوجها. وقد قال عمر بن الخطاب وابن

---

(١) الفتح الربانى جـ ١٢ ص ١١٢.
(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص ١٧٤ وما بعدها.

مسعود ﷺ أن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد بوضع الحمل، وقال على وابن عباس ﷺ تعتد بأبعد الأجلين.

والمسألة كما رآها الصحابة فيها نصّان قوله تعالى: ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

ولهذا اختلفوا فهما بالرغم من أن الرسول ﷺ حكم فى قضية سبيعة الأسلمية مبينا لرفع هذا التعارض، فقد قتل زوجها وبعد ليال وضعت حملها فأحلها النبى ﷺ للأزواج(١).

ولقد حكم ابن عباس بما حكم به؛ لأنه لم يصل إليه حديث سبيعة ولهذا أرسل غلامه كريبا إلى أم سلمة ـ بعد وقوع نقاش فى هذا ـ فأخبرته بما وقع لسبيعة الأسلمية.

فالخلاف يرجع من جهة أخرى إلى السنة، فالبعض لم يسمع الحديث والبعض سمعه، واختلفا.

٢ـ ما كان بسبب فهمهم للفظ المجمل مثل خلافهم فى عدة المطلقة الحائض، فقد أفتى ابن مسعود ووافقه عمر بأنها لا تخرج من عدتها إلا إذا اغتسلت من الحيضة الثالثة، ومنشأ الخلاف اختلافهم فى فهم لفظ **(القرء)** الوارد فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فهل القرء الوارد فى الآية هو الحيض أو هو الطهر فهو من الألفاظ المشتركة الصالحة لهما.

٣ ـ ما كان بسبب وقوف بعضهم عند ظاهر النص، والبعض الآخر نظر إلى المعنى المقصود من تشريع الحكم، فقد أفتى ابن عباس فيمن ماتت عن زوج وأبوين بأن للزوج النصف وللأم الثلث وللأب الباقى تعصيباً، تمسكاً بظاهر قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ وقال زيد بن ثابت وبقية أعلام الصحابة: لها ثلث ما بقى بعد فرض الزوج نظراً للمعنى المقصود من تشريع الحكم؛ لأن الأم والأب ذكر وأنثى ورثا بجهة واحدة فللذكر مثل حظ الأنثيين شأنهما فى ذلك شأن الأولاد وغيرهم(٢).

٤ـ ما كان بسبب وقوف البعض عند ظاهر النص ولم ير له مخصصاً، بينما يرى البعض الآخر أنه مخصص كموقف ابن عباس من قوله تعالى فى شأن البنات ﴿فَإِن كُنَّ

---

(١) سبل السلام جـ ٣ ص ١٩٦ والرسالة للإمام الشافعى ص ٢٥ ومجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ٢ ص ٢٣٨.
(٢) تاريخ الفقه الإسلامى للأستاذ السايس ص ٤٦ وكتاب الشهاوى للأستاذ إبراهيم الشهاوى ص ٥٣.

نساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ فيرى أن البنات لا يأخذن الثلثين إلا إذا كان عددهن فوق اثنتين عمــلا بظاهر الآية، وغيره يرى أن البنتين فصاعدا يأخـذن الثلثين أما البنتان فبالقياس على الأختين حيث يقول الله فيهما: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَان مِمَّا تَرَكَ﴾ وأما ما فوق الاثنتين فبالنص.

٥ـ ما كان بسـبب موقفهم فى بيان الإجمـال فى التراكيب، فقد أفـتى عبد الله بن مسعود إذا آلى ـ الإيلاء ـ الرجل من زوجتـه ومضت أربعة أشهر دون أن يفئ ـ يرجع ـ فقد طلقت منه طلقة بائنة وزوجها خطاب من الخطاب، وأفتى غيره بأنها لا تطلق بمضى المدة بل يؤمر الزوج بعدها بالفئ أو التطليق.

ومنشأ الخلاف هو فهمهم لقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٢٦-٢٢٧] حسب فهم كل منهم.

ثانيا: بالنسبة للسنة النبوية يرجع الاختلاف فيها إلى أسباب كثيرة منها:

١ـ ما كان بسبب عدم سماعهم للحديث لعدم تفرغ بعضهم للسماع فهم مشغولون بمعايشهم وأحوالهم وأعـمالهم وجهادهم وأعمالهم، ولهـذا نرى البعض يسمع الحديث والبعض لا يسمعه كما حدث فى حديث سبيعة الأسلمية السابق ذكره.

٢ـ ما كان بسـبب ردهم للحديث لعدم الثقة فى الـراوى فقد توقف أبو بكر رضى الله عنه فى خبر المغيرة فى ميراث الجدة وطلب الاستظهار بقول راو آخر فلما ثبت عنده قضاء رسول الله ﷺ فيها قضى به[1].

٣ ـ ما كـان بسبب عـدم علمهم بالنسخ فـيعـمل البعض بالحـديث على حين أنه منسوخ.

٤ـ ما كان بسبب معارضة الحديث لما هو أقوى منه.

٥ـ ما كان بسبب تغـير أحوال الناس، فقد قال ابن عبـاس رضى الله عنهما: كان الطلاق على عهد الـنبى ﷺ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمـر طلاق الثلاث واحدة فقـال عمر: إن الناس قـد استعجـلوا فى أمر كان لهم فـيه أناة، فلو أمضـيناه عليهم، فأمضاه عليهم.

أى لما تغيرت أحوال الناس لأنهم كانوا يستـعملون الطلاق على الوجه الذى شرعه الله ويفهمون الحكمة من جعله ثلاثاً فلما استعملوا ما جعل الله لهم فيه الأناة عجل لهم عمر بحكمه، بإيقاع الطلاق الثلاث فى مجلس واحد فهو عمل بالمصلحة.

---

(١) فتاوى ابن تيمية جـ ٢٠ ص ٢٤٣.

٦ـ ما كان بسبب اختلافهم في فهم السنة بعد ثبوتها ومن ذلك اختلافهم في الرّمل في الطواف هل هو سنة أم كان سياسة لإرهاب المشركين وإذهاب ما في نفوسهم من ظن أن حمى يثرب أثرت في المسلمين، والذي يؤيد أنه سنة أن رسول الله ﷺ فعله في حجة الوداع فكان سببه ما ذكرناه ثم أصبح سنة متبعة[١].

ثالثا: ما كان بالاجتهاد في الرأي:

وها هو ذا ابن تيمية في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم»

أنواع الاختلاف قسمان: اختلاف تنوع ـ واختلاف تضاد.

اختلاف التنوع: وهو على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم رسول الله عن الاختلاف بقوله ﷺ: «كلاكما محسن»، فعن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رجلاً يقرأ آية سمعت النبي يقرأخلافها. فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك فعرفت في وجهه الكراهة وقال: « كلاكما محسن، ولا تختلفوا، فإن مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[٢]. فالرسول ﷺ هنا ينهى عن الخلاف الذي فيه جحود ونكران، لأن كلا المختلفين على صواب وحق.

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الآذان والإقامة والاستفتاح والتشهدات وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنازة إلى غير ذلك مما شرع جميعه.

وإن كان يقال: إن بعض أنواعه أفضل فنجد الاختلاف في مثل هذه الأمور بسبب الجهل أو الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر والنهي عنه وهذا ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

ومنه ما يكون المعنيان غيْرين لكن لا يتنافيان، فهذا قول صحيح وذاك قول صحيح وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر وهذا كثير في المنازعات جداً، ومنه ما يكون طريقين مشروعين ولكن قد سلك رجل أو قوم هذه الطريقة، وآخرون قد سلكوا الأخرى، وكلاهما حسن في الدين، ثم الجهل، أو الظلم يحمل على ذم أحدهما أو تفضيله بلا قصد صالح أو بلا علم أو بلا فقه.

اختلاف التضاد: وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان إمافي الأصول وإما في الفروع عند الجمهور، الذين يقولون **«المصيب واحد»** وإلا فمن قال **«كل مجتهد مصيب»** فعنده: هو من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

فهذا الخطب فيه أشد لأن القولين يتنافيان لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول

---

(١) سبل السلام للصنعاني جـ ٢ ص ٢٠٥.

(٢) رواه مسلم.

الباطل الذى مع منازعة فيه حق ما أو معه دليل يقتضى حقاً ما، فيرد الحق فى هذا الأصل كله حتى يبقى هذا مبطلاً فى البعض كما كان الأول مبطلاً فى الأصل، كما رأيته لكثير من أهل السنة فى مسائل القدر والصفات والصحابة وغيرهم وأما أهل البدع فالأمر فيهم ظاهر.

ولك أن تتصور أن الخلاف فى فروع المسائل قد يصل إلى ثمانية آراء، يقول الإمام النووى فى شرح مسلم اختلف العلماء فى مسألة النوم الذى ينقض الوضوء إلى مذاهب عدة ثم عددها إلى ثمانية مذاهب، فضلاً عن صلاة الضحى والقنوت وغير ذلك من أمور الفروع.

بل إن قضية كقضية تارك الصلاة فيها ثلاثة آراء فمنهم مَنْ قال: يكفر إذا تركها جحوداً ونكراناً، ومن تركها وهو معذور لقرب عهده بالإسلام أو لأنه نشأ فى بادية فإنه لا يكفر ويُعلّم أحكامها فإن أنكر بعد ذلك كفر وأقيم عليه الحد. ومن تركها كسلا حتى خرج الوقت فقيل يكفر وقيل لا يكفر ولكل دليله ولك أن تعلم أن الجمهور يقول بعدم كفره.

ومن الفقه أن تعلم أن من الاختلاف ما هو قريب كاختلاف العلماء فى أمر هل هو سنة أو واجب؟ كالاختلاف فى ترتيب أعضاء الوضوء، فمن العلماء من يقول: إنه واجب، ومنهم من يقول إنه سنة. والكل متفق على أنه مشروع أصلا وكان الاختلاف فى كون الشيء أو الفعل **حراما أو مكروها** مع الاتفاق أصلا على عدم مشروعيته. كخطبة الجمعة من خطيب غير متوضئ. فهو حرام عند جماعة ومكروه عند آخرين[1].

ومنه ما هو اختلاف تنوع ـ كما ذكر ابن تيمية ـ وهذا وإن كان أحدهما أرجح من الآخر فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزا[2].

فهذا النوع من الاختلاف دال على الإباحة والتوسع على العباد، وكل الأقوال جائزة، وإن كان البعض يفضل قولا على آخر.

ومن الاختلاف أنواع متباعدة. كالاختلاف فى أمر هل هو سنة أو مكروه؟ وكالاختلاف فى أمر هل هو **واجب أو محرم**؟ فمن النوع الأول رفع اليدين عند كل تكبيرة من تكبيرات صلاة العيد، مستحب عند البعض، ومكروه عند البعض، ومن أمثلته أيضاً الصلاة على النبى ﷺ فى التشهد مستحب عند البعض. مكروه عند آخرين.

---

(١) ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين د. عبد الجليل عيسى ص ٣،١٨ ما لا يجوز الخلاف فيه المرجع السابق ص ٣٢

(٢) المرجع السابق ص ١٨.

ومن النوع الثانى: وهو ما كان الاختلاف فيه فى أمر هل هو واجب أم حرام؟ وهذا ما عبر عنه بعض العلماء بأنه أخطر أنواع الخلاف[1] . ومن أمثلته قراءة الفاتحة فى صلاة الجنازة بعد التكبيرة الأولى، واجب عند الشافعية والحنابلة تبطل الصلاة بتركها، وحرام عن الحنفية يأثم المصلى إذا قرأها، ومن أمثلته أيضاً رفع اليدين عند الركوع والرفع منه، . واجب عند البعض محرم عند البعض الآخر، قال الحافظ ابن حجر، بعد أن ذكر الخلاف فى ذلك ومستمسك كل قول[2]، ومقابل هذا قول بعض الحنفية: إنه يبطل الصلاة، ونسب بعض محققيهم، كما حكاه ابن دقيق العيد إلى تركه درءاً لهذه المفسدة.

واسمع ما روى عن عبد الوارث بن سعيد أنه قال: قدمت مكة فألفيت فيها أبا حنيفة وابن أبى ليلى، وابن شبرمة، فأتيت أبا حنيفة فقلت: ما تقول فى رجل باع بيعاً وشرط شرطاً؟ فقال: البيع باطل والشرط باطل، وقال ابن أبى ليلى: البيع جائز والشرط باطل وقال ابن شبرمة: البيع جائز والشرط جائز، فقلت: يا سبحان الله ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة، ثم ذكر الحديث الذى احتج به كل من الفقهاء الثلاثة كل يعضد رأيه[3].

والواجب علينا الذى يجب أن نفهمه جميعاً ـ خاصة الشباب ـ أن نقبل الخلاف ونسعه ما دام معتبراً، بل ونرحب به لأنه من أبواب الوصول إلى الحق.

واختلف من بعد الصحابة الكرام التابعون والأعلام، واختلف من بعدهم الفقهاء المتقدمون، فما زاد الخلاف الدين إلا متانة وقوة، وامتدادا وسعة وما أعقب ذلك إلا حضارة، ورفاهية.

وما إن توقف الفكر وانحسرت الآراء وانعدم النظر فى الأحكام، وعم التقليد وحرم الاجتهاد حتى نكصت الحضارة الإسلامية على عقبيها، وعقمت الثقافة الإسلامية كل مجتهد فيها، وأصبح المسلمون على ما نراهم اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم يثيرون قضايا جميعها تدخل فى دائرة المختلف فيه ابتداء من اللحية مروراً بالحجاب والنقاب والقنوت، والموسيقى، والتمثيل والشرب وقوفاً وقعوداً، والتبول

---

(١) الإنصاف فى الأسباب الداعية للخلاف لابن السيد ص ١٣٠، الفقه المقارن لحسن الخطيب ص ٢٢٠، والسنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للدكتور مصطفى السباعى ص ١٣٠، ١١٥، ٤٠.

(٢) فتح البارى ٢/ ٢٢٠.

(٣) من كتاب التنبيه على الأسباب التى أوجدت الخلاف بين المسلمين فى آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم للفقيه البطليموسى، المتوفى سنة ٥٢١هـ، تحقيق الدكتور أحمد حسن كحيل، والدكتور حمزة عبد الله النشرتى.

وقوفاً وقـعوداً، وتكبيـرات العيدين، ودخول مـجلس الشعب، ودخول المقبـرة حافى القدمين، ولولا أن المجـال لا يتسع لعددت هذه القضـايا التى تدخل جميعـها فى دائرة الاجتهاد، أى أنها ليـست قطعية بما فيها حكم اللحيـة والحجاب والنقاب. وأسأل الله التـوفيق فى عـرض هذه القضـايا بالتـفصـيل فى غيـر هذا الموضع حـتى لا تتشـعب الموضوعات، ولكن المهم أن يعلم الشـباب بوجه خاص أن هناك منطقة لا اجتهـاد فيها هى منطقـة القطعيـات ـ وقد بيناها بتـوفيق الله ـ وهذه المنطقـة هى التى تجسـد الوحدة الفكرية والسلوكيـة للأمة فلا يجـوز أن تدخل دائرة الاجتهـاد بل يتعاون الجـميع على وجوب تنفيذها، وأما غيرها من المناطق الشرعـية فهى محل اجتهاد وخلاف بين العلماء بما فيها الموضوعات التى أشرنا إليها فـلا يصح أن تكون سبباً للفرقة والتخاصم والتدابر ونخلق ميدان للقتال فيما بيننا ونترك أعداء الإسلام يبتهجون لهذه الخلافات بل ويغذونها حتى تكون الحالقـة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين؛ وذلك لأن أكـثر الجهل إنما يقع فى نفى ما عليه الآخرين وجحوده وتكذيبه لا فى إثبات ما هو عليه وأحاط به؛ لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه عن غيره.

ورضوان الله على الإمام البنا حين قال: «إن الخـلاف أيها الإخوان قد يتناول فروع الأعمال والعـبادات، ولا يرقى بحال إلى مرتبة العـقيدة وصحيحـها، وهذا الخلاف لا يخـرج صـدراً، ولا يؤذى أحداً وأمـره دائر بين خطأ وصـواب فـإذا عـرفنا أن المخطئ والمصيب مأجوران، هان الخطب واستطعنا فى ظل الإخاء والحب أن نصل إلى الحقيقة، واستطاع الحكم الشرعى أن يرفع الخلاف..

ثم يقول: ومن الخلاف أيها الأخوة مـا يتصل بالعقيدة وصحيحـها، ومصدره عدم تحديد العبارات، وعدم تعرف المقاصد والجمود على عبارات ومصطلحات لم يتعبدنا الله تبارك وتعالى بالجمـود عليها، وأعتقد أيها الأخوان أنه لو حـددت العبارات وتعرف كل فريق على مقاصد الآخـر ولم يتقيد بعبارات ومصطلحات خـاصة ما دام المعنى المقصود سليماً، وأعتقد أننا لوفعلنا ذلك وحاولنا التقريب بين وجهات النظر لاستطعنا الجمع بين الآراء المتنافرة والفكر المتخالف ولوصلنا إلى نتيجة محمودة أقلها أن نخرج من حيز كفر وإيمان إلى حيز خطأ وصواب[2].

فهل أخطأ البنا حين قـال نتعاون فيمـا اتفقنا عليه ـ من الأصول والعـقائد والأمور القطعية التى لا تحتـمل تأويلا ولا اجتهاداً ـ ويعذر بعضنا بعضاً ـ فـى الأمور الخلافية

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) (المرجع) دروس الثلاثاء ص ٥٠٨.

الظنية الاجتــهادية ـ أحسب أنه كان مـوفقا حين قال: «والخلاف الفـقهى فى الفروع لا يكون سـببا للتـفرقـة فى الدين ولا يؤدى إلى خصـومة ولا بغـضاء. ولكل مـجتـهد أجره. ولا مـانع من التحـقيق العلمى النزيـه فى مسائل الخـلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة. من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب».

فجزاه الله عنا خير الجزاء.

* * *

قيمة الوقت في القول السديد والعمل السليم

الأصل التاسع

وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفى التأويل مندوحة .

* * *

قيمة الوقت فى القول
السديد والعمل السليم
الأصل التاسع

« وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التى تقع، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل إليها العلم بعد، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ولكل منهم صحبته وجزاء نيته وفى التأويل مندوحه».

هذا الأصل يعالج:

١ـ عدم الخوض فى المسائل التى لا ينبنى عليها عمل.

٢ـ قيمة الوقت بالنسبة للمسلم.

٣ـ آفات اللسان وإمساكه.

٤ـ عدم الخوض والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب.

هذا أصل فى التربية عظيم؛ وذلك لأن المسلم صاحب رسالة من أجلها خلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، ومن أجلها أنزل الله على رسوله كتابا عرفنا فيه أموراً أربعة:

١ـ عرفنا بربنا لنعبده.

٢ـ وعرفنا بأنفسنا حتى لا نغتر.

٣ـ وعرفنا بالكون لنسخره.

٤ـ وعرفنا بالمصير الذى سنصير إليه.

والإنسان فى هذه الدنيا يكد ويتعب، ويجتهد ويجاهد ليجد ثمرة عمله هناك فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾.

ومن هنا فإن الوقت عنده له قيمة «ما إن ينبثق فجر يوم جديد إلا وينادى مناد يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمنى فإنى لن أعود إليك أبداً إلى يوم القيامة» فهو لا يقوم على عمل ولا يقول قولا إلا وهو يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨].

الوقت ليس من ذهب: إن الوقت بالنسبة للمسلم ليس من ذهب كما يقول الذين يقيسون الوجود من الناحية المادية، ولكنه الحياة؛ لأن حياة الإنسان فى هذا الوجود هى الوقت الذى يمضى بين الوفاة والميلاد، فقد يذهب الذهب وينفذ ولكنك تستطيع الحصول عليه بعد ذلك، وتستطيع أن يكون معك منه أضعاف ما فقدت، ولكن الوقت الذاهب والزمن الفائت لا تستطيع له إعادة أو إرجاعاً.

ولذلك كان أعظم الناس تعرضاً للخسارة والإخفاق أولئك المضيعون لوقتهم الغافلون عن رسالتهم ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف:١٧٩].

ولقد كان من دعاء الصديق رضوان الله عليه« اللهم لا تدعنا فى غمرة ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين» وكان عمر ﷺ يسأل الله البركة فى الأوقات وإصلاح الساعات. . .ومن هنا كانوا يحافظون على أوقاتهم والوقت إذا لم يقض فى طاعة الله انتهى فى معصية، ولذلك حرص الإسلام على أن ينشغل المسلم بأمور يبنى عليها تحقيق رسالته فى الوجود، فأمر المسلم أن يطلب العلم النافع. وأن يسأل ولا حرج بغية تحصيل هذا العلم، فقد سألت الملائكة ربها عند خلق آدم وقالوا:

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٣٠].

ولذلك قسَّم العلماء العلوم إلى :

١ـ **علوم حث الإسلام على تعليمها وأمر بها**، وهى علوم نافعة تفيده فى تأدية رسالته واستخلافه فى الأرض كعلم القراءة والكتابة، والقراءات والتجويد، والنحو والصرف، والبلاغة واللغة، والعلوم الكونية، والكيمياء، وعلم النبات، وعلم الأحياء، والهندسة، والحساب والجغرافيا، والتاريخ والصناعات المختلفة.

٢ ـ علوم اختلفوا فى جوازها، كعلم المنطق فقد ذهب البعض إلى المنع المطلق والبعض الآخر إلى الجواز المطلق، يقول الشيخ عبد الرحمن الأخضر فى منظومته:

فابن الصلاح والنووى حرما ... وقال يوم ينبغى أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب ... ليهتدى به إلى الصواب

وعلى هذا فالسؤال لتحصيل هذه العلوم التى حث الإسلام على تعليمها وأمر بها أو التى اختلف فى جوازها عند الذين يجوزن لا يعتبر خوضاً فى باطل ولا مراءً ولا جدلاً طالما أن النية هى تحصيل العلم.

٣ـ العلوم التى لم يختلفوا فى تحريمها قطعياً: وذلك لضررها وخلوها من أى منفعة تعود على الإنسان كالسحر و الرمل والكهانة والودع والتنجيم والشعوذة، وكل ما كان سبباً لإثارة الشكوك أو تعلم ما ينشط إلى الشر وما يثبط عن الخير أو ما يستعان به على شر، فالخوض فيها ليس من التكلف الذى نهينا عنه بل هو إثم عظيم وذنب كبير لا يحطه المولى عنه إلا بالتوبة بعدم الاشتغال فيها.

يقول الإمام الغزالى[1]: العلم ثلاثة:

١ـ قسم مذموم قليله وكثيره، كالسحر والكهانة والنجوم والودع إلخ.

٢ـ قسم محمود قليله وكثيره، وهو العلم بالله وصفاته وأفعاله وسننه فى خلقه إلخ.

٣ـ قسم لا يحمد منه إلا بمقدار مخصوص، كفروض الكفايات.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « العلم ثلاثة، آية محكمة، أوسنة قائمة، أو فريضة عادلة، وما سوى ذلك فهو فضل»[2].

من منهج القرآن فى التربية: من منهج القرآن فى التربية أن نمسك اللسان فيما لا يعنينا، وألا نتكلم إلا فيما يفيدنا، وأن تكون مناقشاتنا وأسئلتنا ومجادلاتنا بالتى هى أحسن فى كل ما يخدم دعوتنا ويحقق رسالتنا، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[الأنعام:٦٨]؛ ذلك لأن وقتك ثمين ومشاركتك إثم مبين.

ولقد ضرب الله لنا المثل بأمة مجادلة، هى أمة إسرائيل لينبه المسلمين إلى أن اليهود قد احترفوا اللجاجة والجدل العقيم من قديم، وهذا داء أصابهم، وأراد القرآن أن ينفر المؤمنين من هذا الداء الوبيل حتى لا يكونوا مثلهم فى المماراة واللجاج الباطل خاصة فيما يتعلق بشريعة الله تعالى، حتى تتلقى بالقبول الحسن لا بالمماراة والجدل العقيم.

واسمع معى إلى القرآن وهو يقول﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾[النساء: ١٥٣] . . ما قصة البقرة منا ببعيد حين قال لهم موسى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى جـ١ ص ٦٥.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة.

تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فكان الجدل والمراء واللجاجة قالوا: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ ثم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وفي قصة تحويل القبلة قالوا: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ قال لهم الله: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.. ﴾ وحين علموا أن جبريل هو الذى يتنزل بالوحى قالوا ليته ميكائيل الذى ينزل بالنماء والخير.

وهذه دروس لأمة محمد ﷺ الذى قال لهم: « لتركبن سنن مَنْ قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضب دخلتموه ».

فانظر إلى لفت أنظارهم حين سألوا عن الأهلة: يقول المفسرون فى قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن الهلال يبدو ضعيفا ضئيلا ثم يكبر إلى أن يصير بدرا، ثم يأخذ فى النقص.

ـ فلما كان السؤال لا ينبغى عليه عمل ـ أنزل الله سبحانه ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ فعدل بهم سبحانه وتعالى عن الاشتغال بالسؤال عن جرم الهلال الأعظم من خلق الهلال يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. [يونس: ٢]

إذ ماذا يفيد لو سألنا البعض عن أمور لا يبنى عليها عمل مثل:

عدد أصحاب الكهف بالتحديد؟ وكيف كلم الله موسى تكليما؟ أكان الكلام باللفظ والصوت أم ماذا؟ كيف اتخذ إبراهيم خليلا؟ وكيف انعقدت المودة بين الله وبينه؟ ما هى الشجرة التى أكل منها آدم على التحديد؟ كيف تكلم الهدهد وماذا قال؟ وبأى لغة؟ هل نملة سليمان ذكر أم أنثى؟ كيف شق صدر رسول الله ﷺ ؟ وهل كان الإسراء بالجسد والروح أم بالروح فقط؟ أين والد الرسول ﷺ فى الجنة أم فى النار؟ مَنْ هذا الذى أتى بعرش بلقيس؟ وما اسمه؟ ومن أمثال هذه الأسئلة التى لا تعد ولا تحصى وتثير جدلا ولا ينبنى عليها عمل ـ فهل ـ بالله عليك هذه الأسئلة وأمثالها ينبنى عليها حفظ العقيدة وبيان أداء الفريضة، أو تجنبنا الكبائر، وتجعلنا نتسامى عن الصغائر أو تتصل بفعل المأمور وترك المحظور. لا شك أنها من باب ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾. .، ولذلك وجدنا بعض العلماء لا أقول ينهون عن الخوض فى مثل هذه المسائل فهذا أمر متفق عليه ولكن يكرهون المناظرات العلمية وجعلوا لها آداباً.

آداب المناظرة:

كره بعض العلماء المناظرة والجدال فى العلم واحـتجوا بقول الله تعالى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ وقوله ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ فلامهم على المجادلة وذمهم عليها.

وروت عائشة عن النبى ﷺ أنه قال: « أبغض الناس إلى الله الألدّ الخصِم». كما روى أبو إمامـة الباهلى عن النبى ﷺ « مـا ضل قوم بعد هدى كـانوا عليه إلا أوتوا الجدل» وقال ﷺ : دع المراء ولو كنت محقا.

وقال بعض أهل العلم لا بأس بها إذا قـصد بها ظهور الحق، ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقوله ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ وقال تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾[البقرة:٢٥٨]. . .

ولكنهم اشترطوا شروطا منها:

١ـ أن ينوى بالتعليم الخروج من الجهل.

٢ـ أن ينوى به إحياء العلم لأن الناس لو تركـوا التعلم لذهب العلم كما روى عن الرسول ﷺ قال: «**تعلموا العلم قبل أن يرفع ورفعه ذهاب العلماء**».

٣ـ أن ينوى منفعه الخلق لأن النبى ﷺ قال: «**خير الناس أنفعهم للناس**».

٤ـ أن ينوى أن يعمل به لا بخلافه فالعلم بلا عمل وبال والعمل بلا علم ضلال.

٥ـ أن يقصد وجـه الله ولا يعجب بذاته فإن العجب كالرياء يقول الإمـام الشافعى «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم حتى أن لا ينسب إلىّ حـرف منه ويقول: ما ناظرت أحدا قط على الغلبة ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه»[(١)].

٦ـ أن يأخذ بوصـية لقمان الحكيم لابنه ويـلزم نفسه بما دلت عليه ولا يتـجاوزها يقول: «لا تجادل العلمـاء فتهون عليهم ويرفـضوك، ولا تجادل السفهاء فـيجهلوا عليك ويشـتمـوك، ولكن اصبـر نفسك لمن هو فـوقك فى العلم ولمن هو دونك فـإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم فى رفق»[(٢)].

---

(١) المجموع باب أقسام العلم الشرعى للإمام النووى تكملة الشيخ نجيب المطيعى رحمة الله عليه ص ٥٤ بتصرف.

(٢) كتاب العلم والعلماء للشيخ أبو بكر الجزائرى ص ٣١.

فضول الكلام:

يقول ﷺ « ألا هلك المتنطعون «ثلاثا» والمتنطعون المتكلفون يقول ربنا لرسوله ﷺ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:٨٦].

إن الصحابة رضوان الله عليهم تربوا على عدم التكلف والتنطع يقول أنس رضى الله عنه كنا عند عمر رضي الله عنه فسمعته يقول: نهينا عن التكلف حتى أنه رضي الله عنه كان يمرّ يوما فسقط عليه شئ من الميزاب ومعه صاحب له فقال يا صاحب الميزاب ماؤك طاهر أم نجس؟ فقال عمر لا تخبره ومضى.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: « يحمل هذا العلم من كل خلف عدول يَنْفُون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[١].

ويقول الإمام النووى[٢]: واعلم أنه ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاما ظهرت فيه المصلحة وحتى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه لأنه الكلام المباح قد يجر إلى حرام أو مكروه ولذلك قال ﷺ : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»[٣].

وهذا صريح فى أنه ينبغى أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيرا وهو الذى ظهرت فيه المصلحة ومتى يشك فى ظهور المصلحة فلا يتكلم.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم**»[٣].

وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٤].

أصالة المنهج الإسلامى:

إن أصالة المنهج الإسلامى وواقعيته جعلت من كل مسألة لا ينبنى عليها عمل نافع ـ فالخوض فيها ـ مضيعة للوقت لا طائل من ورائه؛ لأن كل فكرة لا تتحول إلى واقع عمل صالح تعتبر لهوا فى نظر الإسلام، ولذلك نجد القرآن الكريم يمنع صراحة الخوض النظرى فى مسائل العقيدة ويدعو إلى تجنب جعل المباحث الدينية ألعوبة للاستدلالات والمناقشات المجردة قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ

(١) هذا الحديث وما قبله من أقوال من كتاب أمراض القلوب لابن القيم ص ٥٣ وما بعدها.

(٢) رياض الصالحين ص ٤٢٩. (٣) متفق عليه. (٤) رواه البخارى.

﴿يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وإنا نجد فى إعراض الرسول ﷺ عن سؤال الأعرابى عن زمن الساعة وإجابته الحازمة له: ما أعددت لها؟ دلالة تربوية هامة وتدعيما للمسلك القرآنى الدافع إلى ميادين العمل والبناء.

ولقد أراد الرسول ﷺ أن يلقن السائل ومن ورائه كل الأمة أن البحث فى قضايا الساعة وموعدها خروج عن المنهج الإيجابى الذى زكاه الإسلام والذى ينزع إلى ملء حياة المسلمين بما يصلح أحوالهم ويؤهلهم للفوز بنعيم الآخرة.

الخوض فى القدر وبعض معانى القرآن: حين يكثر الجدل والمراء ولا يمسك الإنسان لسانه عن الخوض فيما لا يفيد فإنه يتكلم الكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم فهذا أحدكم يقول: كيف يكتب الرب علينا الشقاء ويعذبنا بالنار، وآخر يقول يخلق الله إبليس ويسلطه على الناس ثم يعذب من أطاعه بالنار، والذنب ذنب الذى خلق إبليس - كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا - وهؤلاء مجوس هذه الأمة.

ويذكرنى ذلك بقصة عيسى ابن مريم عليه السلام مع إبليس اللعين فقد ظهر له فقال له: ألست تقول أنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك؟ قال نعم قال: فارم بنفسك من ذروة هذا الجبل فإنه إن يُقدّر لك السلامة تسلم فقال: يا ملعون إن لله أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه.

وعن طارق بن شهاب قال: جاء يهودى إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ فقال عمر لأصحاب محمد ﷺ أجيبوه فلم يكن عندهم فيها شيء، فقال عمر: أرأيت إذا جاء الليل يملأ الأرض فأين الآخر؟ قال: حيث شاء الله، فقال عمر: والنار حيث شاء الله، فقال اليهودى والذى نفسى بيده يا أمير المؤمنين إنها لفى كتاب الله المنزل كما قلت[1].

ولذلك كان الصحابة لا يخوضون فى القدر ولا فى المسائل الجدلية العقيمة ولا التفريعات الكثيرة حتى أنه يحكى أن عمر بن الخطاب حين أتاه رجل قد سرق فقال له: ما حملك على السرقة؟ قال: حملنى عليها قضاء الله وقدره قال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره، ولم يخض معه فى مقولته ولم يجادله فيما قال.

(١) حياة الصحابة جـ ٣ ص ٢٩، والكنز ص ٧/ ٢٧٧.

عدم الكلام فى المفاضلة بين الصحابة ولا فيما شجر بينهم: ومن هذا الباب أيضا عدم الخوض فى الخلاف بين الصحابة فلا طائل تحته، ولا ينبغى الخوض فى هذه الخلافات.

ولقد سئل بعض العلماء عما وقع من خلاف بين الصحابة فقال: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا ،سبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته.

وسئل الحسن البصرى عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا عنه، وعلموا وجهلنا واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا.

قال المحاسبى: فنحن نقول كما قال الحسن ولا نبتدع رأيا منه ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله عز وجل[1].

وصدق الله إذ يقول: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ وصدق الرسول ﷺ إذ يقول لمعاذ: «وأخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان»[2] فإن الإنسان لا يغلب الشيطان إلا بالسكوت.

يقول الإمام النخعى: يهلك الناس من فضول الكلام والمال وهذا معنى قول الرسول ﷺ «**إذ يقول طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من لسانه**» ذلك لأن نطق اللسان يدخل فيه الشرك وهو أعظم الذنوب ويدخل فيه القول على الله بغير علم ولذلك قال ﷺ : « إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه»[3] ولقد دخلوا على صحابى فى مرضه ووجهه متهلل فسألوه عن سبب ذلك، فقال: ما من عمل أوثق عندى من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنينى، وكان قلبى سليما للمسلمين.

ويقول الحافظ ابن رجب إن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير وإن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه.

وهكذا ترى هذا الأصل هو أصل فى التربية عظيم يعلم المسلم أنه لا يتكلم فى الشبهات أو المجادلات العقيمة، أو سفاسف الأمور إنما يحفظ لسانه من الخوض فيها لأن كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر أو ذكر الله عز وجل، **فالمسلم يعقل لسانه إلا عن: باطل يدفعه أو حكمة ينشرها أو نعمة يذكرها**، قال العلماء رأس مال العبد أوقاته فالمفروض ألا يصرفها فيما لا يعنيه فإما أن يصرفها فيما يفيد أو يدخرها لوقتها.

---

(١) روائع البيان للصابونى جـ٢ ص ٤٨٢ والقرطبى جـ ١٦ ص ٣٢٢.

(٢) كتاب تنبيه الغافلين للترمذى ص ١٣٢. (٣) مسند الإمام أحمد.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1] وقول ربنا ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ..﴾ قالوا هم أهل الجدل الذين عناهم الله.

قال بعض السلف: يكون آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ويفتح عليهم باب الجدل ويقول ﷺ : **«لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو فى النار»**[2].

فأى تربية كان يربيها الإمام البنا لأتباعه حتى ينشغلوا بعظائم الأمور فهل كان بدعا من السلف؟.

* * *

(١) رواه الترمذى وابن ماجة حسن صحيح.

(٢)رواه ابن ماجة من حديث جابر بإسناد حسن.

أسمى عقائد الإسلام

الأصل العاشر

معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

* * *

أسمى عقائد الإسلام

الأصل العاشر

« معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، ،وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾.

هذا الأصل يعالج:

١ـ قضية الأسماء والصفات.

٢ـ آراء الفرق الإسلامية فيها.

٣ـ رأى السلف الذى ندين به.

هذه قضية كثر فيها اللغط والغلط واختلطت فيها المفاهيم وكثر فيها الكلام، واتُّهِمَ فيها علماء أفاضل، ومجاهدون باعوا أنفسهم رخيصة فى سبيل الله وممن اتهم فى هذه القضية الإمام البنا رحمة الله عليه فهو مرة جهمى وثانية من المفوضة وثالثة من المبتدعة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وللأسف فإن أصحاب هذا الاتاهم من ذوى القربى الذين أُمرنا أن نصل أرحامهم الدينية وممن يدعون إلى الله ويسيرون طريقه رجال لا نهتم نياتهم ولكن نعتب عليهم لأنهم لم يتبينوا وظنوا أن ما يقولونه هو الحق الذى يجب أن يرجع إليه وليس الصواب الذى يحتمل الخطأ.

ولا شك أن القضية شأنها عظيم لأنها تتصل بالعقائد ـ وهى أهم العلوم على الإطلاق بالنسبة للمسلم، ذلك لأن أنواعا كثيرة من الانحرافات فى الفكر والتصور والسلوك والاعتقاد لم يكن لها سبب إلا البعد عن فهم أصول هذا الدين والتفريق بين أصول العقيدة وفروعها فالإسراء من حيث حدوثه مثلا أصل لا يختلف فيه مسلم أما كيفيته هل بالروح أم بالجسد فهو فرع من الاعتقاد وكذلك يختلف الحكم بإنكار كل منهما، وعيسى عليه السلام رسول الله وكلمته لا يستطيع مسلم أن ينكر رسالته فهذا أصل من أصول العقيدة أما رفعه وكيفيته فهذا فرع من الاعتقاد واختلف فيه العلماء فهل يستويان حكما؟

ولذلك فإنه ما جاء رسول ولا نبى إلا وأوضح أصل دعوته﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبياء: ٢٥] ليهلك من هلك عن بينه ويحى من حى عن بينة فجميع الأعمال الصالحة يتوقف قبولها على صحة الاعتقاد، وصدق الاتباع﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [الكهف: ١١٠] لأن أى انحراف عن أصول العقيدة الصحيحة انحراف عن الإيمان والانحراف عن الإيمان قد يؤدى إلى إبطال العمل ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ فالاختلاف فى أصول العقيدة اختلاف كفر وإيمان أما الاختلاف فى فروعها فهو صواب وخطأ وشتان بين الاثنين.

مسلك الأنبياء فى تقديم العقيدة: والذى نريد أن نؤكد عليه أن مسلك الأنبياء والرسل فى تقديم العقيدة لم يكن تقديما نظريا ولا تجريبيا ولا مصطلحيا إنما كان منهجا متحركا باعثا للحياة الأفضل التى ينشدها كل عامل فى مجتمعه ولذلك كان التقديم لها يتصل بواقع المجتمع الذى يعيشونه.

فالعقيدة إذن حين قدموها إنما قدموها ليعالجوا بها مشكلات كانت مستأصلة فى زمانهم، ولم يقدموها على أنها علم مجرد يجب أن يحفظ ومصطلحات يجب أن تحدد وينتهى الأمر بهذا العلم.

فنوح عليه السلام قال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ليستقيم سلوكهم وتصورهم ويعرفوا مصدر الخير لأنفسهم ولبلادهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[نوح:١٠-١٢].

وهود عليه السلام قالها ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ليعالج بها قوما غرتهم قوتهم المادية فطغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء:١٢٨-١٣١].

وصالح عليه السلام عالج بالعقيدة الحضارة المادية أيضا التى سادت فى مجتمعه ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[الأعراف:٧٤].

ولوط عليه السلام عالج بها التحلل الأخلاقى الذى ساد مجتمعه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

مُسْرِفُونَ﴾[الأعراف:٨٠-٨١].

وشعيب عليه السلام عالج بها مشكلة اقتصادية في مجتمعه متمثلة في تطفيف الكيل والميزان ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الشعراء:١٨١-١٨٣].

وموسى عليه السلام عالج بها الطغيان السياسى متمثلا فى فرعون والطغيان المالى متمثلا فى قارون والبطانة الفاسدة متمثلة فى هامان ثم جاء عيسى عليه السلام متمما لما جاء به موسى عليه السلام ﴿لأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وجاء محمد ﷺ وما كان بدعا من الرسل فجاء بمنهاج حياة متكامل لأنه الدين الخاتم فجاءت رسالته مستوعبة مناحى الحياة جميعا اقتصادية واجتماعية وسياسية وتعليمية وأخلاقية وفكرية﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة:٤٠] كلمة واحدة هى لا إله إلا الله تدين لنا العرب والعجم إذا عالجنا مشاكل عصرنا.

إنها كلمة تشعرك بعظمة هذه الرسالة، والاعتزاز بالانتساب إليها، والثقة فى نصر الله لها. وهى تمثل لدى المسلم:

نفيا تسقط معه الألوهية عن كل الطواغيت التى ادعت من دون الله سواء كانت حجرا أو شجرا أو صنما أو وثنا أو نظاما أو شعارا أو بشرا ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٧٩-٨٠].

وإثباتا: يعطى للألوهية كل أوصافها وسماتها وأفعالها لله رب العالمين، يخلق ويرزق ويحكم ويأمر ويشرع ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾.

وبذلك تتحقق العبودية الحقة بكمال الحب، وكمال الذل كما يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله.

وهذا لا يتحقق بحفظ المصطلحات وترديد الكلمات ولكنها بعد العلم معاناة وتربية ومجاهدة وجهاد تلمح ذلك فى مهام الرسول التى حددها قول ربنا ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾. فمهمة الداعى إلى الله تنحصر فى:

١- تلاوة آيات الله. ٢- تعليم الكتاب والحكمة والسنة.

٣- التزكية - وهى التربية.

وعلى هذا فإن تقسيم الإمام ابن تيمية للعقيدة من حيث توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات إنما هى من باب التعلم البحث الذى يراد به كمنهج علمى للرد على مشكلات ومباحث ظهرت فى عصره سنتناولها فى حينها.

ولذلك فقد أعجبنى تعريفاً للإيمان لفضيلة الدكتور يوسف القرضاوى يقول:(١) .

« الإيمان عمل نفسى يبلغ أغوار النفس ويحيط بحواسها كلها من إدراك وإرادة ووجدان فلابد من إدراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى فى الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحى الإلهى المعصوم ولابد أن يبلغ هذا الادراك الجزم الموقن، أو اليقين الجازم الذى لا يزلزله شك ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [الحجرات: ١٥] . ولابد أن يصحب المعرفة الجازمة إذعان قلبى وانقياد إرادى يتمثل فى الخضوع والطاعة والرضا والتسليم﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**......﴾[النساء: ٦٥] ولابد أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية، والجهاد فى سبيلها بالمال والنفس، وبذلك تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه وتحركه، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا اقتنع العقل وتحرك القلب واتجهت الإرادة استجابت الجوارح واندفعت إلى العمل استجابة الرعية للراعى الصالح».

منهج القرآن فى عرض الإيمان: إن آيات خمس فى مواضع ثلاثة من الذكر الحكيم تصور لنا أبرز سمات الإيمان فى أحسن تصوير، وتحدد لنا معالمه.

ففى سورة الأنفال: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾. . . إلى أن يقول ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ..﴾.

وفى سورة النور: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾. . الآية.

وفى سورة الحجرات: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ المؤمنون حقا**﴾ الآية.

---

(١) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوى.

والمتأمل فى هذه الآيات يجد الأمور الأتية:

أولا: كل منها مصدر بهذا القول« إنما» وأهل البلاغة يقولون إنه أداة تفيد قصر سمات المؤمن الصادق على الصفات والخصائص التى بينتها كل آية وهى:

أ ـ وجل القلب عند ذكر الله.

ب ـ ازدياد الإيمان به عند تلاوة آياته.

جـ ـ التوكل عليه وحده.

د ـ إقامة الصلاة.

هـ ـ الإنفاق مما رزقه الله.

هذا فى الآية الأولى يضاف إلى هذه الصفات فى الآيتين الأخريين.

و ـ الإيمان بالله ورسوله.

ز ـ عدم الذهاب فى الأمور الجامعة إلا بعد إذنه ﷺ.

ح ـ عدم الارتياب فى الإيمان.

ط ـ الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس.

ولا يعنى هذا أن صفات المؤمنين تقتصر على هذه أو تلك إنما تضاف لهذه الصفات صفات أخرى حكاها القرآن كالتى فى صدر سورة « المؤمنون» مثلا وغيرها من الآيات.

كلام القرآن عن المؤمنين وليس الإيمان:

إن مبنى أمر الحديث فى هذه المواضع التى ذكرها وغيرها هو على المؤمنين لا على مفهوم الإيمان المجرد فلم يقل مثلا« إنما الإيمان وجل القلب وذكر الله الخ» إنما جرى على ما جرى عليه لحكمة جليلة وعبرة سامية ـ والله أعلم بمراده ـ أن الحكيم الخبير يعلمنا أن الإيمان لا يصلح ولا ينبغى له أن يكون مجرد اعتبار كونه مفهوما نظريا يتصوره الذهن دون أن يكون له حظ من التطبيق أو مصداق من السلوك العملى فى عالم الواقع، بل لابد لكى يصح مفهوم الإيمان علي وجهه المرضى المستقيم أن يكون ترجمة صادقة فى سلوك المؤمنين فى القول والعمل فهذا يدعو كل مؤمن ألا تركن نفسه أو ينخدع قلبه بمجرد صوت خافت لداعى الإيمان يختلج فى ضميره، ولا مجرد كلمة أو اصطلاح يلوكه لسانه ثم لا تلبث أن تموت حروفها على شفتيه بل يتطلب مصداق ذلك سلوك حياته العملية مع ربه ونفسه ومجتمعه والكون كله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ..﴾[الأعراف:١٦٢-١٦٣].

من أجل ذلك رأينا الحديث عن المؤمنين وليس على الإيمان المجرد أو بعبارة أخرى عن الإيمان بوصفه متحققا فـى الأفراد المنعوتين به« **المؤمنين**» وباسم مخصوص هو «**الذين**» وصفوا بهذه الصفات النبيلة « **أولئك هم**» المؤمنون حقا ـ هذا هو منهج القرآن فى عرض العقيدة[1].

ابن القيم والعقيدة: وسار على هذا الدرب ابن القيم إذ يقول إن لا إله إلا الله قالب **وقلب قالب** أو جسد هو ما نعلمه وما نتعلمه حول الربوبية والألوهية وسماه **بعلم القلب**، وقلب أو روح تحرك هذا الجسد فتبعث فيه الحياة سماه عمل القلب، ثم قال إن علم القلب يتساوى فيه المؤمن والكافر على حد سواء ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾.

أما عمل القلب فهذا هو النور الذى يبعثه الله فى قلب من يحب من عباده، بهذه البساطة عرف المسلمون دينهم وعرفوا ربهم منذ عصر رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار فلم يكن هناك حاجة للتقعيد والتعقيد إذ لم يكن قد حصل تبلبل فى العقيدة ولا تشتت فى الفكر والنظر وما أبسط إجابة أبى بكر الصديق رضوان الله عليه حين سئل: بم عرفت ربك؟ فقال عرفت ربى بنقض العزائم، وأليس الأعرابى البسيط الذى سئل نفس السؤال فقال: البعرة تدل على البعير والروثة تدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا تدل على الصانع العليم القدير؟

ذلك لأن المؤمنين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان كانوا يستقون عقيدتهم من القرآن الكريم والسنة، فهما الينبوع الذى يستقى منه المسلمون عقائدهم وأخلاقهم وأوامرهم ونواهيهم وتصوراتهم وأفكارهم ومنهما عرفوا ما يليق بذات الله تعالى، وما ينزه غنه جل وعلا تعالت كلماته فلم يكن بينهم جدل فى شأن العقيدة، وكانوا يعتقدون اعتقادا جازما لا شك فيه:

١ـ أنه يجب لله تعالى كل صفه كمال تليق بجلاله ووصف نفسه بها.

٢ـ أنه يستحيل على الله كل صفة نقص لا تليق بجلاله.

٣ـ أنه يجوز فى حقه تعالى كل ممكن أو تركه كالإحياء والإماتة مثلا.

وكاد ينتهى العصر الأول فى إيمان خالص من الجدل حتى آواخر عهد عثمان ظهر

(١) راجع كتاب منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف.

الخلاف فى المسائل السياسية وكان سببا فى الخلاف الدينى بعد ذلك وتكونت الفرق حزب على رضى الله عنه تكونت منه الشيعة ومن لم يرضَ بعلى تكون منهم الخوارج ومن كره الخلاف بينهما كونوا المرجئة ـ وليس هنا مجال للتفصيل ـ .

ظهور الفرق الإسلامية: لما غزا الإسلام كثيرا من البلاد المتحضرة ودخل فيه كثير من أهل الحضارات ممن لهم ثقافات وعلوم كان لهم نظر فى المعتقدات فضلا عن دخول اليهود والنصارى ،والمجوس الإسلام، وكل أولئك فى رءوسهم أفكارهم الدينية الباقية من دياناتهم القديمة، وقد استولت على مشاعرهم فكانوا يفكرون فى الحقائق الإسلامية على ضوء اعتقاداتهم القديمة وأثاروا بين المسلمين ما كان يثار فى دياناتهم من الكلام فى الجبر والاختيار، وصفات الله هل هى شئ غير الذات أم هى والذات شئ واحد؟.

ولا ننسى حركة الترجمة للكتب الفلسفية مما كان له أثر على الفكر الإسلامى فتأثر بمنازع الفلسفة والمذاهب القديمة فى الكون والمادة وما وراء الطبيعة المحسوسة، وظهر علماء من المسلمين نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين، وأخذوا بطريقتهم وظهر فى العصر العباسى من سلك مسلك السوفسطائيين وثار خصام وعراك، ودارت مناقشات ومناظرات وأدلى كل بدلوه وكان الناس أصنافا: فمنهم الزنديق المنافق الذى يبغى هدم الإسلام، ومنهم الجاهل المخدوع، ومنهم المستقيم على الحق وأنتجت هذه المعارك مذاهب شتى منها الصواب ومنها الباطل ومنها الخليط.

فبعد أن كان المسلمون ينتهجون منهج القرآن فى رده على أهم الفرق التى كانت منتشرة فى عهد النبى ﷺ بأ سلوب بليغ حكيم فى نقض أقوالهم، وسلك علماء المسلمين فى ذلك الوقت مسلك القرآن فى الرد على المخالفين إلا أنه لما كان كثير ممن دخل الإسلام بعد الفتح من ديانات مختلف كاليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة والبراهمة وغيرهم كما قلنا قد أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى لباس دينهم الجديد، مما جعل الفرق الإسلامية الأولى وخاصة المعتزلة التى كان همها الأول الدفاع عن الدين والرد على المخالفين من اليهود والنصارى وغيرهم الذين تسلحوا بالفلسفة مما دفع المعتزلة لدراستها ليستطيعوا الدفاع بنفس السلاح فاضطرهم ذلك إلى قراءة الفلسفة اليونانية والتكلم فى شأنها والرد عليها وأخذوا فى إثبات العقائد الإسلامية بالأقيسة المنطقية والتعديلات الفلسفية والدراسات العقلية المجردة، وجرهم ذلك إلى دراسة مسائل ليس فى استطاعة العقل البشرى أن يصل إلى نتائج مقررة ثابته عنها كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب وغير ذلك مما

فتح بابا واسعا من أبواب الاختلاف بين علماء الكلام[1].

وللأسف فإن اتساع الحياة أمام المسلمين بعد فتح الأقطار والأمصار جعلتهم ينشغلون بأمور الحكم فقلّ تفرغهم لكتاب الله والسنة بقدر ما شغلهم بما واجههم من الأمور الجديدة إلا فئة قليلة من الباحثين والقراء المتفرغين، ولذلك فقد نازعت بعض النفوس الغير مطمئنة آراء وأفكار وشكوك حول العقائد فظهرت على ألسنة بعضهم وفى آرائهم فتحدثوا بها وتناقشوا فيها.

وهنا خشى الراسخون فى العلم على الناس أن تتزلزل عقائدهم فدعوا الناس إلى الرجوع للقرآن ومنهجه وحفزهم هذا الوضع الذى عاشوه إلى وضع قواعد وضوابط وبراهين واستدلالات عقلية يرد بها على أولئك المجادلين ثم أخذت هذه البراهين تعمق وتؤصل حتى تكونت عن هذه الحركة فكرة وضع أسس للعقائد سميت أول الأمر علم **الكلام ثم علم التوحيد أو علم العقائد.**

وكانت العراق ـ خاصة البصرة ـ مظهراً لجميع النحل والملل فقامت جماعات بَعُدت عن منهج القرآن فى عرض عقائد الإسلام وكثر الكلام فى كلام الله هل هو مخلوق أو غير مخلوق وكثرت الزندقة وظهر ما يسمى بالفرق الإسلامية التى منها.

القدرية : وهى تقول بحرية الإرادة وعلى رأسهم معبد الجهمى وتقول لا قدر والأمر أُنُفٌ فأنكروا قدرة الله.

الجبرية: وهم يسلبون الإنسان إرادته وأقاموا فى الكوفة وقالوا إن الإنسان كالريشة فى مهب الريح ونفوا صفات الرب، ووسط هذا الجو المضطرب قامت جماعة من المخلصين يشرحون عقائد المسلمين على طريقة القرآن من أشهرهم الحسن البصرى اختلف معه تلميذه واصل بن عطاء وتكونت **المعتزلة** وفى أواخر القرن الثالث ظهر الإمام أبو منصور الماتريدى ورد على أصحاب العقائد الباطلة وتكونت **الماتريدية** كما ظهر الإمام أبو الحسن الأشعرى وأعلن انفصاله عن المعتزلة وأعلن مبادئه التى وافق عليها خيرة علماء المسلمين فى ذلك الوقت وظهرت **فرقة الأشاعرة** ثم تكونت بعد ذلك جماعة أهل السنة والجماعة[2].

ولقد نشأ علم الكلام فى جو غريب عن طبيعة الحياة الإسلامية الأصلية يتناول قضايا التوحيد بغير أسلوب القرآن مما انتهى بهذا العلم الجليل إلى الجفاف والتعقيد

---

(١) المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة جـ ١ ص ٤١٣ بتصرف.

(٢) تبسيط العقائد الإسلامية للشيخ حسن أيوب.

فجهله عـامة المسلمين ونفر منه خاصـتهم وهاجمه كـثير من الأئمة كـالإمام مالك والشافعي وأحمد.

يقول الشيخ محمود شلتوت: جاء المتـأخرون الذين فقدوا الذوق العربى الفصيح والاسترشاد الداعى من القرآن والسنة، فصبوا قوالب التوحيد فى قواعد جافة ومن ثم ضعف الإيمان وضعفت الإرادة تبعا لذلك وضعفت الأخلاق.

ولقد قيض الله لهذه الأمـة من مسح عن وجه عقيدتها ما شـابها من غبش مثل الإمام أحمد بن حنبل فى القرن الثالث الهجرى فكانت كتاباته دعوة إلى النهج السديد وسار على دربه الإمام البنا رضوان الله على الجميع.

أمر يجب التنبيه عليه: إن القضايا التى سنتناولها فى هذه المسألة ليست للعامة بل هى مسألة انشغل بها علماء الأمة دون غيرهم لأنه ليس المطلوب من المسلم العامى أو الأمى أن يعرف صفات الله الواجبة ويعرف صفة الوجود وأن يفرق مثلا بين صفات الذات وصفات المعانى ويشـتغل بأدلة كل مسألة فليس مكلفا بذلك كـما يقول الإمام الغزالى: اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العـرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل. . ثم يقول: وهناك حديث مشهور فى كتب السير والحديث« قصة ضمام بن ثعلبة» رواه الإمام مسلم يبين أن رسول الله ﷺ لم يعلم ضـمام بن ثعلبة دليلا واحدا حين آمن به كمـا أنه ـ أى ضمام ـ حين دعى قومـه للإيمان لم يقدم لهم أدلة على ذلك. ولذلك حين اتهم ابن تيمية بأنه يقوم بإثارة البلبلة الفكرية والحيرة النفسية عند الناس من كثرة الكلام فى آيات وأحاديث الصفات.

قال رحمه الله: وأما قول القائل لا يتعرض لأحاديث الصفات وآياتها عند العوام، فأنا ما فاتحت عاميا فى شئ من ذلك قط(1).

ويقول: أنا ما بغيت على أحد، ولا قلت لأحد وافقنى على اعتقادى وإلا فعلت بك ولا أكرهت أحدا بقـول ولا عمل، بل ما كتبت فى ذلك شـيئا قط إلا أن يكون جواب استفتاء بعد إلحاح السائل واحتراقه، وكثرة مراجعته، ولا عادتى مخاطبة الناس فى ذلك ابتداء(2).

رأى العلماء فى علم الكلام: للعلماء الأعلام رأى واضح فـى علم الكلام فهذا **الإمام الشافعى:** رأى بعض تلاميذه يتناظرون فى الـكلام فقال لهم: أتظنون أنى لا أعلمه، لقد دخلت فيه حتى بلغت مـبلغا عظيما إلا أن الكلام لا غاية له، تناظروا في

(1) الفتاوى جـ ٥ ص ٢٢٦ .

(2) الفتاوى جـ٣ ص ٢٤٣.

شئ إن أخطأتم فيه يقال أخطأتم ولا يقال كفرتم(١).

الإمام مالك: يقول الإمام الشاطبى كـان الإمام مالك بن أنس يقول: الكلام فى الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا ـ أى العلماء ـ يـكرهونه وينهون عنه: نحو الكلام فى رأى جهم والقدر وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام فى الدين وفى الله عز وجل فالسـكوت أحب إلى لأنى رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام فى الدين إلا فيما تحته عمل.

وقال ابن عبد البر: قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيـما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده ـ يعنى العلماء منهم ـ فأخـبر أن الكلام فى الدين نحو القول فى صفات الله وأسمائه، وضرب مثلا نحو رأى جهم والقدر قال: والذى قاله مالك عليه جماعة الفقهاء قديما وحديثا(٢).

ويقول الإمام الشاطبى: وأما الجماعة فعلى ما قاله مالك رحمه الله إلا أن يضطر أحد إلى الكلام، فلا يسـعه السكوت إذ طمع فى رد الباطل، وصرف صـاحبه عن مذهبه، وخشى ضلالة عامة أو نحو ذلك(٣) ومع ذلك فقد قال الإمام الشاطبى لا بأس بتعلم طرق الاستـدلال فى الحدود التى لا يأخذ بها البـحث الطرق الوعرة والمسالك الشائكة، فتعلم الحجة والبرهان أمر مطلوب وليس محظورا شرعا إنما المحظور شرعا هو التوعر فيه وسلوك السبل المعقدة والدخول به فى طرق تؤدى إلى الأهواء والظنون، أما معرفة طرق الاستدلال من أيسـر طرق البرهان فهذا أمر مطلوب والمولى يقول﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] والحق يقال أن الرسول ﷺ كان يدعو زعماء القبائل بل الناس جميعا فكان يقدم لهم أركان الإيمان فى غاية البساطة ولا عبرة بما يقال أنهم كـانوا يفهمون من هذه الكلمات البسيطة كل تفاصيل العقيدة بأصولها وفروعها وما يترتب عليها بدليل أن رسول الله ﷺ خاطب بنفس هذه الكلمات البسيطة دون حواشى الفرس والروم والحبش والقبط خارج الجزيرة العربية بل العرب أنفسهم.

ولقد وقع من العرب بل ومن الصحابة أنفسهم رضـوان الله عليهم جميعا ما يدل على عدم فهم بعض المعانى التى تتصل بالعقيدة ونبههم لها رسول الله ﷺ وما قصة حادثة ذات أنواط منا ببعيد ـ وسنوضح ذلك عـند الحديث عن الحد الفاصل بين الكفر والإيمان بمشيئة الله تعالى.

---

(١) المذاهب الإسلامية لأبى زهرة ص ٢٤٩.

(٢) معا على طريق الدعوة محمد عبد الحليم حامد ص ١٤٢.

(٣) الاعتصام للشاطبى جـ ٢ ص ٣٣٢ وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ ٢ص ٩٥.

وعلى هذا فقضيتنا بعد هذا الإطناب الذى قصدنا به تبيان منهج القرآن وكيف بدأ علم الكلام وما أثير حول قضية الأسماء والصفات، إنما هى قضية ما عرفها مجتمع رسول الله ﷺ على هذه الصورة التى نحن فيها اليوم دون تمييز بين أصل وفرع ولا كفر وإيمان وصواب وخطأ وأصبحت القضية التى يجب أن تفاصل عليها الناس فى نظر بعض المسلمين ـ بل أصبحت تقسيمات العقيدة من حيث توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات كأنها توقيفية من عند الله سبحانه وتعالى وليست اجتهاد بشر أو عالم أراد أن يواجه مشاكل عصره ويخدم دينة بلغة زمانه وإلا فماذا نقول عن المسلمين جميعا قبل هذه التقسيمات التى ذكرها الإمام ابن تيمية ليعالج بها فكراً ظهر فى زمانه والتى لم يعرفها المسلمون على هذه الصورة؟ .

ورضوان الله على الإمام الشافعى حين قال: وقد تكلم فى العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة إن شاء الله [١].

فما هى قضية الأسماء والصفات التى أثيرت؟

يقول ابن القيم: التوحيد نوعان:

توحيد فى المعرفة والإثبات: وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات بمعنى أن يعتقد المؤمن إثبات ذات الله وصفاته وأفعاله فهو سبحانه الأول والآخر والظاهر والباطن، والخالق إلى آخر ما يجب أن يتصف به من أسماء، وهذا لم يكن مثار جدل بين المسلمين والمشركين ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .

توحيد فى العبادة والقصد: وهو توحيد الألوهية والعبادة أى لا يعبد إلا الله ولا يقصد إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يعادى إلا فيه ولا يعمل إلا ابتغاء وجهه، وهذا الذى بسببه سمى الكفار مشركين وهذا وقع فيه كثير من المسلمين بقصد وبغير قصد. ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ..﴾ .

أسماء الله: وجميع أسماء الله تعالى تعتبر صفات لله تعالى إلا اسما واحدا فقط هو« الله» فإنه علم على الذات وليس صفة، ويقول جمهور الفقهاء إن أسماء الله توقيفية، يقول أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسما ـ مائة إلا واحداً ـ من أحصاها دخل الجنة»[٢] وفى رواية البخارى ومسلم لا يحفظها واحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر.

---

(١) الرسالة للإمام الشافعى.

(٢) الترمذى وابن ماجة.

ولقد تعلم الصحابة صفات الله من كتاب ربهم كما وصف الله نفسه وكما وصفه رسول الله ﷺ دون تقعر ولا تنطع ولا جدال وما أثاروا قضية وما تكلم أحد منهم حول الأسماء والصفات بل فهموها كما نزلت.

يقول المقريزى فى خططه: إعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمداً ﷺ رسولا إلى الناس جميعا وصف لهم ربَّهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز، فلم يسأله ﷺ من العرب قرويهم وبدويهم عن معنى شئ من ذلك كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة والزكاة والحج، وغيـر ذلك مما لله سبحانه وتعالى فيه أمر ونهى، وكما سألوه عن أحوال يوم القيامة والجنة والنار إذ لو سأله إنسان منهم عن شئ من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ فى أحكام الحلال والحرام وفى الترغيب والترهيب الخ، ومَنْ أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يُرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة ﷺ على اختلاف طبقاتهم وكثـرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شئ مما وصف الرب سبحانه وتعالى نفسه الكريمة فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا على الكلام فى الصفات، نعم ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أوصفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة وساقوا الكلام سوقا واحدا)[٢] فهذا حال أصحاب رسول الله ﷺ، أما غير هؤلاء من الذين لم يتربوا فى مدرسة النبوة ولم يلتزموا منهج القرآن فإنهم أثاروا قضايا تتصل بالعقيدة وفروعها وأصولها كالقدرية الذين قالوا ـ بإنكار قدرة الله والمغالاة فى إثبات قدرة الإنسان باعتباره حر الإرادة كما قالوا بخلق القرآن.

والجبرية: (أو الجهمية أو المعطلة) الذين اعتبروا الإنسان مجبورا كالريشة: فى الهواء، فنفوا صفات الرب حتى لا يشبه المخلوق، وقالوا بفناء الجنة والنار بعد نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار كما قالوا بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله فى الآخرة.

والمعتزلة: الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين وأن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرة أودعها الله فيه، ونفوا أيضا صفات الله القديمة وقالوا بخلق القرآن.

الأشاعرة: زعيمهم أبو الحسن الأشعرى تخرج على المعتزلة فى علم الكلام وتتلمذ على شيخهم فى عصره أبى على الجبائى وابتعد عن المعتزلة فى تفكيرهم.

---

(١) المذاهب الإسلامية للشيخ أبى زهرة جـ ١ ص ١٠٩.

وأثبت الصفات وقرر أنها صفات تليق بذات الله ولا تشبه صفات المخلوق فسمع الله تعالى ليس كسمع الحوادث وكذلك بصّره وكلامه. .الخ.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة[1] : قال فى قول الله ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يده يد تليق بذاته الكريمة وليست يد جارحة كأيدينا بل يده يد صـفة كالسمع والبصر وهذا ما ذكره فى كتاب الإبانة، ولكن يظهر أنـه رجع عن هذا الرأى وأوَّل الصفات فى كتاب اللمع إذ أوَّل اليد بالقدرة.

يقول فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى بأنه يحتمل أن يكون الأشعرى قد رجع عن التأويل إلى منهج أهل السنة فى آخـر زمانه وهذا هو الراجح عنده ـ وإن كان رأيه الأول تأويل له وجه فى اللغة تحتمله ورأى السلف أولى بالاتباع.

ويقول فضيلة الشيخ أحمد بن حجر قاضى المحكمة الشرعية الأولى بدولة قطر: قال الإمام الأشعرى فى كتابه «**الإبانة**» وكتاب «**مقالات الإسلاميين**» صرح رحمه الله بإثبات جميع الصفات الواردة فى القرآن والحديث كالاستواء والوجه واليد والنزول إلى غير ذلك فمـا عذر هؤلاء المنتسبين إلى أبى الحسن الأشعـرى رحمه الله زاعمين أنهم أشعريون وعقيدتهم فى هذه الصفات كعقـيدة المعتزلة والجهمية، ولا شك أن إنتسابهم إلى أبى الحسن الأشـعرى رحمه الله فى هذه الصـفات غير صـحيح ولا أدرى بماذا يعتذرون إلا أن ينكروا كتاب الإبانه، وكتاب مقالات الإسلاميين فإن إنكارهم لا يجدى لأن المؤرخين ذكروا هذين الكتابين فى ترجمـته وأثبتهما الإمام ابن عسـاكر فى كتابه «**تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الأشعرى**» وكذا ذكر السبكى فى الطبقات أن عقيدة الإمام نحو ما ذكرت[2].

وقد تعصب كثير من الأئمة لـمذهب الأشعرى منهم أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ والإمام الغزالى، والبيضاوى المتوفى سـنة ٧٠١هـ وكان مناظر مجيدا، وإماما متعبدا، وفقيها مدققـا وله فى علم العقائد كتاب الطوالع، وكذلك الشريف الجرجانى وكان فقيها حنفيا وغيره كثير[3].

الماتريدية: إمامها هو محمد بن محمد بن محمود المعروف بأبى منصور الماتريدى، ولد بماتريد بسمرقند فيما وراء النهر توفى سنة ٣٣٣هـ.

(١) المذاهب الإسلامية لأبى زهرة ص ١٨٧.

(٢) تحذير المسلمين من الابتداع والبدع فى الدين ص ١٠٨ للشيخ ابن حجر آل بوطامى.

(٣) المذاهب الإسلامية لأبى زهرة جـ ١ ص ١٨٨.

قرر العلماء أن ما وصل إليه يتفق مع ما رواه الإمام أبو حنيفة فهم يعتبرون معرفة الله مدركة الوجوب بالعقل بعكس الأشاعرة الذين يعتبرونها واجبة بالشرع، وهم يعتبرون للأشياء حسنا ذاتيا يدركه العقل، فالعقل عندهم يستقل بمعرفة الله ولكنه لا يستقل بمعرفة الأحكام التكليفية وهذا رأى أبى حنيفة ﷺ. وهم يؤولون الصفات. وهذه هى أهم الفرق الإسلامية وآراؤها - باختصار شديد - فى قضايا العقيدة، فما هو رأى السلف؟

رأى ابن تيمية:[1] يقول إن طرائق العلماء فى فهم العقائد الإسلامية أربعة أقسام:

القسم الأول :الفلاسفة وهؤلاء يقولون القرآن جاء بالطريقة الخطابية، والمقدمات الإقناعية التى تقنع الجمهور ويدعون أنهم هم أهل البرهان واليقين، لأن العقائد طريقها البرهان واليقين.

القسم الثانى : المتكلمون[المعتزلة] وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر فى الآيات القرآنية فهم يأخذون بالنوعين من الاستدلال - العقل والنقل - ولكن يقدمون النظر العقلى على الدليل القرآنى، فيؤولون على مقتضى العقل وإن كانوا لا يخرجون عن عقائد القرآن.

القسم الثالث : طائفة من العلماء - الماتريدية - تنظر إلى ما فى القرآن من عقائد للعقل فتؤمن به، فتأخذه لا على أنه أدلة هادية مرشدة موجهة للعقل ليلتمس المقدمات من بينها بل على أنها آيات إخبارية يجب الإيمان بما اشتملت عليه من غير أن يتخذ مضمونها مقدمة للاستنباط العقلى فهم يستعينون بالعقل ليبرهنوا على عقائد القرآن.

القسم الرابع: وهو قسم يؤمن بالقرآن - عقائده وأدلته - ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية وهم الأشاعرة.

ثم يقول ابن تيمية: ومنهج السلف ليس واحدا من هذه الأربعة بل هو غيرهم؛ لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص.

فأهل السلف يثبتون ما جاء فى القرآن والسنة عن أوصافه سبحانه أو شئونه فيثبتون له المحبة، والغضب، والسخط والرضا، والنداء والكلام والنزول إلى الناس فى ظلل من الغمام، ويثبتون الاستواء على العرش والوجه واليد من غير تأويل ولا تفسير بغير الظاهر؛ لأن هذه الصفات ليست كشأن الحوادث.

فالصواب فى هذا هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث.

---

(١) المذاهب الإسلامية لأبى زهرة جـ ١ ص ٢١٠٢.

وقال: إن مـذهب السلف بين التعطيل والتمـثيل فلا يمثلون صفـات الله تعالى بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذوات خـلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فيعطلون أسماءه الحسنى وصـفاته العليا ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته.

ولقد سبق ابن تيمية في هذا الرأي طائفة من الحنابلة، منهم أبو يعلى الحنبلي سنة ٤٠٥هـ وابن الزاغوني سنة ٥٢٧هـ. والجدير بالذكر أن طائفة أخرى من الحنابلة خالفوا هذا الرأي وقالوا: إنه يؤدي إلى التشبيه والجسمـية لا محالة، وكيف لا يؤدي إليهما والإشارة الحسية إليه جائزة ومن هؤلاء:

ابن الجوزي الفقـيه الحنبلي الذي تصدى لهـذا الرأي، وقال: هذا ليس بمذهب السلف بل نفى أن يكون هذا رأي الإمام أحمد بن حنبل وقال بالتأويل، وقالت طائفة من الحنابلة في أبي القاضي الحنبلي: «لقد شان أبو يعلى الحنابلة شيـئا لا يغسله ماء البحر» وكذلك قالوا في ابن الزاغوني «إن في قوله من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه».

وقد استنكر الحنابلة هذا الاتجاه عندما شاع في القـرن الرابع والخامس حتى استتر هذا المذهب إلى أن أعلنه الإمام ابن تيمية مرة أخرى[(١)].

المسلك القويم: والمسلك القويم كما قال الإمام الشوكاني أن تجعل عمدتك في هذه القضية هاتين الآيتين:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾. ففيهما الإثبات والنفي إثبات صفات الباري، ونفي المـماثلة للحوادث، ثم تقييد هذا الإثبات بظاهر ما صرحت به الآيات وأجملته والزجر عن الخوض في كيفية هذه الصفات، فإن الله سبحانه قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علما، فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا، فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة، وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[(٢)].

ولذلك لما سئل ابن الصلاح عن رجلين تشـاجرا في قوله ينزل ربكم في كل ليلة إلى سماء الدنيا(الحديث) فقال أحـدهما للآخر الحديث يتأول، وقال الآخر: بل هو كما جاء ليس فيه تأويل بل ينزل وكذا في جميع الصفات والآيات والأخبار وكل واحد يدعى الصحة في قوله.

---

(١) المذاهب الإسلامية لأبي زهرة جـ ١ ص ٢١٩.

(٢) التحف في مذهب السلف للإمام الشوكاني ص ٥٣.

أجاب ﷺ: الذى عليه الصالحون من السـلف والخلف ﷺ الاقتصار فى ذلك جميعا على الإيمـان الحق بها والإعراض عن الخوض فى معانيها مع اعـتقاد التقديس المطلق وإنه ليس معناها ما فهم من مثلها فى حق المخلوق والله أعلم[1].

الإمام البنا: عد إلى رسالة العقائد فستـجد نفس المعانى التى أثبتها علماء السلف والتى ذكرناها هى نفسها التى ذكرها الإمام البـنا فى رسالة العقائد فبعد أن تكلم عن صفات الله فى القرآن من حيث الوجود، والبقاء، والـقيام بنفسه والوحدانية، والقدرة والإرادة، والعلم والحياة، والسمع والبصر والكلام.

قال رحمه الله: وصفات الله تبارك وتعالى كثيرة وكمالاته تبارك وتعالى لا تتناهى ولا تدرك عقول البشر كنهها، سبحانه لا نحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه[٣].

ثم قسم الناس فى هذه القضية إلى أربعة فرق وتكلم عن كل واحدة بما يوافق كلام السلف ثم عقد مقارنة بين السلف والخلف وقال:

ترجيح مذهب السلف: «ونحن نعتقد أن رأى السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعانى إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع حـسماً لمادة التأويل والتعطيل، فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان، وأثلج صدره ببرد اليقين فلا تعدل به بديلا، ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق ولا تستدعى هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديما وحديثا، وصدر الإسلام أوسع من هذا كله.

فهل هذا الكلام فيه خروج على رأى السلف؟

نحن نجمل لك: رأى السلف والخلف فى سطور قليلة لتتضح لك المقارنة.

السلف يقول:

١ـ نؤمن بما ثبت من الصفات { اليد ـ العين ـ الاسـتواء إلخ} كما هى لأن القرآن والسنة قد ذكروا ذلك.

٢ـ ونحن نفهم من هذه الصفات معنى ذهنيا مطلقا هذا المعنى عند إضافته للخالق سبحانه وتعالى يختلف تماما عنه إذا أضـيف للمخلوق ولا يشبهه ، فهو فى حق الله كامل بما يليق بجلاله، وفى حق المخلوق ناقص.

---

(١) فتاوى ابن الصلاح والشافعى المتوفى سنة ٦٤٣هـ.

(٢) رسالة العقائد ص ٤٣٨ من مجموعة الرسائل للإمام حسن البنا .

٣ـ لا يعرف حقيقة هذه المعانى وكنهها إلا الله، فنحن نفوض إليه سبحانه وتعالى معرفة المراد بهذه الصفات من حيث معانيها اللائقة به كمالا وكنها.

الخلف يقول:

١ـ نؤمن بكل ما جاء فى القرآن والسنة مما يتعلق بصفات الله اليد ـ والعين والاستواء إلخ.

٢ـ نؤمن أن هذه الصفات ليس المقصود منها معانيها فى حق المخلوقين، فالله لا يشبهه شىء.

٣ـ نقطع بأن معانى هذه الصفات { اليد ـ العين ـ الاستواء إلخ} ليست على ظاهرها المراد فى حق المخلوقات.

وليس هناك ظاهر إلا المعروف فى حق المخلوق لذلك نحملها على ما تجيزه اللغة ولا يصطدم مع الشرع لنبتعد عن شبهة المماثلة التى تتبادر إلى الذهن لأن الذهن ألف إطلاق هذه الصفات على المعنى المضاف إلى المخلوق، فالمسافة كما ترى ليست بعيدة بين الاثنين وهذا ليس رأى الإمام البنا وحده ولكن معه من أئمة السلف الكثير.

واسمع ما قاله الإمام الشاطبى: يقول: «ومن أشد مسائل الخلاف ـ مثلاـ مسألة إثبات الصفات، حيث نفاها مَنْ نفاها، فإذا نظرنا إلى مقاصد الفريقين وجدنا كل واحد منهما حائما حول حمى التنزيه، ونفى النقائص، وسمات الحدوث، وهو مطلوب الأدلة، وإنما وقع اختلافهم فى الطريق، وذلك لا يخل بالقصد فى الطرفين معا، فالحاصل فى هذا الخلاف أشبه الواقع بينه وبين الواقع فى الفروع»[١] ،أى أنها من مسائل الخلاف حيث قال: ولا يوجب هذا الخلاف تكفير كل من أخطأ فيها إلا أن تقوم فيه شروط التكفير.

ويقول الإمام ابن تيمية: فأما سائر وجوه الاختلاف كاختلاف التنوع، والاختلاف الاعتبارى واللفظى، فأمره قريب، وهو كثير أو غالب على الخلاف فى المسائل الخبرية[٢] والمسائل الخبرية أى مسائل العقيدة الدقيقة أغلبه خلاف اعتبارى ولفظى.

ويقول الشيخ أبو زهرة: إن اختلاف العلماء فى هذه المعانى لا يقتضى أن يكفر فريق الآخر؛ لأنه اختلاف نظر لا اختلاف حقيقة.

فهل أصاب الإمام البنا فيما قال ووافق جماعة السلف أم خالفهم؟ وهل هذا الكلام الذى سمعته من الفقهاء والعلماء مطابق تماما لما قاله الإمام البنا أم لا؟

---

(١) الاعتصام للإمام الشاطبى جـ ص ١٨٧. .

(٢) الفتاوى جـ ٦ ص ٥٨.

ومع هذا يجب أن ننبه على أمرين:

١ـ أن الخلاف قريب بين السلف وهذه الطائفة التى أولت الصفات في دائرة اللغة والشرع ولا يصطدم.

٢ـ ونحذر من شبهتين: الأولى شبهة من ظن أن الثبات القصد منه مشابهة الحوادث. فيظن أن المقصود باليد كأيدينا ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ وانتهى الأمر بهم إلى التجسيد والتشبيه.

والشبهة الثانية: من ظن أن التأويل هو النفى، فنفى عن البارى سبحانه وتعالى السمع والبصر إلخ. فطريق أهل السنة والجماعة محصور بين من أثبت. بالشروط التى ذكرنا ـ وهم من قال عنهم الإمام البنا فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان.. وبين من أوّل بالشروط التى ذكرناها وهم من قال عنهم الإمام البنا أنهم لا يجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق.

بعد هذا الذى سقناه لك لنبين مطابقة ما قاله الإمام البنا مع ما قاله علماء السلف فى هذه القضية، إلا أن من الغريب حقا أن ترى بعض المسلمين يتركون كل ما قاله موضحاً رأيه ويتمسكون بكلمة قالها فى معرض كلامه فى هذه القضية حين قال «**ونحن نعتقد أن رأى السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعانى إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع**» فإذا بهم تارة يرمون الإمام البنا بالتفويض وأنه أشعرى علما بأنهم ينسون أن الأشعرى كان إمام أهل السنة والجماعة فى زمانه، وتارة يرمونه بأنه جهمى والجهمية من المبتدعة الذين نفوا الصفات تماما والإمام البنا منهم برىء.

فما هو التفويض؟ الذى اتهم به الإمام البنا؟

إن التفويض من الألفاظ المجملة التى تضم تحتها معان مختلفة، فهو ينقسم إلى نوعين:

أ ـ نوع محمود يجب أن نقول به ونعتقده.

ب ـ نوع مذموم يجب أن ننأى عنه.

فأما المذموم الذى يجب أن ننأى عنه هو أن يظن امرؤ أن ألفاظ هذه الآيات وأحاديثها ـ آيات الصفحات وأحاديثها ـ ليس لها معان، ولا يفهم منها شىء على أى وجه من الوجود فهى عنده بمثابة طسم، كهيعص إلخ، فالسلف كانوا يقرؤون آيات

الصفات وأحاديثها ويتدبرونها لأن الله قال: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: ٢٤] فالسلف كانوا يفهمون الآيات على معانيها ولكن ليست المعانى المرادفة للغة، فليس هذا هو المقصود بمنهج السلف؛ لأن الخلف يفهمون هذه المعانى إنما المعانى التى كان يفهمها السلف من الآيات والأحاديث هى المعانى الكلية العامة المطلقة المجردة فإذا أضيفت هذه المعانى المجردة المطلقة اختلفت دلالتها تماما فى حق الخالق عن دلالتها فى حق المخلوق فإذا تدبرت ذلك زال الإبهام.

أما النوع المحمود اعتقاده: هو تفويض حقيقة معناها عند إضافتها للمولى سبحانه وتعالى؛ لأننا لا ندرك كنه الذات، لذلك فلا يمكننا أن ندرك كنه الصفات فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

ولذلك يقول الإمام السيوطى السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد إلى الله تعالى ولا نفسرها.

وهذا ما قاله البنا «**والذى يجب أن يتفطن له المؤمن أن المعنى الذى يقصد باللفظ فى صفات الله تبارك وتعالى يختلف اختلافا كليا عن المعنى الذى يقصد بهذا اللفظ عينه فى صفات المخلوقين.. إلخ ثم يقول: فهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها فى حق الخلق من حيث الكمال والكيفية اختلافا كليا لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحدا من خلقه فتفطن لهذا المعنى فإنه دقيق**»(١).

فماذا فى هذا حين يفوض حقيقة المعنى المتعلق بذات الله وعدم إدراك مدلولات الألفاظ من حيث الكمال والكيفية فهل يدعى أحد معرفة حقائق ما يتعلق بذات الله والإحاطة بذلك؟ أم يفوضها لله تعالى؟ وهذا ما قال به الإمام البنا رحمه الله وهو نفس ما قاله الإمام مالك: أن الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وقال به الإمام السيوطى: «ومن المتشابه آيات الصفات نحو» **الرحمن على العرش استوى** و «**يد الله فوق أيديهم**» وجمهور أهل السنة ومنهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد إلى الله تعالى ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها»(٢).

فالمنهى عنه كما قال نعيم بن حماد والخزاعى شيخ البخارى هو أن ننكر ما وصف الله به نفسه فهذا كفر، أو أن نشبه الله بخلقه فهذا كفر، إنما نثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه من الصفات ولكن معانى هذه الصفات يفهمها الناس كل على قدر فهمه كما قال

---

(١) رسالة العقائد ص ٣١٦ من مجموعة الرسائل.

(٢) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ص ١٤٧.

الإمام ابن تيمية فيفرقون بين السمع والبصر، أما كيفية هذه الصفات فلا يعلمها إلا الله تعالى فهل قال الإمام البنا بغير ذلك؟.

إن هذه الاتهامات ليست جديدة على علماء الأمة، فالمعتزلة أنفسهم يتهمون مَنْ لا يقول بتخليد مرتكب الكبيرة بأنه من المرجئة ونحن فى نظرهم كذلك، وقد أطلق على أبى حنيفة وتلاميذه أبى يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم اسم المرجئة، وكذلك قيل عن سعيد بن جبير، ومقاتل بن سليمان وحماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة وغيرهم فكيف لا يُتهم الإمام البنا؟ فهو ليس بدعا من العلماء ولو سرنا على منهج هؤلاء الذين يتهمون الإمام البنا لقلنا أن ابن القيم من الجهمية لأنه قال كما قالوا بفناء الجنة والنار إن أحدا لم يُبدِّعه لأن ليس هذا بمنهج علمى، لأنه لا ينظر إلى جميع آراء ابن القيم كلها ويحكم عليها وإنما حكم بمجرد معنى واحد ساقه وهذا الأسلوب يفرق ولا يجمع، يبغض ولا يحبب، يمزق ولا يؤلف.

للعقيدة أصول وفروع:

والذى يجب أن ننبه إليه ونؤكد عليه أن للعقيدة أصولا وفروعا، والخلاف فى فروع العقيدة فيه نظر ولا إنكار فيه طالما أنه يحتمل وجوها، فهذه أم المؤمنين عائشة ﵂ خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة فى أن محمدا ﷺ رأى ربه وقالت: من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، بينما جمهور العلماء على رأى ابن عباس ولا يبدّعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين ﵂.

كما أنكرت أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحى لما قيل أن النبى ﷺ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» فقال: إنما قال: إنهم ليعلمون الآن أن ما قلت لهم الحق. بالرغم من أن الموتى يسمعون خفق النعال كما ثبت عن رسول الله ﷺ «ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام» إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة ومع هذا فقد تأولت أم المؤمنين رضى الله عنها»[1]. فهل نسوى بين أصول العقيد وفروعها؟

وعلى هذا فأهل السنة كما رأيت ـ وسط بين الفرق فى الأسماء والصفات فهم بين من عطّل ومَنْ شبّه فهم ينزهون بلا تعطيل ويثبتون بلا كيف، وهم وسط بين القدرية والجبرية فأثبتوا للإنسان مشيئة وإرادة وقالوا أفعال العبد من الله خلقا وتقديرا وإيجادا ومن العبد فعلا وكسبا ومباشرة.

وهم وسط بين من كفر مرتكب الكبيرة وبين المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع

(١) الإمام مسلم ٨/٢٦٣، والإمام أحمد ٢/٢١٩.

الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة، فلا يقـولون بتخليد مرتكب الكبيرة ويقولون «أهل الكبائر تحت المشيئة إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» فما دون الشرك الأكبر تحت المشيئة فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أى ليس مؤمنا كاملا.

ووسط فى نظرهم للصحـابة رضوان الله عليهم بين من فسقـهم وكفرهم ومَنْ عصمهم وعظمهم تقديسا، فهم يحترمونهم ويجلونهم ويحبونهم ويثنون عليهم ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ...﴾ وأمسكوا عن الخوض فى خلافهم، فالواجب اتباعهم فنتكلم فيما تكلموا فيه ونسكت عما سكتوا عنه ويسعنا ما وسعهم.

فهل نأخذ بهذا المنهج جميـعا ونتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعـضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ونضع ما أمرنا الرسول به موضع التنفيذ: «وكونوا عباد الله إخوانا» حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

يروى لنا البخارى عن زينب بنت جحش أنها قالت: استيقظ النبى ﷺ محمرا وجهه يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب (الحديث) يقول الشيخ أبو زهرة يشير ﷺ إلى ما سيجرى بين المسلمين من خلاف من بعده.

وعن كرز بن علقمة الخُزاعى ؓ قال قال: أعرابى يا رسول الله هل للإسلام من منتهى قال: نعم أيما أهل بيت من العرب أو العـجم أراد الله عز وجل بهم خيرا أدخل عليهـم الإسلام قـال: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: ثم تقع فتن كـأنها الظلل[1]، قال الأعرابى: كلا - وفى رواية كلا والله إن شاء الله - قال النبى ﷺ: بلى والذى نفسى بيده لتَعُودنّ فيها أساود[2]، صبا[3] يضرب بعضكم رقاب بعض - وفيه وزاد قال رسول الله ﷺ: وأفضل الناس يومئذ مؤمن معتـزل فى شعب من الشعاب يتقى ربه تبارك وتعالى ويدع الناس من شره[4].

فرضوان الله عليك يا إمـام يا بنا وأنت تقول: إلى متى تتقـارض أمتنا التهم، وتتبـادل الظنون، وتتنابز بالألقاب، وتترك يقـينا يؤيده الواقع فى سبيل ظن توحـيه الشكوك؟ فاللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن واجعل أعمالنا خالصة لوجهك ليس لأحد فيها شىء.

---

(١) الظلل أى كل ما أظل أراد وكأنها الجبال أو السحب.

(٢) جمع أسود وهو أخبث الحيات وأعظمها.

(٣) صبا جمع أسود وهى أن الأسود إذا أراد أن ينهش فريسته ارتفع ثم انصب على الملدوغ يريد أن يفتك به ويريد أن يفتك بعضكم بعضا وهكذا دون رحمة ولا شفقة وذلك لضعف الإيمان.

(٤) الفتح الربانى جـ١ ص ١١٦.

البدعة الضلالة التي يجب محاربتها

الأصل الحادي عشر

وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها - استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها.

* * *

البدعة الضلالة التى يجب محاربتها

الأصل الحادى عشر

«وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها ـ استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ـ ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها».

هذا الأصل يعالج :

١ ـ البدعة الحقيقية وماهيتها.

٢ ـ محاربتها بأفضل الوسائل.

جاء الرسول ﷺ برسالة سمحة تتسع لكل مطالب الناس وتفى بكل مستلزمات الحياة ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾.

هذه الرسالة فصلت ما لا يتغير من الشئون الدينية. وأجملت ما يتغير مما يتعلق بتنظيم الدنيا، واستغلال خيرات الكون لتتيح للمسلم سبل التقدم المادى والرقى والتطور الحضارى، والوصول فى مجال العمل والإبداع والإنشاء والاختراع إلى أقصى غاية لتكون الأمة الإسلامية كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس.

وعلى هذا فإن الأمور التى أمر فيها الرسول ﷺ بأمر أو نهى عن شىء مطلوب فيها الطاعة بالالتزام بفعل المأمور وترك المحظور ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

والمسلم وقّاف عندها لا يتخطاها بحال من الأحوال؛ لأن كل ما خالف سنة رسول الله ﷺ بدعة لا يرضاها الله ورسوله؛ ذلك **لأن حقيقة الدين تتمثل فى أمرين:**

أولا: ألا يعبد إلا الله.

ثانيا: ألا يعبد إلا بما شرع.

فمن ابتدع فى ذلك شيئا فهى ضلالة ترد عليه؛ لأن الشارع وحده هو صاحب هذا الحق ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ...﴾[الأحزاب:٣٦] هذا فى العبادات.

وأمـا العادات أو المعـاملات فليـس الشارع الحكيم منشـأ لهـا بل الناس هـم الذين أنشأوها وتعاملوا بها والشـارع جاء إما مصححا لها أو معـدلا ومهذبا أو مقرا فى بعض الأحيان ما خلا عن الفساد والضرر منها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان:

١ ـ عبادات يصلح بها دينهم.

٢ ـ وعادات يحتاجون إليها فى دنياهم.

وباستقراء أمور الشريعة نعلم أن العبـادات التى أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع.

وأما العادات فهى ما اعتاده الناس في دنيـاهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا مـا حظره الله سبحانه وتعالى؛ وذلـك لأن الأمر والنهى هما شرع الله، والعبـادة لابد أن تكون مأمورا بها، فـما لم يثبت أنه مأمـور به كيف يحكم عليه بأنه محظور؟

قاعدة نفـسية: يقول الإمام أحـمد وفقهاء أهل الحـديث: إن الأصل فى العبادات **التوقيف** فلا يشـرع فيها إلا مـا شرعه الله وإلا دخلنا فى معنى قـوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**﴾. [الشورى: ٢].

والعادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر فيها إلا ما حرمه الله وإلا دخلنا فى معنى قوله: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالًا**﴾. [يونس: ٥٩].

ومن هذا قول جابر بن عبدالله ﷺ فى الحديث الصحيح «**كنا نعزل والقرآن ينزل، فلو كان شىء ينهى عنه لنهى عنه القرآن**» فَهُمْ فى حلٍ لأفعالهم حتى يبين القرآن.

فالأصل فى الأشياء الإباحة فلا حرام إلا ما ورد به نص صريح صحيح من الشارع بتحريمه وإلا بقى الأمر على أصل الإباحة والحل ـ كما ذكرنا فى الأصل الخامس.

وهنا يعنّ لنا سؤال ما هى البدعة إذن؟

لقد تكلمنا عن السنة عند الحديث عن الأصل الثانى فيرجع إليه.

أما البدعـة: لغة هى الاختراع على غير مـثال سابق قال تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ وقال: ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ** ﴾.

أما تعريفها شرعا فهى ما أحدث بعد الرسالة على سبيل التقرب إلى الله، ولم يكن قد فعلها الرسول ﷺ ولا أمر بها ولا أقرها ولا فعلتها الصحابة.

التحذير من البدع: الآيات كثيرة وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ فى التحذير من الابتداع فى الدين ومخالفة شرع الله مثل قوله: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾ [النور ٥٤]، ومثل قوله ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور:٦٣].

وما روته السيدة عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ: «مَنْ عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[(١)] وفى لفظ آخر من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد.

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى فإنه مَنْ يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[(٢)].

وقال ﷺ: ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبىٍّ مجاب، الزائد فى كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمتسلط بالجبروت فيعز بذلك من أذل وذل مَنْ أعز الله، والمستحل لحُرَم الله، والمستحل من عترتى ما حرم الله، والتارك لسنتى»[(٣)].

وعن ابن مسعود: «الاقتصاد فى السنة أحسن من الاجتهاد فى البدعة»[(٤)].

بغض الصحابة للبدعة:

قال أبو بكر: «إنما أنا مثلكم، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله ﷺ يطيقه، إن الله اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست مبتدعا فإن استقمت فبايعونى، وإن زغت فقومونى»[(٥)].

وقال ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم[(٦)].

---

(١) رواه مسلم وهو رد أى مردود على صاحبه.
(٢) رواه أبو داود وغيره.
(٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه.
(٤) رواه الحاكم موقوفا وقال إسناده صحيح على شرطهما.
(٥) تحذير المسلمين من الابتداع والبدع فى الدين لابن حجر.
(٦) المرجع السابق.

وقال ابن عباس: لمن سأله الوصية: «عليك بتقوى الله والاستقامة، واتبع ولا تبتدع»[1].

وعن حذيفة: قال كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالا[2].

شروط البدعة: والبدعة التى يجب محاربتها لابد أن يتحقق فيها:

أ ـ أن تكون من الأمور التى يفعلها العباد على أنها من العبادات.

ب ـ يتقربون بها إلى الله تعالى.

جـ ـ لم يجئ بها أصل فى الدين.

ذلك لأنه ليس ما يقال عنه أنه بدعة بإطلاق يجب أن يحارب ـ وسنوضح ذلك تفصيلا بمشيئة الله ـ لأنه يجرى على ألسنة كثير من الناس كلمة «بدعة وابتداع» فيتسع معناهما تارة حتى **لا يخرج عن دائرتها شيء**، ويضيق تارة حتى لا يتناول شيئا، والحق يقال أن المولى سبحانه وتعالى كلف عباده عقائد تتصل به سبحانه وبرسالاته وكتبه واليوم والآخر.

وكلفهم عبادات هى غذاء لهذا الإيمان وعلامة الصدق فيه، وحرم عليهم أشياء صونا لحياتهم وحفظا لعقولهم وأعراضهم وأخلاقهم، وقد فصل لهم فى كتبه ورسالاته كما كلفهم إياه وما حرمه عليهم ومجموع ما فصل لهم وبيّن هو الدين الذى تعبدهم به ولا يقبل منهم سواه.

وعلى العبد أن يقف عند حد **العقيدة والعبادة والحل والحرمة** عند حد ما شرع الله وبيّن، والتصرف فى شيء منه هو الانحراف عن دين الله وهو الابتداع فيه.

فالابتداع فى الدين فى عقيدته أو عبادته أو ما حل وحرم ـ ولذلك قال الإمام البنا وكل بدعة فى الدين لا أصل لها . . أما ما لم يتعبدنا الله بشيء منه فليس من هذا الباب فى شيء، والتصرف فيه بالتنظيم والتغيير لا يكون من الابتداع الذى يؤثر على تدين الإنسان وعلاقته بربه.

بل إن الابتداع فى مقتضيات الحياة هو من التطور المطلوب كى نلبى حاجة العصر الذى نعيشه حتى لا نتخلف عن الركب ولا نكون فى عزلة عن الدنيا ولا يُسمع للمسلمين فيها صوت ولا يعرف لهم فيها وجود.

---

(١) الدارمى فى سننه. (٢) أبو داود.

فالمولى ما تعبدنا بمنهج خاص للأرض الزراعيـة وأنواعها وطرقها ـ مثلا ـ بل أطلق للعقل الإنسـانى حريته ولم يأمره إلا بالـبحث والنظر والكد والعمل بقصـد الإصلاح: والله يعلم المفسد من المصلح» وقـد كان ما أخذ الله به الأمم السابقة وقبّـحه منهم ونعاه عليهم خـاصا بالابتداع فى العـقائد والعـبادات والحر والحرمـة، ولـم يكن شيء منه مما يتصل بزينة الحياة الدنيا التى أخرج لعباده أو بنموها وتقدمها فلم ينكر سبحانه مثلا على سبأ أن تكون لهم جنتان عن يمين وشـمال، ولم ينكر على قارون أن كان له من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصـبة أولى القوة، وامتنّ على داود عليه السلام بإلانة الحديد له، ورضى عن دعوة سليـمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [سورة ص: ٣٥] فيسـخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيـث أصاب ويسيل له عين القطر، ويسخـر له الجن يعملون له من محـاريب وتماثيل وجفـان كالجواب وقدور راسـيات ثم يطمْعه فى المزيد ويـغريه بالعمل. ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: ١٣].

فالإنكار إذن على الذين بدلوا عقائدهم الصحيحة وغيروا فى رسوم العبادة وكيفيتها فكانت صـلاتهم عند البيت مكاءً وتصـديه، وطافوا به عـرايا، وحرمـوا ما أحل الله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وعلى هذا فإن الابتداع فى الدين هو:

١ ـ الذي يخرج به المؤمن عن دائرة الرسالة الإلـهية.

٢ ـ الذى يغتصب به المبتدع حق الله فى تشريع هو له وحده.

٣ ـ والذى به يضع المبتدع نفسه موضع من يرى أن العبادات أو العقائد التى رسمها الله ليتقرب بها العباد إليه ناقصة أو فاسدة فأكملها أو أصلحها بابتداعه.

٤ ـ أو موضع من يرى أن الرسول الذى اصطفاه الله لتبليغ دينه قـد قصّر فيما أمر بتبليغه، وحجز عن عباد الله بعض ما يقربهم إليه.

ولقد كـان هذا الابتداع هـو السبب الوحـيد في اندراس العـقائد والعـبادات وفى التحلل من قـيود الحل والحرمـة، وانتزاع التدين من القلوب، وبذلك انـقطعت صلتهم بالخالق، وصار أساس التعامل بينهم القوة الغاشمة والطغيان المزرى بالإنسانية وعلى هذا فإن الابتداع يكون من الهوى والظن»[1] «**إن يتبـعون إلا الظن وما تهـوى الأنفس ولقد جاءهـم من ربهم الهدى**».

(١) الفتاوى للشيخ شلتوت ص ١٨٠ بتصرف.

فهم يجب أن يسود: بهذا الفهم المحدد للبدعة فى الدين فإن الأمور الخلافية والأحكام الظنية التى يختلف فيها العلماء ليست من البدع ولا من الهوى والظن فليس كل من خالف أخاه فى رأى ـ كما سنرى بالنسبة للبدعة التركية والإضافية ـ أو أخذ برأى فقيه يصير مبتدعا وإنما هو مقلد وبذلك تخرج دائرة الخلاف الفقهى من الابتداع.

وكذلك فإن على المسلم أن يفكر فيما يلائم عصره من طرق التثقيف وخطط التعليم بما يوسع مدارك أبناء الشعب، ويصل بهم إلى الثقافة النافعة من أقرب الطرق وأيسرها، وليس له أن يجمد على ما ورث من.ذلك من آبائه وأجداده ويقف مكتوف اليدين دون أن يسلك طريق الاختراع والابتداع فيما يحقق له العزة والمجد من وسائل الحياة ما دام لم يخرج عن دائرة ما أبيح التصرف فيه إلى دائرة المنهى عنه وليعلم المسلم أن كل ما يحدث فى هذا الجانب من المخترعات التى لم يسبق بها يكون محفوظا له فى تاريخ العاملين على ترقية شعوبهم يكون له فى الوقت نفسه الثواب عند الله بقدر ما ينتفع العباد بمخترعاته وإنتاجه، وليس لنا أن نقول عن شيء يقع فى هذه الدائرة أنه لم يفعله الرسول ﷺ ولا أحد من خلفائه فلا نفعله، ذلك لأنهم لم يفعلوه لأن زمنهم لم يطلبه ولم تخلق لديهم بواعث عمله أو التفكير فيه، ومحال على الرسول ﷺ وخلفائه أن يعترض تقدمهم فى الحياة شيء لا يمس عمله عقيدة أو عبادة ولديهم وسائل القدرة عليه ثم لا يعملوه بحجة أن الله لم يأذن لهم فيه فهو من باب « أنتم أعلم بأمور دنياكم».

وقد وافق الرسول ﷺ سلمان الفارسى فى حفر الخندق حول المدينة واشترك فى حفره، وما مشروعات عمر بن الخطاب فى تنظيم الدولة وإنقاذ الجيوش وترتيب الخراج وحبس ما أفاء الله على المؤمنين وتعيين الولاة وتغييرهم إلا أثرا من آثار هذا الإطلاق الذي كانوا يؤمنون أن الله تركهم عليه يبحثون ما يحتاجون إليه من الشئون الزمنية فتقدموا ودانت لهم الدنيا وأيقظوا الانسانية من نومها فثبتت أقدامهم ودانت لهم قوى الفساد فى الأرض.

إن الناس فى زماننا هذا ترى على ألسنتهم كلمة بدعة فى كل شيء عرفوه وحرموا باسمها كثيرا من العادات الطيبة ووسائل الحياة السهلة، ولقد عرفنا من تاريخ الأديان أن **التحريف الابتداعى قد أصابها من جهات ثلاث:**

١ ـ من جهة العقيدة ومنها دخل الشرك وعبادة غير الله ودعاؤه والاستعانة به واللجوء إليه.

٢ ـ من جهة العبادة ومنها دخل التغيير بالزيادة والنقص والتغيير فى الكيفية.

٣ ـ من جهة الحلال والحرام ومنها حرم الحلال واحتيل فحلل الحرام.

ولذلك فإن أشد ما نخشاه على شخصيتنا الإسلامية أن تسلك أمتنا بالأهواء أو التعصب مسلك السابقين فتطغى البدع على ديننا والانحراف على استقامتنا ونتشبه بهم فى أمورهم كلها ـ ونقصد بمشابهة المخالفين فى الدين فيما يقصد فيه التشبه فى خصائصهم الدينية ـ أما مجرد المشابهة فيما تجرى به العادات والأعراف العامة فإنه لا بأس بها طالما لا يوجد نص بتحريم أو كراهة فإن لم يوجد فلا كراهة ولا حرمة، فقد قيل لأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة وقد رُئى لابسا نعلين مخصوفيّن بمسامير إن فلانا وفلانا من العلماء كرها ذلك لأنه تشبه بالرهبان فقال: كان رسول الله ﷺ يلبس النهال التى لها شعر وإنها من لباس الرهبان[1].

اتفاق لا خلاف معه: وعلى هذا فإنه لا يوجد بين المسلمين من يختلف فى حكم البدعة فى الدين بهذا التحديد الذى رأيت ـ أى البدعة الأصلية ـ والتى حدثت أول محاولة لها مع هؤلاء الثلاثة رهط الذى جاء إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر لا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى أخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطرُ وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»[2].

وعن أبى سعيد قال: بينا النبى ﷺ يُقَسِّم جاء عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعنى أضرب عنقه، قال: دعه إن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[3].

ولقد حاول هذا المعترض أن يفتح باب الاعتراض على رسول الله ﷺ والخروج عن حد التسليم الكامل له وتمام الاتباع ولم يجد له أثرًا بين الصحابة فما بالك بالذين يعترضون على شرع الله كله !!!

---

(١) الفتاوى للمرحوم الشيخ محمد شلتوت ص ١٨٥ بتصرف.

(٢) رواه البخارى فى سنن أبى داود عنه ﷺ «فإياكم وما أبتُدع فإن ما ابتدع ضلالة».

(٣) رواه مسلم وابن ماجة بسند صحيح وأحمد والطبرانى.

إن الوحى كان يتنزل، والدين يتكون، ورءوس الضلال تخمد، وباءت كل المحاولات للانحراف بالدين أو التشكيك فيه بالفشل فهل هذه بدعة يختلف المسلمون فيها؟ كلا.

نشأة البدع فى عهد الصحابة: لقد حدث أول خلاف بين المسلمين بعد رسول الله ﷺ فيمن يكون الخليفة من بعده، وحسم الأمر فى سقيفة بنى ساعدة ومر أيضًا عهد عمر ولم تظهر البدع. ثم جاء عصر عثمان رضى الله عنهم أجمعين وحصل الخلاف فى أواخر عهده وجرى ما جرى وقتل عثمان مظلومًا، ثم بايع المسلمون الساكنون فى المدينة عليًا إلا طائفة، وبحرب الجمل وصفين ظهرت الخوارج والشيعة ثم المرجئة..

وفى أواخر عصر بنى أمية أظهر معبد الجهنى القول بالقدر، ثم جاء تلميذه جهم بن صفوان وضم إلى ذلك قوله ببدعة التعطيل وهى نفى أسماء الله وصفاته ثم جاء المعتزلة فى عصر المأمون بن هارون الرشيد فقويت شوكتهم وقد تأثروا بالفلسفة فكانت بدعة خلق القرآن التى امتحن فيها الإمام أحمد بن جنبل. هذا كله قديما واليوم ما أكثر بل وما أشد البدع فى زماننا هذا فهى لا تعد ولا تحصى وأشدها بدعة الحكم بغير ما أنزل الله والاحتفال بأعياد لها مناسبات دينية عند غير المسلمين والعادات الغربية التى تصطدم بشرعنا كالسفور، والنساء الكاسيات العاريات، والاختلاط بين الجنسين وغير ذلك من الأمور التى مسخت شخصيتنا حتى صدق فينا قول رسولنا «**لتركبن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى إذا دخلوا جحر ضب دخلتموه**». وصدق سفيان الثورى حين قال: لا يقبل قول إلا بعمل ولا يستقيم قول ولا عمل إلا بنية ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

والواجب: محاربة هذه البدع والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها - وقد بينا ذلك بتوفيق الله تفصيلا فى الأصل الرابع فلتعد إليه فإنه مفيد.

وعلى هذا نقول البدعة الأصلية هى التى فى دين الله ولا أصل لها، وهذه لا يختلف مسلم فى إنكارها ومحاربتها بالطرق الشرعية لكن البدعة عامة لها تقسيماتها وأحكامها التى تختلف باختلاف هذا التقسيم وهذا ما سنبينه بتوفيق الله فى الأصل الثانى عشر. وفقنى الله وإياك.

* * *

البدعة المختلف فى الحكم عليها

الأصل الثانى عشر

والبدعة الإضافية والتركية والالتزام فى العبادات المطلقة خلاف فقهى لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

* * *

البدع المختلف فى الحكم عليها

الأصل الثانى عشر

«والبدعة الإضافية والتركية والالتزام فى العبادات المطلقة خلاف فقهى لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان».

هذا الأصل يعالج:

١ - البدعة الإضافية.

٢ - البدعة التركية.

٣ - الالتزام فى العبادات المطلقة.

تبين لنا أن البدعة فى دين الله هى التى لا أصل لها، واستحسنها أناس بأهوائهم بالزيادة فيه أو النقص منه، وهذه البدعة يجب محاربتها بالطرق الشرعية، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء؛ لأنها عمل يخالف معلوما من الدين بالضرورة أو نص لا يحتمل اجتهاد أو إجماع.

والإمام البنا رحمه الله - خصص لها أصلا ليفرق بينها وبين البدعة الإضافية والتركية والالتزام فى العبادات المطلقة؛ ذلك لأن الأولى حقيقية تتصل إما بالعقيدة أو العبادة أو الحل أو الحرمة.

أما البدع الأخرى - التى أشار إليها هذا الأصل - فإنها مختلف فيها بين العلماء، فهى من مسائل الخلاف الفقهى هناك من العلماء من جوزها وهناك من منعها ولكل رأيه. فما حقيقة هذه البدع المختلف فيها؟

البدعة الإضافية: هى كل بدعة أصلها مشروع ولكن اختلفت الكيفية وهى لها شائبتان.

أحدهما: لها من الأدلة متعلق فلا تكون من تلك الجهة بدعة، أى لها أصل فى الدين مشروع.

الأخرى: ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية؛ ولذلك سميت بدعة إضافية لأنها بالنسبة إلى إحدى الجهتين سنّة لأنها مستندة إلى دليل، وبالنسبة للجهة الأخرى بدعة؛ لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل، أو غير مستندة إلى شىء ولذلك سميت إضافية؛ لأنها لم تتخلص لأحد الطرفين: المخالفة الصريحة أو الموافقة الصريحة.

مثال: الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الأذان مباشرة وبتغنٍ وتلحين فى الصوت كما يفعل بعض المسلمين، فهى من حيث الأصل مشروعة؛ لأن الرسول ﷺ ندبنا أن نصلى عليه بعد الأذان ولكن الكيفية هنا التى اختلفت، ولذلك كانت الصلاة على الرسول بهذه الكيفية بدعة إضافية.

مثال آخر: قراءة سورة الكهف فى بعض المساجد من قارئ معين بصوت مسموع وعلى كرسى والجميع ينصت له، فقراءة سورة الكهف مشروعة ولكن كيفيتها على هذه الصورة غير مشروعة فكانت بذلك بدعة إضافية.

المأثورات وورد الرابطة[1]: نستطيع أن نقول أنهما من البدع الإضافية المختلف فى حكمها؛ ذلك لأن الأدعية التى وردت فى المأثورات مشروعة ولكن قراءتها بهذا الترتيب الذى وضعه الإمام البنا غير مشروعة وليس له أصل فى الدين ولذلك كانت بدعة إضافية، ومن دقة الأستاذ البنا أنه قال فى ورد الرابطة بعد أن ذكر المأثور من الدعاء قال يدعو بمثل هذا الدعاء حتى لا يظن أحد أنه واجب.

يقول الدكتور القرضاوى: ولكى نتلافى هذا الخلاف - وإن كانت مسألة خلافية - يمكن قراءتها - أى المأثورات - بأن نقدم بعضها مرة ونؤخر بعضها مرة حتى لا يظن ما هو ليس بواجب واجب، فلقد كان أبو بكر وعمر لا يضحيان مخافة أن يرى ذلك الناس واجبا، وكان ابن عباس يشترى درهمين لحم ويقول هذه أضحية ابن عباس حتى لا يعتقد الناس وجوب الأضاحى. والأمثلة على ذلك كثيرة فكل بدعة لها أصل فى الدين مشروع ولكن اختلفت الكيفية فهى بدعة إضافية من مسائل الخلاف الفقهى.

وها هو ذا ابن عمر رضي الله عنه يسمى صلاة الضحى جماعة فى المسجد بدعة، واستحسنها، فعن مجاهد قال[2]: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد، فإذا عبد الله بن عمر جالس إلى حجرة عائشة والناس يصلون الضحى فى المسجد فسألناه عن صلاتهم فقال: بدعة وفى رواية - نعمت البدعة.

الالتزام فى العبادات المطلقة: وهى أن يلتزم المسلم بعبادة لها أصل مشروع ولكنه يحدد بها مكانا معينا أو زمانا محددا أو عددا بعينه مكررا ذلك مثل قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة بعد الفجر أو فى أى وقت معلوم، أو استمرارية قراءة الكهف كل يوم

---

(١) فى محاضرة مسجلة على كاسيت فى نفس الموضوع، والمأثورات: أدعية مأثورة عن الرسول ﷺ يدعو بها الأخ صباحًا ومساء، أو ورد الرابطة دعاء يردده الأخ المسلم حين الغروب.

(٢) رواه مسلم جـ٥ ص ٢٢٩، والبخارى جـ٤ ص ٣٤٩، وأحمد جـ٥ ص ١٣٤٠.

جمعة بطـريقة معينة، فإلزام المسلم نفســه بعبادة لها أصل فى الدين مشـروع واستمراره عليها تسمى التزام عبادة مطلقة وهى كالبدعة الإضافية سواء بسواء، اختلف العلماء فى الحكم عليها فهى من مسائل الخلاف الفقهى.

البدعة التركية: يقول الإمام الشاطبى الترك فعل من الأفعال الداخلة تحت الاختيار وعلى ذلك يكون طاعة ويكون معصية ما دام داخـلا تحت الاختيار، فإذا ما خرج الترك من حد الاختيار ولم يقصد الإنسان إليه فلا أثر له فى ثواب ولا فى عقاب.

والبدعــة كمــا تشمل الفعـل المخالف للسنة، تشـمل الترك المخالف للسـنة كذلك والمسلم إن عزم على ترك المباح من الطيـبات لغير سبب مقبـول كمرض يزيد بتناوله أو ضرر ينتج عنه، فإن كان تركه لذلك على وجه مـن التحريم بحيث لو رغب فيه لتناوله فلا شيء عليه؛ لأن المباح يستوى فيه الفعل والترك.

وإن حرّمـه على نفسه أو نذر ترك تناوله مطلقًـا أو لمدة محدودة فـهو مبتـدع بهذا التحريم وبهذا النذر.

ومن هذا المباح ترك المباح تقربا إلى الله - فى كثير من أنواع الزهد وبعض المتصوفة فلقد قُدّم لأحدهم تفاحة فرفض أن يأكلها فقيل له لم؟ قال: لا أستطيع أن أقدم شكرها كنعمة قال له الحـسن البصرى: وهل يستطيع الأحمق شكر نعـمة الماء البارد ومثل ذلك ترك الزواج وكقاعدة فإن البدعة التركيـة هى ترك الأشياء المشروعة بغية التقرب إلى الله تعالى، وعلى كل حال فهى من المسائل الخلافية بين العلماء.

نخلص من هذا أن العلمـاء اختلفوا فى حكم الـبدعة باخـتلاف مفـهومهـا، فمن العلماء مَنْ عمَّ البدعة فى كل حادث مذموما كان أو ممدوحا، فالبدعة عنده ليست على مرتبة واحدة بل تختلف فيما بينها من ناحية القبول والرد، فمنها ما هو واجب ومنها ما هو حرام. يقول ابن حزم البدعة فى الدين كل ما لم يأت فى القرآن ولا عن رسول الله ﷺ إلا أن منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد من الخير، ومنها ما يؤجر عليه صاحــبه ويكون حـسنا وهو ما كـان أصله الإباحة كـما روى عن عمـر رضى الله عنه «نعمت البدعــة هذه» حين جمع المسلمين على صلاة التراويح، ومنها ما يـكون مذموما ولا يعذر صاحبه وهو ما قامت الحجة على فساده فتمادى القائل به[1].

ومن أصحاب هذا الرأى الإمام القرافى يقـول: « فالبدعة إذا عرضت تعرض على قواعـد الشـرع وأدلته فـأى شيء تناولها من الأدلة ألحـقت به من إيجـاب أو تحريم أو

---

(١) كتاب البدعة للدكتور عزت عطية ص ٣٤ وما بعدها.

غيرهما وإن نظر إليها من حيث الجملة إلى كونها بدعة ـ مع قطع النظر عما يتقاضاها ـ كرهت ـ فإن الخير مع الاتباع والشر كله فى الابتداع»[1].

ولقد تعقب الإمام الشاطبى هذا القول بما يفيد تناقضه فقال ما خلاصته:

«هذا كلام يقتضى أن الابتداع شر كله، فـلا يمكن أن يجتمع مع فرض الوجوب ـ أى كيف يقول الإمـام القرافى «إن البدعة أحيـانا تكون واجبا، وقد ذكر أن البـدعة قد تجب وإذا وجبت لزم العـمل بها، فقـد اجتمع فى رأيه الأمـر بها والأمر بتركـها ـ لأنه يقول والبدعة من حيث الجملة مكروهة ـ ولا يمكن فيهما الانفكاك وإن كانا من جهتين ـ لأن الوقوع يستلزم الاجتماع؛ لأنها إذا وجبت فإنما تجب على الخصوص، وقد فرض أن الشر فيها على الخصوص فلزم التناقض»[2].

ورد الشيخ البراد ما قاله الشاطبى: بأن المقصود أن حكم البدعة المقررة لها بحسب ذاتها والثابت لها من حيث أصلها وبقطع الـنظر عن عوارضها هو الكراهة وليس القصد أن الكراهة من جهـة والوجوب من جـهة أخرى حـتى يرد ما زعم، فهى نـظير النكاح مثـلا: له حكم بحسب أصله وهو الندب، وقد يخـرج عنه لعارض وكذلك أكل الميـتة يخرج إلى الوجوب عن أصله وهو الحرمة عند الاضطرار»[3].

وأصحاب هذا الرأى ـ كما رأيت ـ لا يجيزون إحداث شىء يتصل بالشريعة إلا إذا اقتضت الظروف والأحوال ذلك لمصلحة الدين وهو ما قيل إنه مندوب أو واجب.

والحق يقال: إن العلماء اخـتلفوا من حيث تقسـيم البدع، فللعلماء فيـها أقوال، فمنهم من وسع فـى التحديد فـاتسع عنده مدلولها ومـا يندرج تحت اسمـها ويمثل هذا الاتجاه بعض العلماء ذو المكانة العلمية الفائقة منهم:

الإمام الشـافعى: يقسم البدعـة إلى حسنة وسيئـة ومحمودة ومـذمومة وهى عنده تشمل كل حادث بعـد عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشـدين يقول حرملة بن يحيى سـمعت الشافـعى رحمه الله يقـول البدعة بدعـتان[4]: بدعة محـمودة وبدعة مذمومة فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم.

ابن الأثير: يقول أيضا البـدعة بدعتان: بدعة هدى، وبدعة ضـلالة، وبدعة الهدى هى ما كـانت واقعة تحت عمـوم ما ندب الله إليه وحض عليـه سبحانه أو رسـوله ﷺ وبدعة الضلالة هى ما كانت على خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ وما لم يكن له مثال موجود.

---

(١) الفروق للإمام القرافى جـ٤ ص ١١.
(٢) الاعتصام للشاطبى ص ١٢٣.
(٣) تحفة البديع ورقة ٥٦ للبراد.
(٤) البدعة وموقف الإسلام منها للدكتور عزت عطيةص ١٩٥.

الإمام الغزالى: يقول: «وما يقال أنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهيا عنه، بل المنهى عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقائه عليه بل الابتداع يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب»[1].

ومنهم من ضيّق هذا المدلول وما يندرج تحته من الصور والأحكام، وهذا الاتجاه **ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: لا تتقيد فيه البدعة بشيء سوى مخالفة السنة بحيث تكون البدعة على غير مثال سابق فى الشرع سواء اتخذت دينا أم لا، ومن هؤلاء:

ابن رجب الحنبلى: يقول البدعة ما أحدث مما لا أصل له فى الشريعة يدل عليه أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا.

ابن حجر العسقلانى: يقول البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق وتطلق فى الشرع فى مقابل السنة فتكون مذمومة.

ابن حجر الهيثمى: يقول البدعة كل ما أحدث خلاف أمر الشرع ودليله الخاص والعام.

الإمام الزركشى: يقول البدعة فى الشرع موضوعة للحادث المذموم.

القسم الثانى: ويمثله:

الإمام الشاطبى: وعرف البدعة بتعريفين:

الأول: البدعة عبارة عن طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه وتعالى ـ وهذا رأى من لا يدخل العادات فى معنى البدعة.

الثانى: البدعة طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشريعة يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية[2].

والإمام الشاطبى يقول فى تعريفه: «طريقة فى الدين» ليخرج الطريقة فى الدنيا كإحداث الصنائع والبلدان ويقول «مخترعة»، أى لا أصل لها فى الشريعة ولا تعلق لها بها، ويقصد بالسلوك عليها ليخرج العادات من البدع.

ونحن نكتفى هنا بهذا القدر لنبين أن ما قاله الأستاذ البنا رحمه الله ـ إنما هو تأصيل فقهى قال به كثير من فقهاء الأمة وعلماء السلف ـ وفى المسألة تفصيل ليس هنا مجاله،

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٢ ص ٢.

(٢) الاعتصام للشاطبى ص ٧٣.

فقد قسم العلماء البدعة إلى عادية وتعبدية، وحقيقية وإضافية، وحسنة وسيئة، وفعلية وتركية، واعتقادية وقولية وفعلية، وكليه وجزئية. وكل نوع منها له حكمه عند العلماء.

والذى نريد أن نقف عنده مسألة الاحتفال بمولد الرسول ﷺ :

فنقول وبالله التوفيق: لا خلاف بين المسلمين فى أن الاحتفال بيوم مولد الرسول ﷺ عمل محدث لم يعهد فى عهد الرسول ﷺ ولا فى عهد أصحابه أو التابعين لهم بإحسان. يقول السخاوى: إن عمل المولد حدث بعد القرون الثلاثة.

وأول من أحدثه بالقاهرة المعز لدين الله الفاطمى ٣٦٢ هـ ، ودام الاحتفال به إلى أن أبطله الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى ٤٨٨هـ فى عهد المستعلى بالله؟، ولما ولى الخلافة الآمر بأحكام الله ابن المستعلى أعاد الاحتفال فى ٤٩٥هـ[(١)].

والغريب أنه بالرغم من أن حكم الاحتفال بمولد الرسول ﷺ من المسائل الخلافية بين العلماء ـ كما سنرى ـ إلا أن بعض العلماء الأجلاء غيرةً منهم على دين الله، وخوفا من الانحرافات التى تظهر فى الموالد بوجه عام غالوا فى الحكم فى هذا الموضوع حتى أننا وجدنا عالما جليلا يكتب فى رسالة فى الإنصاف فيما قيل فى المولد من الغلو والإجحاف يهاجم فيها الإمام السيوطى هجومًا شديدًا؛ لأنه يقول بجواز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ فيقول[(٢)] عن رأى الإمام السيوطى بجواز الاحتفال بمولد الرسول: «كان رده ساقطا باردًا؛ لأنه يجادل بالباطل ليدحض به الحق، والعياذ بالله تعالى». إلى هذا الحد يصف عالما جليلا من علماء السنة بأنه يجادل بالباطل أى أنه يعلم الباطل ويدحض به الحق الذى يعلمه فهل هذه صفة مسلم يعرف الحق فضلا عن أن يكون عالما جليلا وهل علماء الإسلام حين يختلفون يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

إن الأمر لا يحتاج إلى هذا الغلو حقا فكلا طرفى الأمور ذميم؛ ذلك لأن العلماء اختلفوا فى الاحتفال بمولد الرسول ﷺ .

فالبعض أجرى عليه أدلة ذم البدع باعتبار حدوثه وترك النبى ﷺ ومَنْ بعده من السلف له، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى لأنه تخصيص بغير مخصص ، وقد ورد النهى عن مثله، فقد نهى النبى ﷺ عن تخصيص يوم الجمعة بصيام[(٣)] ،ولولا أن المفسدة إنما تنشأ من

---

(١) تاريخ الاحتفال بالمولد لنبى محسن السندوى طـ الاستقامة سنة (١٩٤٨) والبدعة د. عزت عطية ص٤٨١.

(٢) الإنصاف فيما قيل فى المولد النبوى من الغلو والإجحاف للشيخ أبو بكر الجزائرى ص ٥٦.

(٣) شرح مسلم النووى جـ ٦ ص ١٨ ومسند الإمام أحمد.

تخصيص ما لا خصوصية له ـ كما فى الاحتفال بالمولد ـ لما نهى عنه الناس فإن الناس إنما يخصصون هذا اليوم بالاحتفال لاعتقادهم فيه فضيلة تقتضى ذلك ولا فضيلة فيه، فأقل أحوال هذا الاحتفال ـ فى نظر الشرع ـ أن يكون مكروها(1).

على أن الواجب على الناس فى نظرهم إلى الأيام من ناحية التشريف والتكريم وتخصيص بعضها بالعبادة أو الاحتفال به دون البعض الآخر اتباع الكتاب والسنة، وإن لم يدركوا ذلك من المصلحة أو المفسدة.

ومن أشهر هؤلاء المانعين تاج الدين عمر بن على اللخمى السكندرى المالكى المعروف بالفاكهانى، حيث ألف كتابا سماه «المورد فى الكلام على عمل المولد» رد فيه هذا الاحتفال وقال بمنعه لأنه لا يعلم له أصلا فى كتاب ولا سنة.

وهذا الرأى يوافق رأى الإمام ابن تيمية والشاطبى وغيرهما:

وهناك اتجاه آخر يرى إباحة هذا الاحتفال، بل ويحبذ القيام به ويستحسنه.

يقول العلامة أبو شامة: إن من أحسن ما أحدث فى زماننا ما يفعل كل عام فى اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ من الصدقات، والمعروف وإظهار الزينة والسرور فإن ذلك من مع ما فيه من الإحسان إلى الفقراء مشعر بمحبته ﷺ وتعظيمه فى قلب فاعل ذلك وشكر الله تعالى على ما منّ به من إيجاد رسوله الذى أرسله رحمة للعالمين ﷺ(2).

ويمثل هذا الاتجاه الإمام السيوطى وأما الإمام ابن حجر فيرى أن الاحتفال بالمولد بدعة اشتملت على محاسن وضدها فمن تحرى فى عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة وإلا فلا. ويستدل الإمام ابن حجر بقول رسول الله ﷺ حين قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذى تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرا فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه»(3).

فإذا نظرنا إلى ما مَنَّ الله به على الناس أجمعين برسالة محمد ﷺ لكان أولى بالاحتفال به فإن كان ابن حجر استخدم القياس، فإن ابن الحاج ـ فى المدخل ـ كان

---

(1) راجع اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ١٣٦.

(2) الإبداع فى مضار الابتداع للشيخ على محفوظ ص ٢٥٥.

(3) البخارى جـ٣ ص ٣٩ ومسلم جـ٨ ص ٩ النووى وأبو داود وابن ماجة.

موفقا فى توصله إلى دليل على تخصيص هذا اليوم باستحباب عبادة خاصة فيه إظهارا للسرور بالمولد شكرا لله على مولده ﷺ ألا وهو تعليل الرسول ﷺ استحباب صوم يوم الإثنين بقوله: ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل عليّ فيه»[1].

ويرجع ابن الحاج ترك الرسول ﷺ ومن بعده من السلف للاحتفال بهذا اليوم إلى رحمة النبى بأمته ورفقه بهم، حيث كان يترك العمل خشية أن يفرض على أمته ومما يدل على ذلك أنه ﷺ حرم المدينة بقوله: «اللهم إن إبراهيم حرّم مكة وإنى أحرّم المدينة بما حرّم إبراهيم مكة ومثله معه»[2].

ومع ذلك فإنه ﷺ لم يشرع فى قتل صيدها أو فى قطع شجرها شيئًا من الجزاء تخفيفًا على أمته ورحمة بهم.

وقد يكون سبب ترك الصحابة لهذا الاحتفال: إنما لاشتغالهم بما هو أهم وهو الجهاد وإعداد الدولة الإسلامية أو كانوا يحتفلون به فرادى أو أسرابا.

أما عن القول بأن الحزن فى ذلك اليوم أولى من السرور فيه لوفاته ﷺ فإن الإمام السيوطى يقول: «إن الشريعة حثت على إظهار شكر النعم والصبر والسكوت والكتم عن المصائب، فيأمر بالعقيقة وهى إظهار شكر وفرح بالمولود وينهى عن النياحة وإظهار الجزع عند الموت، ولا يأمر بذبح ولا بغيره وذلك يدل على أن الأحسن فى هذا الشهر إظهار الفرح لولادته ﷺ دون إبداء الحزن على وفاته ﷺ». قال ابن رجب: «لم يأمر الله ولا رسوله باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتمًا فكيف بمن دونهم»[3].

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره الإمام السيوطى فى ذلك أن الرسول ﷺ أشار إشارة واضحة إلى أن وفاته نعمة لا نقمة فقال: «إن الله عز وجل إذا أراد رحمة من أمّة عبادة قَبَضَ نبيّها قبلها فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيّها حى فأهلكها وهو ينظر فأقرّ عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره»[4].

ونتهى مما تقدم إلى جواز[5] الاحتفال بيوم المولد فى صورة شخصية أو أسرية بل إلى استحباب هذه الاحتفال وذلك لما يأتى:

١ ـ تخصيص يوم الإثنين بفضيلة الصوم فيه وبيان أن سبب هذا التخصيص أنه ﷺ ولد فيه.

---

(١) شرح مسلم جـ٨ ص ٥٢ النووى وأبى داود.

(٢) الموطأ ص ٥٥٤ للإمام مالك والبخارى جـ٤ ص ١١٦ ومسلم.

(٣) الحاوى للإمام السيوطى جـ١ ص ٢٩٨.

(٤) شرح مسلم للنووى ج ١٥ ص ٥٢.

(٢) هذا رأى الدكتور عزت (البدعة ص ٤٨٧). ويمكن الرجوع إلى المدخل لابن الحاج ٤ ص ٢٧ ففيه تفصيل.

٢ ـ حث الرسول ﷺ على صوم يوم عاشوراء شكراً لله تعالى على نجاة موسى ومن معه، وفى ذلك ما يشير إلى الحث على صوم يوم مولده والاحتفال به بشتى ألوان العبادة والطاعة.

٣ ـ تخصيصه ﷺ الأوقات الفاضلة بمزيد العناية كزيادة الجود فى شهر رمضان والاجتهاد فى العبادة فيه أكثر من غيرة من الشهور، ومن أفضل الأيام مولده ﷺ ؟.

هذا، ومما تجدر الإشارة إليه أن الاحتفال بالمولد على ما اخترناه فى تعريف البدعة ليس ببدعة. فلم يقترن به ادعاء ورود الشرع به أو حثه على هذا التخصيص أو نسبة ما ليس من الشرع فى هذا المجال إليه.

وعلى ذلك فهذا الاحتفال ليس مما تحقق فيه تعريف البدعة على أى اتجاه من الاتجاهات فى تعريف البدعة لثبوت أصله من السنة، وتوارد الأدلة المؤيدة لوقوعه.

أما ما يعمل فيه أو كيفية ممارسته، فذلك مشروط بأن يقتصر فيه على ما يفيد الشكر لله تعالى، من التلاوة والتذكير بسيرته ومآثره ﷺ والإطعام والصدقة وإنشاء شىء من الأشعار فى المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة وهذا مقيد بألا يشغل عن فرض أو يعطل عن طاعة أو يسوق إلى إرهاق من كثرة السهر؛ لأن الغرض تحصيل السرور عن طريق مشروع وإظهار الشكر لله تعالى على أى وجه، أما كشف العورات، والاختلاط المزرى والألعاب الملهية المشتملة على فنون النصب والاحتيال فيجب تجريد ذكرى المولد من كل ذلك على أى حال[1].

وهذا ما نراه، إذ لا يمكن أن يستوى الاحتفال بشم النسيم أو أعياد الغربيين الدينية أو غدير خم[2] مع الاحتفال بمولد الرسول ﷺ .

أسباب انتشار البدع:

١ ـ سكوت كثير من العلماء على تلك البدع وعدم تبيانها.

٢ ـ تأييد كثير من الحكام لتلك البدع ومحاربة شرع الله.

٣ ـ القول فى الدين بغير علم فى الفتوى.

٤ ـ الجهل بالسنة من حيث مكانتها من التشريع أو الجهل بتمييز الأحاديث.

---

(١) موضوع الاحتفال بمولد الرسول كله من كتاب البدعة للدكتور عزت عطية بتصرف من ص ٤٨١ إلى ص ٤٨٨ وهذا رأيه.

(٢) عيد يحتفل به الشيعة الاثنى عشرية احتفالا دينيا وليس له أصل فى الدين بل هو موضوع.

٥ ـ اتباع المتشابه والهوى والجهل بأساليب اللغة.

٦ ـ عمل العالم نفسه بالبدعة فيقلده العامة.

وسائل الوقاية من البدع:

١ ـ نشر السنة وإحياؤها والتعرف بها.

٢ ـ تطبيق السنة فى سلوك الفرد والمجتمع.

٣ ـ عدم قبول الاجتهاد ممن لا يتأهل له ورده من أهله.

٤ ـ نبذ التعصب للرأى.

٥ ـ الرد على ما يوجه إلى الدين من حملات ظاهرة أو خفية على أساس من العلم وصد التيارات الفكرية والعقائدية الباطلة.

٦ ـ منع العامة من القول فى الدين بالتوعية والدعوة الرشيدة.

٧ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالطرق المشروعة وبأحسن الأساليب.

* * *

محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم

الأصل الثالث عشر

ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم

الأصل الثالث عشر

«ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لايملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فى حياتهم أو بعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئًا من ذلك لغيرهم».

هذا الأصل يعالج:

١ ـ حب الصالحين من الحب فى الله.

٢ ـ احترام الصالحين والثناء عليهم.

٣ ـ مَنْ هم أولياء الله؟

٤ ـ ما هى الكرامة وشرائطها الشرعية؟

٥ ـ الاعتقاد بأن الذى يملك الضر والنفع هو الله وحده.

ركائز دعوتنا: تقوم على دعامتين أساسيتين:

١ ـ قوة الإيمان.

٢ ـ قوة الحب.

وبهاتين الدعامتين يقوى عودها، ويشتد ساعدها، وتعمق جذورها وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

وقوة الإيمان تتحقق بصحة الاعتقاد، وإسلام الوجه لله، **وقوة الحب** تتحقق بصدق الاتباع: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١].

وحب الله تعالى يعنى فعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور فإذا أنعم عليك شكرت، وإذا ابتلاك صبرت، وإن أذنبت استغفرت، فترضى بقضائه، وتقنع بعطائه، فإذا تحقق ذلك فيك نادى المولى: يا جبريل إنى أحب فلانًا فأحبه ثم ينادى

جبريل ملائكة الله يا ملائكة الله إن الله يحب فلانًا فأحبوه ثم ينزل لك المولى القبول على الأرض مصداقًا لقول الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ حينئذ تدخل فى عداد الصالحين: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾.

فالصالحون هم صناعة الله وعطاء الله وهم الذين أحبهم الله: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فَمَنْ هذا الذى لا يحب من أحب الله؟ والله يحب المحسنين، والمتقين، والصابرين، والمؤمنين، وعباد الله الصالحين.

وبهذا الحب الذى يسود فى مجتمع الصالحين تتكون الجماعة المسلمة المتآلفة المتحابة ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وتتوثق عرى المحبة التى لا تنفصم لأنها من الله ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فإذا بهم صفاً مرصوصاً بين يدى الله يقولون: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فاهدنا يارب صراط الصالحين ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ فهم معا فى الدنيا فى صلاح وتقوى ومحبة وهم فى الآخرة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

فمن هم الصالحون؟ هم الذين أحبوا لله وأبغضوا لله وأخذوا لله وتركوا لله قلوبهم صافية، وعيونهم باكية، وأيديهم حانية، وأرجلهم ساعية، وأعمالهم خالصة يبيت أحدهم وليس فى صدره شىء لأحد، وبهذه الصفات أقاموا بناء الدولة ووطدوا أركان الدعوة ولذلك كانت أولى خطوات الرسول ﷺ فى مدينته بعد الهجرة بناء المسجد ليحقق قوة الإيمان، والمؤاخاة ليحقق قوة الحب ذلك الرباط المتين وهذا الحصن الحصين الذى لا يستطيع عدو أن يخترقه فقد يخترق أعداء الإسلام الصفوف فيحتلوا البلاد بقوتهم الغاشمة ولكنهم لا يستطيعون أن يخترقوا قلوب العباد مهما أوتوا من قوة.

من هنا كان محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم من العبادة التى يتقرب بها العبد لربه، ومن الإيمان الذى وقر فى القلب «فليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

القرآن يثنى على الصالحين، ويعلمنا ربنا الثناء على الصالحين؛ لأنه سبحانه أثنى عليهم ونوه بأخلاقهم ومسالكهم فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾

وقال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ .

ولذلك رأينا الأنصار يثنون على المهاجرين و﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ويستمر هذا الموكب المتحاب يورث بعضه بعضا هذا الحب ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

المحبة منطلق كل خير: إن المحبة منطلق كل خير وفلاح؛ لأنها تجمع المسلمين على وجهة واحدة وغاية واحدة وقدوة واحدة، فهى الحياة ودونها الموت والهلاك ويقول عمر بن الخطاب ﷺ: لولا ثلاث ما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد فى سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر. ويقول ابنه عبد الله: والله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعته ولا بغض لأهل معصيته ما نفعنى ذلك شيئاً.

كيف نحترم الصالحين ونثنى عليهم ونتبرك بهم: إن بعض العلماء كره تقبيل يد الصالحين تعظيماً له والتمسح به، ففى مسألة التقبيل خلاف. كرهها مالك وآخرون.

قال سليمان بن حرب قبلة اليد هى السجدة الصغرى، وقال **ابن عبد البر** تقبيل اليد إحدى السجدتين، ولقد قبض هشام بن عبد الملك يده من رجل أراد أن يقبلها وقال: مه فإنه لم يفعل هذا إلا هلوع[(١)]، ومن العجم إلا خضوع.

ورخص أكثر العلماء كالشافعى وأحمد رحمهما الله، إن كان للدين لا للدنيا فلا يكره تقبيل اليد لزهد وعلم وكِبَرْ سن بل يستحب.

قال الشعبى صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء[(٢)] فقبَّل زيد بن ثابت يده وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ[(٣)].

ويكره لدنياه وثروته وشوكته ووجاهته كراهة شديدة.

---

(١) شديد الجزع جبان. (٢) المراد بالكبراء ذو الأسنان والشيوخ.

(٣) أخرجه الطبرانى والبيهقى والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

ومن طريف ما قيل لبعض الفقهاء فى تقبيل اليد أنه باعتبار موقعه على أنواع: تقبيل المودة للولد ويكون على الخدّ، وتقبيل الرحمة للوالدين ويكون على الرأس، وتقبيل الشفقة للأخ ويكون على الجبهة، وتقبيل الشهوة للزوجة ويكون على الفم، وتقبيل التحية للعلماء العاملين والحكام العادلين ويكون على اليد.

واتفق العلماء على كراهة مدّ اليد للناس ابتداءً ليقبلوها فهذا منهى عنه بلا نزاع كائناً من كان، إنما النزاع فيما إذا كان المقبل هو المبتدئ بذلك(١).

التبرك بالصالحين: التبرك التيمن بالشيء والبركة هي النماء فى الخير والزيادة فيه، ولقد أخبر المولى أنه بارك فى أرض الشام ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾(٢) وعيسى عليه السلام قال: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ بل القرآن نفسه مبارك ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ .. ﴾

ومن الأدعية المأثورة «وبارك لى فيما أعطيتنى» فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعا؛ لأنه من طلب الخير والتماسه ولكن بما يكون التبرك وكيف يكون؟

بم يكون التبرك؟ التبرك يكون بما عُلم شرعا أن فيه بركة وأذن الشارع فى طلبها منه والتماسها فيه، وذلك كبيت الله الحرام، وزمزم والمساجد الثلاثة، وكالأرض المقدسة، وكمجالس العلم والذكر، وقراءة القرآن، ومجالسة الصالحين، وطلب دعائهم ومرافقتهم(٣).

ويقول الإمام الشاطبى: «فى الاعتصام» التبرك بغير آثار النبى ﷺ بدعة إضافية؛ ذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم يتبركون بآثار النبى ﷺ فقد ثبت أن الصحابة كانوا يتمسحون بفضل وضوئه، ويدلكون بنخامته وجوههم وجلودهم،. وشربوا دم حجامته وشربت خادمة بوله عليه السلام وتبركوا بشعره وثوبه وغيرهما.

فعن أبى جحيفة قال: خرج علينا رسول الله بالهاجرة فأتى بوضوء فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به(٤).

وعن السائب بن يزيد قال: ذهبت بى خالتى إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابن أختى وجع، فمسح رأسى ودعا لى بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه(٥).

(١) الإبداع فى مضار الابتداع الشيخ على محفوظ ص ١٩٢.
(٢) سورة الأنبياء: ٧١.
(٣) عقيدة المؤمن أبو بكر الجزائرى ص ١٦٦ بتصرف.
(٤) البخارى جـ١ ص ١١ والنسائى ص ٥٧.
(٥) البخارى جـ١ ص ٤١.

وحكى القاضى عياض أن مالك بن سنان مصّ دم النبى ﷺ يوم أحد فقال ﷺ : «لن تصيبه النار»، وأن عبد الله بن الزبير شرب دم حجامته ﷺ فلم ينكر ذلك منه، وأن امرأة شربت بوله ﷺ فقال لها: «لا تشتكى وجع بطنك أبداً»[١].

قالوا إن الصحابة تبركوا بآثار رسول الله ﷺ ولكنهم لم يتبركوا بآثار غيره وتركهم لذلك لسببين:

١ ـ أن يعتقدوا فى التبرك بالرسول ﷺ خصوصية له ومرتبة النبوة تتسع لذلك كله فكما اختص بأشياء دون غيره اختص بالتبرك بآثاره ﷺ ولا يشاركه فى ذلك أحد.

٢ ـ ألا يعتقدوا الاختصاص ولكنهم تركوا ذلك من باب سد الذرائع[٢] خوفاً من أن يجعل ذلك سنة، أو لأن العامة لا تقتصر فى ذلك على حد بل تتجاوز فيه الحدود، وقد قطع عمر رضي الله عنه الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ، وبالغ أصحاب الحلاج فى التبرك به حتى ادعوا فيه الألوهية.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فالولاية وإن ظهر لها فى الظاهر آثار قد يخفى أمرها فإنها فى الحقيقة راجعة إلى أمر باطن لا يعلمه إلا الله، فربما ادعيت الولاية لمن ليس بولى أو ادعاها لنفسه أو أظهر خارقة بطريق السحر أو الشعوذة ونحو ذلك.

ولقد رد العلماء على الخصوصية: فقالوا لا دليل عليها، وأما قولهم سداً للذريعة فإن اعتبار سد الذرائع فى بعض الأمور لا يدل على اعتبارها فى كل أمر، فالشارع لم يعتبر سد الذرائع فى المنع من زراعة العنب ونحو ذلك وكذلك لم يعتبر سد الذريعة فى وأد البنات وقتل الأولاد خشية الإملاق أو خشية العار[٣].

ولو أن الشارع اعتبر مثل هذا سداً للذريعة لمنع منه بالنسبة إلى التبرك بالنبى ﷺ بالأولى؛ لأن الأمر الذى يخشى من ترتبه على مثل هذا التبرك أقرب منه حينئذ بالنسبة إلى من عداه.

وخلص أصحاب هذا الرأى إلى أنه لا بأس بهذا التبرك فى حدود الشرعية؛ لأنه من باب حب الصالحين وهو الحب فى الله وقد أمرنا بهذا الحب وورد ما يدل عليه من آثار، فلا يتبرك بدم أو بول مثلا للحكم بأنه غير طاهر، ولا يمكن تسليم الخروج عن

(١) الشفا للقاضى عياض جـ١ ص٥٤.

(٢) سد الذرائع هو منع الشارع من أشياء لجرها لمنهى عنه والتوسل بها إليه فهو منع الجائز لأنه يجر إلى غير جائز وبحسب عظم المفسدة فى الممنوع يكون اتساع المنع فى الذريعة وشدته.

(٣) البدعة د. عزت عطية ص ٣٤٠.

طريق هذا التبرك إلى ما يخالف الشرع كما حدث مع أتباع الحلاج فهذه عبادة وليست بتبـرك وقد ورد فى الحديث الشريف مـا يفيد التبـرك بالأرض وريق المؤمن فى قوله ﷺ[1] «تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا» وفى الأثر «سؤر المؤمن شفاء».

وأما التمسك بما وقع من عمـر ﷺ من قطع الشجرة فلا يدل المنع على الإطلاق لأنه واقعة حال - أى حالة معينة - وعلى هذا إذا كان التبرك فى حدود الشرع فلا مانع يمنع منه ولا دليل من الشرع على خـصوصيته للرسـول ﷺ ولم يرو عن الرسول ﷺ ما يمنع من مثل هذا التبرك وقد صح عن الربيع بن سلمان أن الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ كان يتـبرك بغسالة ثوب الإمـام أحمد ـ رضى الله عنه ـ كمـا ذكره صاحب الطبقات الكبرى فى قصة طويلة.

الحكم على الظواهر:

وهذا التبرك نفعله على أساس مـا نراه من ظاهر سلوك الصالحين؛ لأن التعامل فى نظر الشارع إنما يقوم على أساس الظواهر ولسنا مطالبين بالكشف عن السرائر أو التنقيب عما فى القلوب، فظهور الصـلاح كاف فى استحقاق صاحبه مـا يترتب عليه من المحبة والرعاية والتوفير والمؤمن كيِّسٌ فطن ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ولما رواه البخارى ومسلم من قوله ﷺ **«إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم»**[2] ولما رواه البخارى عن عمر قال: إن إناسـاً كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله ﷺ وإن الوحى قد انقطع، وإنما نأخذكم بما ظهر من أعمالكم[3] فليس لنا أن نحكم بعد انقطاع الوحى إلا بما ظهر لنا من أعمـال صالحة تدل على الإيمان والتقوى فيصبح فى عداد الصالحين بحكمنا البشرى ولا شأن لنا بحكم الله فيه.

فمن هو الولى؟: الأولياء هم باختصار أهل الإيمان والتقوى **﴿ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾** فى دنياهم وهم الذين تبشرهم الملائكة عند موتهم **﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ..﴾** فهم لا يخافون ولا هم يحزنون **﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** من هم؟ **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ..﴾**.

فكل مَنْ آمن بالله واتقاه هو الولى.

معنى الولاية: كلمة تجمع بين ناحيتى الخير والشر معا **﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم**

(١) أبو داود جـ٤ ص١٢ والحاكم فى المستدرك جـ٤ ص٤١٢ وقال صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبى وابن ماجة.

(٢) البخارى جـ٥ ص١٣٤ ومسلم جـ٧ ص١٦٣ شرح النووى. (٣) البخارى جـ٣ ص١٤٨.

﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ واستعملها رسول الله ﷺ في الغالب الأعم في جانب أولياء الله كما في الحديث «من آذى لي وليا» وفهمها الصحابة بهذا المعنى، وهي في اللغة تعني المحبة أو القرب أو الحماية والنصرة فالولي هو النصير.

الصوفية والشيعة: خصصوها لأشخاص معينين إما من آل البيت وإما من شيعة آل البيت وإما من المتصوفة وأصبحت في الإطلاق الشعبي على رجل التصوف أو الشريف المنتسب إلى آل البيت الذي يدعي ذلك ربما ليتكسب من وراء هذا الادعاء.

وأوقفهما بعضهم على الصحابة بنص القرآن؛ لأنها وصف لمن نال محبة الله وهي غاية يسعى إليها ولا ندري من وصل إليها إلى أن يأتي اليوم التي تجادل فيه كل نفس عن نفسها وتوفى كل نفس عما عملت وهم لا يظلمون، ويدلنا عليها حديث رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا: يا رسول الله أخبرنا مَنْ هم وما أعمالهم؟ فإنّا نحبهم لذلك قال: هم قوم تحابوا في الله بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فو الله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(1).

شروط الولاية:

١ ـ التمسك بكتاب الله والسنة.

٢ ـ الاقتداء بأقوال رسول الله ﷺ وأفعاله.

٣ ـ أن تزن الأفعال والأقوال بميزان الكتاب والسنة.

أما العلم اللدني، الوصاية من الشيخ عند الشيعة، والعصمة، والفناء وخوارق الأمور، كل هذه ليست من الولاية في شيء وصدق مَنْ قال: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء ويترك ما أمر الله ورسوله فاعلم أنه ساحر أو شيطان.

فبعض المشعوذين يترك الفرائض ويقول: «**اعبد ربك حتى يأتيك اليقين**» ولقد آتاني اليقين فسقطت عني الفرائض، بينما اليقين هنا هو الموت يقول ربنا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[المدثر:٤٦-٤٧] أي الموت.

واسمع إلى أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «مَنْ عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت

(١) الطبري جـ١٥ ص١٢١.

عليه، وما يزال عبدى يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بـها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينّه، ولئن استـعاذنى لأعيذنّه، ومـا ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن: يكره الموت وأكره إساءته»[1].

هؤلاء هم الأولياء الذين يحافظون على النوافل حفظهـم على الفرائض فيرزقون الفراسة والإلهام فلقد قال رسول الله ﷺ: لقد كان فيما قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى فهو عمر والمحدث هو الملهم.

الكرامات: الكرامة الاسم من كَـرُم والجمع كرامات وهى مـا يكرم الرب تبارك وتعالي به عباده من أنواع الإفضـالات وهى عامة، وهى ما كرم الله به بنى آدم كلهم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ..﴾ وخاصة وهى ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان وتوفيـقهم إلى طاعته، فهـذه الاستقامـة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات وأهلها من أصحاب اليمين[2].

والكرامة نفاها المعتزلة، وأثبتها أهل السنة وقالوا: إن القرآن أثبتها فهؤلاء هم أهل الكهف مكثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا، وهذه مريم يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فتقول هو من عند الله، وقصة الخـضر مع موسى عليه السلام وإن كان يرجح أنه نبى وليس وليا وذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

سقوط الكرامة: وتسقط المنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه بالذنوب والمعاصى لأن ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فعلى قدر طاعـة العبد تكون منزلته عنده فـإذا عصاه وخالف أمره سقط من عـينه فأسقطه من قلوب العباد فأصبح سـاقط القدر، وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهمّ وحزن.

ذلك لأن من أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العـالمين ذكره ويعلى قدره ولهذا خص أنبيـاءه ورسله بما ليس لغيرهم كمـا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أى خصصناهم بخصيصيـة وهى الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار وهى لسان الصدق الذى سأل إبراهيم عليه السلام ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ولقد قال لنبينا ﷺ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فاأباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم

(١) حديث قدسى صحيح.

(٢) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص١٧٥.

من طاعتهم ومتابعتهم، وكل مَنْ خالفهم فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم[1].

ولقد قرر الإمام ابن تيمية أن لبعض الناس كرامات وأن بعضهم يجرى الله على يديه خوارق العادات ولكنهم غير معصومين من الخطأ، ويقول: إن الكرامة ليست أفضل من الاستقامة ولذلك كان بعض الصالحين يطلب من الله تعالى أن يهبه الاستقامة ولا يهبه الكرامة يقول أبو على الجرجاني: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على الكرامة، وذلك يتطلب منك الاستقامة[2].

كرامات للصحابة والتابعين: فكم للصحابة والتابعين من كرامات.

فهذا عمر على منبره ينادى سارية «يا سارية الجبل» والقصة معروفة. وهذا أسيد بن حضير روى البخاري عن أنس قال كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند رسول الله ﷺ فى ليلة ظلماء حندس فتحدثا عنده حتى إذا خرجا أضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا فى ضوئها فلما تفرق بهما الطريق أضاءت لكل منهما عصاه فمشيا فى ضوئها[3].

وهو نفسه ـ أسيد بن حضير ـ الذى كان يقرأ سورة الكهف فنزلت عليه السكينة من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهى الملائكة وأخبر بذلك النبى ﷺ فقال لو استمر على تلاوته لاستمرت تلك السكينة واقفة عليه باقية عنده.

وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين وكان أبو الدرداء يأكل فى صحفة فسبحت وسبح ما فيها، وكان الصديق رضي الله عنه يأكل هو وأضيافه من القصعة فلا يأكلون لقمة إلا ربا ـ زاد ـ من أسفلها أكثر منها فشبعوا وهى أكثر مما كان فيها قبل أن يأكلوا، وأما خبيب بن عدى رضي الله عنه لما أسره المشركون كان يؤتى بقطف من العنب فى غير وقته.

وأخبر سُفَينَة الأسد أنه مولى النبى ﷺ فمشى معه حتى أوصله إلى مقصده وامرأة من الصحابيات عذبت حتى ذهب بصرها فقال المشركون ما أصابها إلا من اللات والعزى فقالت: كلا والله فعاد بصرها.

وأما التابعون فهذا أبو مسلم الخراسانى ألقى فى النار فوجد قائماً يصلى فقال عمر بن الخطاب: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرى فى أمّة محمد ﷺ مَنْ فُعل به كما فُعل بإبراهيم عليه السلام، وهذا عامر بن قيس وضع رجله على رقبة الأسد حتى مرت

(١) الداء والدواء أو الجواب الكافى لابن القيم ص٧٨.
(٢) المذاهب الإسلامية جـ١ ص ٢٩٩ للشيخ محمد أبو زهرة.
(٣) صفوة التفاسير للصابونى جـ١ ص ٢٠١ وانفرد بإخراجه البخارى.

القافلة وهذا مطرّف بن الشخّير كان إذا دخل بيته سبحت معه آنيته والكرامات كثيرة واسألوا المجاهدين الأفغان فى زماننا هذا فى جهادهم الإسلامى مع الملاحدة.

لا يملكون نفعاً ولا ضراً: ومع هذا كله فنحن لسنا مطالبين بأن نصدق الكرامات لفرد بعينه ولا يخدش إيماننا إن سمعنا عن كرامة لفلان فلم نصدقها أو نؤمن بها.

فكم من مشعوذ دجال يستطيع أن يسحرنا بلعبه ودجله فهذا أحدهم كان يركب مركبا فسرقت لؤلؤة واتهم فيها فقال: يا حيتان البحر أقسمت عليكم أن يأتى الحوت باللؤلؤة.

ويحكى الإمام الغزالى عن أحدهم وكان لا يعرف عليه صلاح ولا عبادة وكان لديه ضيف فتعرض له أسد فقال له: لا تتعرض لضيفانى فهزّ الأسد رأسه فقال الرجل الدجال: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم من الأسد ولكننا انشغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد.

مثل هذا الدجل تسمعه ممن يقولون أن للدنيا أقطابا أربعة السيد البدوى، والسيد الرفاعى، والسيد الجيلانى، والسيد إبراهيم الدسوقى، كل واحد منهم له ربع الدنيا ولا يعتدى على ربع صاحبه.

كل ذلك دجل وشعوذة، أما الكرامة فتثبت بشرائطها الشرعية.

وليس معنى الكرامة أن نعتقد أنهم يملكون الضر والنفع فهم لا يملكون لأنفسهم ـ فضلا لغيرهم ـ لا نفعا ولا ضرا ولاموتا ولا حياة ولا نشورا ولا يعلمون غيبا، فأفضل الخلائق عند الله عز وجل يقول له ربه: ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ..** ﴾[الأعراف:١٨٨].

وهكذا تبنى العلاقات على الفهم السليم فتجتمع القلوب وتتوحد الصفوف ويدعو المسلم لأخيه الصالح ويدعو بظهر الغيب فى كل ليلة وعند الغروب فيردد قول الله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ... وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لنا، ثم يدعو بمثل هذا الدعاء لإخوانه الصالحين: «اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك والتقت على طاعتك وتوحدت على دعوتك وتعاهدت على نصرة شريعتك فوثق اللهم رابطتها وأدم ودها واهدها سبلها واملأها بنورك الذى لا يخبو واشرح صدورها بفيض الإيمان بك وجميل التوكل عليك وأحيها بمعرفتك وأمتها على الشهادة فى سبيلك، إنك نعم المولى ونعم النصير. . اللهم آمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

زيارة القبور آدابها وحكمها وكيفيتها

الأصل الرابع عشر

وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة.

زيارة القبور آدابها وحكمها وكيفيتها

الأصل الرابع عشر

«وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة».

هذا الأصل له صلة وثيقة بالأصل الذى قبله فهو يعالج:

١ ـ المغالاة فى حب الصالحين.

٢ ـ زيارة القبور سنة مشروعة.

٣ ـ الكيفية المأثورة للزيارة.

٤ ـ عدم الاستعانة بالمقبورين.

٥ ـ الحلف بغير الله.

زيارة المقابر:

ومن المستحب لكل مسلم أن يكثر ذكر الموت ليرق قلبه ويخشى ربه، روى عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«استحيوا من الله حق الحياء»** قالوا: إنا نستحى يا نبى الله والحمد لله، قال **«ليس كذلك ولكن من استحى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، ومن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء»**[١].

ولقد روى البراء بن عازب ﷺ أن النبى ﷺ أبصر جماعة يحفرون قبراً فبكى حتى بل الثرى بدموعه، وقال: «إخوانى لمثل هذا فأعدوا»[٢].

وعن أبى هريرة ﷺ رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذكر هادم اللذات ـ الموت»[٣].

ولذلك فإن عبدالله بن عمر ﷺ كان يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك[٤].

فكل نفس ذائقة الموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ سنة الله تجرى على الأحياء ﴿كُلُّ

---

(١) رواه الترمذى بإسناد حسن.

(٢) رواه ابن ماجة فى سننه بإسناد صحيح.

(٣) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة بأسانيد صحيح.

(٤) رواه البخارى.

مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن:٢٦-٢٧].

فالناس جميعاً غنيهم وفقيرهم سيدهم ومولاهم، حاكمهم ومحكومهم، أنبياؤهم ورسلهم، أتقياؤهم وأشقياؤهم، لا نفرق بين أحد منهم يذوقون الموت ولكن كثيراً من الناس كأن الموت على غيرهم قد كتب، وكأن الذين يشيعون إلى الأجداث سُفر عما قليل إليهم راجعون يبوؤنهم أجداثهم ويأكلون من تراثهم وكأنهم مخلدون بعدهم.

من أجل ذلك كانت زيارة المقابر للعظة والاعتبار وترقيق القلوب والتذكير بالقبر وما بعده ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩].

حكم زيارتها: ينبغي أن يعلم أن زيارة المقابر كانت في أول الإسلام محرمة على الرجال والنساء، وحين استقرت عقيدة الإسلام في القلوب وعرفت أحكامه وأهدافه أبيحت الزيارة وجاءت فيها جملة من الأحاديث الصحيحة تضمنت مشروعيتها وكيفيتها وحكمها، فعن على رضى الله عنه أنه ﷺ قال: **«إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة»**(١) ومنها أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر فقال لها عبدالله بن أبى مليكة: من أين أقبلت يا أم المؤمنين؟ قالت: من قبر أخى عبد الرحمن، فقال لها: أليس كان نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها(٢).

والذى يدل على أن زيارة النساء للقبور ليست بحرام حديث أنس ﷺ أن النبى ﷺ مرّ بامرأة عند قبر تبكى على صبى فقال لها: اتقى الله واصبرى، فقالت: ما تبالي بمصيبتى، اذهب عنى - وكأنها لم تعرفه - فلما ذهب: قيل لها إنه رسول الله ﷺ فأتت إليه وقالت: لم أعرفك يا رسول الله فقال لها: **«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»**(٣).

وموضع الدلالة أنه ﷺ وعظها بالصبر ولم ينكر زيارة القبر. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كيف أقول يا رسول الله؟ يعنى إذا زرت القبور - قال: قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون(٤).

إلا أن الحافظ المنذرى يقول: قد كان النبى ﷺ نهى عن زيارة القبور نهيا عاما للرجال والنساء ثم أذن للرجال فى زيارتها واستمر النهى فى حق النساء، فالمسألة كما ترى

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت ص ٢١٩.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه مسلم.

فيها خلاف فقهى فمن العلماء من حرمها مطلقا، ومنهم من كره الزيارة كراهة تنزيهية، ومنهم من فصل بين الشابة وغيرها ومنهم من جوزها أو اعتبرها سنة بإطلاق. فقد روى مسلم «زوروا القبور فإنها تذكر الموت» وبالمناسبة فإن الإمام ابن تيمية منع زيارة قبور الصالحين والأنبياء للتيمن كما منع زيارة قبر الرسول ﷺ بقصد التبرك أو التيمن أو التقرب إلى الله فقال لا يجوز، وإن كان القصد العظة والاعتبار فهو جائز بل مندوب إليه.

يقول الشيخ أبو زهرة فى كتابه المذاهب الإسلامية: «ولقد خالف ابن تيمية بقوله جمهور المسلمين بل تحداهم فى عنف بالنسبة لزيارة قبر النبى ﷺ ونحن قد نوافق إلى حد ما على قوله فى زيارة قبور الصالحين والنذر لها، ولكن نخالفه مخالفة تامة فى زيارة الروضة الشريفة؛ وذلك لأن الأساس الذى بنى عليه منع زيارة الروضة بقصد التبرك والتيمن هو خشية الوثنية، وأنه إذا كان فى ذلك تقديس لمحمد ﷺ فهو تقديس لنبى الوحدانية وتقديس نبى الوحدانية إحياء لها، إذ هو تقديس للمعانى التى بعث بها؛ ولأن الروضة فيها تذكير بمواقف النبى ﷺ فى الصبر والجهاد والنضال والعمل على شأن التوحيد.

ولقد قال نافع مولى عبدالله بن عمر: كان ابن عمر يسلم على القبر رأيته مائة مرة أو أكثر يجىء إلى القبر ورؤى واضعا يده على مقعد النبى ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه، ولقد كان الأئمة الأربعة كلما قدموا إلى المدينة زاروا قبر النبى ﷺ والغريب أن ابن تيمية نفسه يروى أن الأئمة الأعلام كانوا يسلمون على النبى ﷺ كلما مروا بقبره الشريف وكانوا يذهبون إليه كلما هموا بسفر أو أقبلوا من سفر ثم يقرر الشيخ أبو زهرة أن التبرك بزيارة قبر النبى ﷺ مستحسن، لأن فيه التذكر والاعتبار والاستبصار[(١)].

وسنحاول أن نوجز حكم زيارة قبر الرسول ﷺ وما قاله العلماء فيها

أورد الشوكانى فى نيل الأوطار نبذة صالحة فيما قاله العلماء فى زيارة قبر الرسول وحكمها معزوا كل قول بدليله وما قاله المحققون فيه ـ فليرجع إليه مَنْ أراد زيادة بيان.

قال رحمه الله: اختلفت أقوال العلماء فى زيارة قبر النبى ﷺ إلى:

مذهب الجمهور: أنها مندوبة.

قال بعض المالكية وبعض الظاهرية: ذهبوا إلى أن الزيارة واجبة.

(١) المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة جـ١ ص٢٣٢.

قال ابن تيمية وبعض الحنابلة: إنها غير مشروعة، وروى ذلك عن مالك والقاضى عياض.

ولقد رد الجمهور على هذا الرأى فليرجع إليه فى نيل الأوطار.

وقال الإمام النووى: فى شرح المهذب: اعلم أن زيارة قبر رسول الله ﷺ من أهم القربات وأنجح المساعى فإذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة استحب لهم استحبابا متأكداً أن يتوجهوا إلى المدينة لزيارته ﷺ وينوى الزائر مع الزيارة التقرب بزيارة مسجده وشد الرحال إليه والصلاة فيه فإذا توجه فليكثر من الصلاة والتسليم عليه ﷺ فى طريقه ثم شرح آداب الزيارة وما يفعل من يريدها[1].

الإمام مالك: روى عنه القول بكراهة الزيارة وأجيب بأنه إنما قال بكراهة زيارة قبره ﷺ قطعا للذريعة. وقيل إنما كره إطلاق لفظ الزيارة؛ لأن الزيارة من شاء فعلها ومن شاء تركها، وزيارة قبره ﷺ من السنن الواجبة كذا قال عبد الحق.

يقول الشوكانى: واحتج كذلك من قال بمشروعيتها بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج فى جميع الأزمان على تباين الديار واختلاف المذاهب الوصول إلى المدينة المشرفة بقصد زيارته، ويعدون ذلك من أفضل الأعمال ولم ينقل أن أحدا أنكر ذلك عليهم فكان إجماعا. هذا ما نقله الشوكانى رحمه الله.

القصد من الزيارة: أباح الرسول ﷺ لأصحابه وعلمهم زيارة القبور ولقد زارها ﷺ وزاروها رجالا ونساء، ودرج المسلمون الأولون على ذلك للتذكر والتسليم والدعاء.

فالقصد من الزيارة: الإحسان إلى الميت بالسلام عليه والدعاء له بالرحمة والمغفرة وسؤال العافية، وحينئذ تسنّ الزيارة، ففى الحديث الصحيح عن بريدة رضى الله عنه أنه ﷺ كان يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم يا أهل الديار من المسلمين والمؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع نسأل الله لنا ولكم العافية[2].

ويقصد بالزيارة أيضاً الإحسان إلى نفسه فيتذكر الموت والآخرة والزهد فيها والاتعاظ بحال الميت ويتذكر قول الرسول ﷺ: «يتبع الميت ثلاث: أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله»[3]، ولقد كان الربيع بن خيثم

---

(١) الفتح الربانى جـ١٣ ص ١٧) ٢٢.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

إذا وجد غفلة خرج إلى القبور ويبكي ويقول: كنا وكنتم ثم يحيي الليل كله فيصبح كأنه نشر من قبره. فيتذكر انقضاء اللذات ويتفكر فيما يصير إليه من ضيق اللحود وصولة الدود ويستشعر ما سيؤول إليه حاله من شدة الحساب وصعوبة الجواب، ويراعى عند زيارة القبور ألا يجلس على المقابر أو يطأها أحد فهذا أمر منهى عنه، يقول أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «لئن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر»[1] وكذلك الاستناد إليه فعن عمرو بن حزم قال: رآنى النبى ﷺ متكئا على قبر فقال: لا تؤذى صاحب هذا القبر»[2].

وبالمناسبة فإنه لا يكره المشى فى المقابر بالنعلين والخفين ونحوهما، وهذا مذهب أكثر العلماء إلا أن الإمام أحمد يكره ذلك.

المغالاة فى قبور الصالحين: من المغالة اتخاذ الناس المقابر والأضرحة موسما من مواسمهم، وعيدا من أعيادهم يشدون إليها الرحال كما تُشد لزيارة بيت الله الحرام ويبيتون عندها الليالى ذوات العدد وهناك تصنع ألوان الأطعمة وتذبح الذبائح وتنصب ملاعب الصبية وتقام أسواق الباعة.

وأعياد المقابر أسبوعية ويسمونها الحضرة، فمثلا ليلة الثلاثاء ويومه للإمام الحسين، وليلة السبت ويومه للإمام الشافعى وهكذا، ولقد ورد النهى عن ذلك، فعن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر ولا تجعلوا قبرى عيدا وصلوا على أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم»[3].

والغريب أنك ترى فى هذه الأعياد والاجتماعات مفاسد لا يرضاها الله ورسوله فترى النساء يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ويختلطن بالرجال وترى الهزل والعبث والغناء والمداعبة وكثرة الضحك فى موضع الخشية والاعتبار ويذهب الحياء ويتأذى به الأموات أنفسهم فى قبورهم.

ومن المفاسد أيضا المبيت فى المقابر وإيقاد السرج والشمع ونحوه على القبور، فعن ابن عباس ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام: «لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[4].

ومن المفاسد أيضا تقبيل واستلام قبور الأولياء والأنبياء والعلماء والطواف حول

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أبو داود «ولا تجعلوا بيوتكم مقابر» أمر بتحرى النافلة فى البيوت حتى لا تكون بمنزلة القبور.

(٤) رواه أبو داود والترمذى وحسنه.

الأضرحة فإنه لم يعهد عبادة إلا بالبيت وكـذا لم يشرع التقبيل والاستلام إلا للحجر الأسود، فكيف بمن يـرفعون أكف الضـراعة للضريح ويناجـونه ويقبلون جـوانبه ويتمسحون بحديدة أو خشبـة ويشرحون له القضايا والمهام وتقدم له العرائض وطلب الفصل فيها فهل هذا عمل مشروع يرضاه الله والرسول؟ لا والله إن أصحاب الأضرحة أنفسهم يغضبون لذلك إن كانوا من أولياء الله حقا.

وكذلك وضع الستور على القـبور، وتجصيصها والبناء عليهـا فى حريم القبر أو خارجه فيتناول البناء على نفس القبر أو بناء تحويطه وقـبّة عليه أو مقصورة، فعن جابر ﷺ أن النبى ﷺ نهى عن تجصيص القـبر وأن يبنى عليه[1] إلا إذا دعت ضرورة للبناء كأن يخشى نبش القبر من نحو آدمى أو سبع قال الإمام الشافعى فى الأم وأحب أن لا يزاد فى القبر تراب من غيره وإنمـا أحب أن يشخص على وجه الأرض شبرا أو نحوه وأحب أن لا يبنى ولا يجصص فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء وليس الموت موضع واحد منهما ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة فأين نحن اليوم من تزيين القبور حتى تستطيع أن تفـرق بين الغنى والفقير والخفيـر والوزير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

النذور للموتى: قال العلماء لا يجوز النذر للقبور لا شمع ولا زيت ولا غير ذلك فإنه نذر معصية لا يجوز الوفاء به بالاتفاق.

جاء فى الدر المختار وحواشيه من كتب الحنفية ما ملخصه: اعلم أن النذر الذى يقع للأموات من أكـثر العوام ومـا يؤخذ من الدراهم والشمـع والزيت ونحوها إلى ضرائح الأولياء الكرام تقـربا إليهم كأن يقول يا سيدى فـلان إن رُدّ غائبى أو عُوفى مريضى أو قُـضيت حاجتى فلك من النقـد أو الطعام أو الشمع أو الزيت كـذا فهو بالإجماع باطل حرام لوجوه منها.

١ - أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة وهى لا تكون إلا لله.

٢ - أن المنذور له ميت والميت لا يملك.

٣ - إن ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله تعالى، فاعتقاده ذلك كفر والعياذ بالله[2].

بناء المساجد على القبور: عن عائشة ﷺ أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم. (٢) الإبداع فى مضار الابتداع للشيخ على محفوظ ص ١٨٥ وما بعدها.

كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت ما رأته فيها وقال رسول الله ﷺ أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله[(١)] . يقول ابن القيم: اعلم أن الشيطان أول ما كاد به للناس وهم على الهدى ودين الحق عبادة الأصنام والأوثان فتارة أدخلها عليهم من جهة تعظيم الموتى وتصويرهم بالصور التى ينصبونها لهم كما قص الله تعالى عنهم فى كتابه بقوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣] قال ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا على مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ولم تعبد حتى هلك أولئك القوم ونسخ العلم فعبدت من دون الله تعالى وأرسل الله لهم نوحا بعبادة الله وحده فكذبوه فأهلكهم الله بالطوفان[(٢)] .

وهذا الذى أدى بهم إلى الشرك بالله، وأنت ترى فى أيامنا هذه مَنْ يقف على باب هذه المساجد التى أقيمت على القبور بخشوع وتذلل كأنه يستأذن ثم يدخل، وهذا مسلك الشيعة فهم عند زيارتهم للأئمة ينادى أحدهم أأدخل يا أمير المؤمنين؟ ويقولون إن علامة الإذن رقة القلب ودمع العين.

ولذلك قال ابن حجر فى الزواجر: «ويجب المبادرة لهدم المساجد والقباب التى على القبور المشرفة وتجب إزالتها وإزالة كل قنديل أو سراج على قبر ولا يصح وقفه ونذره»[(٣)] ، ولا شك أنه يقصد الإزالة بالطرق الشرعية التى لا يترتب عليها مفسدة والإقام بها والإمام ولى أمر المسلمين فيأمر أصحابها بذلك.

الصلاة فى المساجد ذات القبور: شرعت الصلاة لتكون رباطا بين العبد وربه ليستشعر عظمته مستحضرا جلاله فتخشع له جوارحه ويخلص له قلبه ويستعين به فى أمره ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولذلك لا يجوز للمسلم أن يكون فى نفسه شيء من تعظيم غير الله، ولذلك كان من أحكام الإسلام فيما يختص بأماكن العبادة تطهيرها من هذه المشاهد يقول ربنا ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) حكم الإسلام فى التوسل بالأنبياء والأولياء ص٩٢ لفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف.
(٣) الإبداع فى مضار الابتداع للشيخ على محفوظ ص ٢٠١.

[البقرة: ١٢٥] ويقول: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[الحج: ٢٦] ويقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن: ١٨].

ولسد ذرائع الفساد قال ﷺ: «إن مَنْ قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إنى أنهاكم عن ذلك».

فشدد رسول الله ﷺ النهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد؛ لأن هذا سبب انحراف الأمم السابقة عن إخلاص العبادة لله وحده.

قال العلماء: إنه لما كثر المسلمون وفكر أصحاب رسول الله ﷺ فى توسيع مسجده وامتدت الزيادة إلى أن دخلت فى بيوت أمهات المؤمنين وفيها حجرة عائشة مدفن الرسول ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر فبنوا على القبر حيطانا مرتفعة تدور حوله مخافة أن تظهر القبور فى المسجد فيصلى إليها الناس ويقعوا فى الفتنة والمحظور.

ولذلك وجب إخفاء الأضرحة من المساجد وألا تتخذ لها أبواب ونوافذ فيها خاصة إذا كانت جهة القبلة فيجب أن تفصل عنها فصلا تاما بحيث لا تقع أبصار المصلين عليها ولا يتمكنون من استقبالها وهم بين يدى الله ومن باب أولى يجب منع الصلاة فى نفس الضريح وقاية لعقائد المسلمين.

ولذلك رأى العلماء أن الصلاة إلى القبر أيا كان محرمة ومنهى عنها، واستظهر بعضهم بحكم النهى بطلانها[١].

وفى المسألة كلام للعلماء إن كان القبر خلف القبلة ـ أى خلف المصلين ـ أو أمامها أو معزول عن مكان الصلاة كل ذلك له أحكامه ليس هنا مجال التفصيل فيها.

وأخيرا، فإن بعض العامة يحلفون بسيدى فلان أو الولى فلان، ولقد نهى عن ذلك كله فعن ابن عمر ﷺ عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»[٢]. والسر فى النهى عن الحلف بغير الله أن الحلف بالشيء يقتضى تعظيمه والعظمة فى الحقيقة إنما هى لله وحده ولذلك يروى لنا ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلا يقول: لا والكعبة فقال ابن عمر لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد كفر أو

(١) الفتاوى للشيخ شلتوت ص ١٠٣ وما بعدها بتصرف.
(٢) متفق عليه.

أشرك»[1] وفسر بعض العلماء قوله: «كفر أو أشرك» على التغليظ كما روى أن النبى ﷺ قال الرياء شرك.

كبائر يجب محاربتها: هذه كلها كبائر لا يشك فى ذلك مسلم، ولكن يجب أن نبين بالتى هى أحسن لنجتمع ولا نفرق، ونؤلف ولا ننفر فلا نقسو باسم الدين ولا نلقى الناس بالطين ونتطرف فى الحكم ونغالى فيه باسم الدعوة إلى الله، فنتخذ الحكم بالشرك وعبادة الأصنام على الزائرين كيف ونحن نعلم أن هؤلاء الزائرين ـ كما تنطق به أحوالهم ـ مؤمنون بعقائد الدين كله وبفرائضه كلها، ومؤمنون بأن النبى والولى من عباد الله خلقهما كما خلق العباد وأمدهما بأسباب الحياة وأماتهما كما يميت العباد وأنه سيبعثهم جميعا وتلك عقيدة الإيمان الحق التى لم يكن يؤمن بها عباد الأصنام، فالواجب علينا بدل أن نصف أصحاب القبور بالأصنام وقد يكونون من عباد الله الصالحين وما ذنبهم؟.

علينا أن نبذل الجهد فى تعليم من لا يعلم لا فى تكفيره ولا فى الإساءة إلى تلك الأرواح الطاهرة ثم نحى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقواعدها الشرعية.

وهكذا نكون من الدعاة فلسنا من القضاة وسنبين الحد الفاصل بين الكفر والإيمان فى الأصل العشرين بإذن الله.

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

التوسل إلى الله
بأحد من خلقه

الأصل الخامس عشر

والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

* * *

التوسل إلى الله بأحد من خلقه

الأصل الخامس عشر

«والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة».

هذا الأصل يعالج:

١ ـ الدعاء مخ العبادة.

٢ ـ التوسل والوسيلة المجمع عليها والمختلف فيها.

٣ ـ رأى العلماء فى الدعاء إذا قرن بالتوسل بأحد من خلقه.

اللجوء إلى الله: اللجوء إلى الله أمر فطرى فى النفس، فالفطرة تستصرخ خالقها وبارئها؛ لأنها توقن وتشعر بوحدانيته ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فلا عجب إذًا أن يقول المسلم: الغوث الغوث، النجاة النجاة حين يحس بأى خطر من الأخطار أو ضرر من الأضرار، لا يمارى فى ذلك أحد ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ١٢].

ولذلك فإن المسلم يستشعر ضعفه الإنسانى كلما وقف بين يدى الله سبحانه وتعالى ويعترف بالإلـه القوى وهو يقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ فيستعينه ويستهديه فيحقق بذلك أسمى أنواع العبودية باستشعاره كمال الذل وكمال الحب لله رب العالمين فكأن الدعاء بذلك مخ العبادة بحق.

الاستعانة بالله لا تمنع الاستعانة بالمخلوق: والاستعانة بالله والدعاء له والابتهال إليه والاستعانة به لا تمنع من الاستغاثة بالمخلوق الحى تناديه وتطلب غوثه وتحتمى به، والاستغاثة ـ **وهذا أمر طبيعى فيما يقدر عليه البشر** ـ من الأمور التى فى استطاعتهم وليس فى الأمور المستحيلة التى يعجز عن الإتيان بها أو التى ليست فى مقدورهم، هذه بديهية لا تحتاج إلى دليل أو برهان.

فقد تنشب النار أو يشتعل الحريق فى بيت من البيوت فيستغيث صاحبه بالشرطة أو

الجيران طلبا للإنقاذ أو يعتدى عليك لص آثم فتستنصر الناس ليخلصونك منه ويحمونك من اعتدائه وهذا أمر معتاد يحدث مع كل الناس والقرآن الكريم بين لنا أن هذا النوع من الاستنصار والاستعانة مألوف بين البشر فحكى لنا القرآن قصة موسى عليه السلام حين استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ [يونس: ١٢].

وأما الأمور التى لا يقدر عليها إلا الخالق القادر سبحانه وتعالى فلا يصح أن يستغاث لها من البشر ولكن يستغاث بمن بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ككشف الضر، وتفريج الهم، والشفاء من السقم، ودفع الفقر، وغفران الذنب، والهداية إلى سواء السبيل وغير ذلك من الأمور والأحوال التى يداولها المولى بين الناس فلا يلجأ فيها إلا إليه وحده ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

فإن استغاث الإنسان بمخلوق فى مثل هذه الأمور فقد ضل ضلالا مبينا وافترى إثما عظيما، وقال منكرا من القول وزورا، ووقع فى المحظور وخالف الشرع الحكيم واتبع الهوى المشين وصاحب الشيطان الرجيم.

وفى هذه الحالة يجب علينا أن نوضح له هذا المنزلق إن كان جاهلا، ونحذره من الهاوية حتى لا تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق؛ ذلك لأن مولاه هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير وهو وحده المسئول والمأمول وإليه وحده يرجع الأمر كله ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤].

الدعاء مخ العبادة: من هنا كان الدعاء مخ العبادة وسمة المؤمنين والأنبياء والصالحين والرسل الكرام المبعوثين رحمة للعالمين، فهم يلجأون إلى الله فى صغير الأمر وكبيره، فهذا آدم عليه السلام يقول: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وهذان إبراهيم وإسماعيل يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وهذا نوح يقول: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ وهذا أيوب يقول: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وهذا يونس: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وانتهى هذا الموكب بمحمد ﷺ وهو يتضرع إلى ربه إليك « **أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين** » فكان

حال المؤمنين به ودعاؤهم ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٧].

وهنا تظهر لنا قضية التوسل والوسيلة فما هى حقيقة هذه القضية؟

الوسيلة: هى المنزلة عند الملك، والدرجة والقربى، ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملا تقرب به إليـه، والواسل الراغب إلى الله، وتوسل إليه وسيلة إذا قرب إليه بعمل هكذا جاء فى لسان العرب.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

يا أيها الذين صدقـوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعـدهم من الثواب وأعد من العقاب «اتقوا الله» يقول أطيعوا الله فيما أمركم ونهاكم من الطاعة له فى ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من الأعمال ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾، أى اطلبوا القربة إليه بما يرضيه[(١)].

وعن قتادة: تقربوا إليه بطاعته ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] أى القربة. وكما قال الإمـام النسفى: الوسيلة هى كل ما يتوسل به، أى يتقرب من قرابة أو صنيـعة أو غير ذلك، واستعيـرت لما يتوسل به إلى الله من فعل الطاعات وترك السيئات.

ولقد اتفق المعنى اللغوى مع المعنى الشرعى لـلوسيلة وإن كان الرسول ﷺ قد جعل لها معنى آخـر هى منزلة الرسول ﷺ فى الجنة وذلك فى الحديث الذى رواه عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى»[(٢)].

والوسائل للقربى لا تعد ولا تحصى؛ لأن كل طاعة وسيلة، من إماطة الأذى عن الطريق إلى الجهاد فى سبيل الله فهذا ميـدان فسيح، أبوابه متعددة يلجه المؤمن من أى باب شاء، وهذا هو التوسل إلى الله بأعمال الخير مالا ووقتا ونفسا[(٣)].

هذه القضـية: لم تأخذ شكل المشكلة إلا بعد أن تحـولت الآراء الاجتهادية إلى تعصبات حزبية تفرق المسلمين، وتحـول العلماء إلى كسب الأنصار كل يحاول تدعيم آرائه الشائعة عنه ورد كل ما يعارضها ولو كان الأصوب.

---

(١) الطبرى جـ١٠ ص ٢٩٠.

(٢) مسلم جـ١ ص ٢٨٩ وأبو داود جـ١ ص ٨٧ والترمذى وقال حسن صحيح.

(٣) منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف

ولا أدلّ على ذلك من أن فريقا من العلماء جعلها شركا أو طريقا إلى الشرك فى قضايا خلافية تنازع فيها العلماء بين صواب وخطأ وليس بين كفر وإيمان وهكذا نشبت المعارك العلمية بين من يجيز وبين من يمنع وزادت الفرقة والتعصب والشقاق ونود أن ننبه إلى أن التوسل الذى أشار إليه الإمام البنا فى هذا الأصل لا دخل له بما يفعله العوام والجهال من دعاء الموتى والتوجه إليهم بالسؤال وطلب قضاء الحاجات منهم والاستعانة بهم - وهذا ما بينه الإمام البنا فى الأصل الرابع عشر - أنها كبائر يجب محاربتها.

أما هذا الأصل فهو يشير إلى من توجه إلى الله وحده بالدعاء سائلا إياه وحده بجاه فلان أو ذاته لا متوجها إلى فلان الميت يطلب منه ويسأله فهذا ليس توسلا بل هى كبائر كما قلنا.

ولقد كثر الكلام - فى هذا الأصل الذى نحن بصدده - وطال النزاع بين أئمة كرام كالإمام السبكى وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمهما الله - فلقد أتى كل منهما بأدلة أيد فيها رأيه ورد أدلة الآخر، فالأول يجيز والثانى يمنع بشدة ولكل من الشيخين أشياع وأنصار تتلاحى وتتشاتم حتى سارت بابا من أبواب الفتنة والتفريق بين جماعة المسلمين وما أحوجنا إلى الوفاق والوئام خاصة أن المسألة خلاف فرعى - كما سنوضح بمشيئة الله - وكما ذكر الإمام البنا ومَنْ سبقه من علماء السلف.

موقف العلماء من القضية:

ما اتفق عليه العلماء: اتفق العلماء دون أدنى خلاف على أن التوسل المشروع هو:

أولا: التوسل باسم من أسماء الله تعالى الحسنى أو بصفة من صفاته العليا قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فالآية صريحة فى أمر العباد بأن يدعوه تعالى بأسمائه الحسنى؛ لأن الدعاء بأسمائه وصفاته أقرب إلى الاجابة، وقد ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحد مَنْ أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[(١)].

وفى الحديث الصحيح: **«اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا...»**.

---

(١) اخرجاه فى الصحيحين.

ثانيا: التوسل بالعمل الصالح كأن يكون قد قدم عملا صالحا موافقاً للكتاب والسنة فإذا دعا يقول فى دعائه: اللهم إنى أسـألك بعملى الفلانى أو يقول اللهم إنى أسألك بحبى لنبيك أو بإيمانى أو بتوحيدى ونحو ذلك.

فالمؤمنون قالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران:١٩٣] . فقدموا التوسل بالعـمل الصالح وهو الإيمان على الدعاء رجاء الإجابة وكذلك قول ربنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[المؤمنون: ١٠٩] فقدموا التوسل بالإيمان على طلب المغفرة والرحمة.

وكذلك توسل أصحاب الغار بأعمالهم الصالحة، فتوسل أحدهم بعفته من الزنا، وتوسل الثانى ببره لوالديه، وتوسل الثالث بتنمية أجر أجيره وإعطائه الأجرة كاملة بعد مضى فترة طويلة من الشهور والسنين.

وعلى هذا يستحب للإنسان أن يدعو فى حال كربه وفـى دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله ويتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء الثلاثة فعلوه فاستجيب لهم وفرج الله كربهم ورفع الصخـرة التى أطبقت عليهم، وذكره النبـى ﷺ فى معرض الثناء عليهم بجميل فضائلهم[(١)].

ثالثا : التوسل بدعـاء الرجل الصالح، فإذا نابت المسلم نائبـة أو وقع فى قحط وجدب، من المندوب أن يذهب إلى رجل يدعو له لكى يفرج الله الشدة ويقول له: ادع لى، وهذا لون من ألوان﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ والرسول ﷺ يقول: «الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

وفى الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائـم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائما فقال: يا رسول الله هلكت المواشى وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم اسقنا، قال أنس: ولا والله ما نرى فى السماء من سحابة ولا قزعة[(٢)] ولا شيئا وما بيننا وبين سلع[(٣)] من بيت ولا دار قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السـماء انتشرت ثم أمطرت قال: والله ما رأينا الشمس ستا[(٤)] ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله قائم يخطب فاستقبله قائما فقـال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها.

(١) الحديث رواه البخارى ومسلم.
(٢) السحاب المتجمع الذى لم يمطر بعد.
(٣) اسم مكان(جبل بالمدينة) .
(٤) ستة أيام.

فقال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الأكام[1] والجبال والآجام[2] والظراب[3] والأودية ومنابت الشجر قال: فانقطعت وخرجنا نمشى فى الشمس[4] فقد أقر النبى ﷺ هذا الأعرابى على التوسل به وسعى فى تحقيق من توسل إليه ـ ولم يصدر عنه ما يشير ـ مجرد إشارة ـ إلى أن الدعاء الصادر من الشخص لنفسه أولى من دعاء غيره له بناء على طلبه، بل لقد دل بإقراره ﷺ واستجابته على أن طلب الدعاء من الغير أرجى للإجابة إذا كان المطلوب منه الدعاء من أهل التقوى والصلاح[5].

وإذا كان هذا عن التوسل بدعاء النبى ﷺ فإن التوسل بدعاء غيره ﷺ قد سنّه لنا حينما قال لعمر، وقد استأذنه فى العمرة فأذن له: لا تنسنا يا أخى من دعائك[6] وسنّه لعمر بن الخطاب ولغيره تبعا فيما رواه مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم[7]. وفى رواية « وله والدة» هو بها برّ لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل[8].

وقد طلب عمر منه أن يستغفر له، فدل ذلك على جواز التوسل بدعاء المسلمين ولو كان الداعى أقل درجة من المدعو له.

ومما يدل على ذلك أيضا حثه ﷺ لنا على سؤال الله له الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود، وسؤالنا الله أن يصلى عليه وما إلى ذلك.

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٦٤] يدل على مشروعية التوسل لما فيه من حث الأمة على المجيء إليه ﷺ، والاستغفار عنده واستغفاره لهم وليس ذلك خاصا به ﷺ لعدم دليل الخصوص.

وقد ورد الحث على دعاء المرء لأخيه عن ظهر غيب طلب منه أو لم يطلب ولا يتوقف على أفضليته من الطالب بل قد يطلب الفاضل من المفضول.

يقول ابن تيمية: ولفظ التوسل يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين.

---

(١) الروابى. . الأرض المرتفعة. (٢) الحصون

(٣) الجبال الصغيرة. (٤) رواه أحمد جـ ٣ ص ١٠٤ والبخارى جـ٢ ص٢٥.

(٥) البدعة د/ عزت عطية ص ٤٤٥.

(٦) الترمذى جـ ٥ ص ٣٢٠ وقال حسن صحيح، وأبو داود وأحمد.

(٧، ٨) مسلم جـ١٦ ص ٩٥.

أحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل إلى الله بالإيمان بالرسول ﷺ وبطاعته.

الثاني: التوسل بدعاء الرسول ﷺ وشفاعته، فهذان جائزان بإجماع المسلمين.

التوسل المختلف فيه بين العلماء: ومنه المسألة التى أشار إليها الإمام البنا فى هذا الأصل.

١ـ التوسل إلى الله تعالى بأحد من خلقه فى مطلب يطلبه العبد من ربه، أجازه بعضهم إذا كان بمعنى الشفاعة كما فى صحيح البخارى: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى العباس وقال: اللهم إنّا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون[(١)].

فلا يخفى أن توسلهم به هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه فهو شفيع لهم وسائل لا مسئول. .وهذا رأى من لم يجز التوسل بذات المتوسل به وقال يتوسل بدعائه لا بذاته، والذى ينادى بهذا الرأى هو الإمام ابن تيميـة الذى يقول: « ودعاء عمر فى الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار وقوله كنا نتوسل بنبينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته، إذ لو كان هذا مشروعا لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول ﷺ إلى السؤال بالعباس[(٢)].

٢ـ وأجازه بعض العلمـاء وإن لم يكن بمعنى الشفاعة، بل بمعنى الـتوسل بجاه الوسيلة نحو القسم على الله بنبيه ﷺ.

إلا أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام خـصّه به ﷺ للحديث« أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى أصبت فـى بصرى فادع الله لى فقال النبى ﷺ توضأ وصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجـه إليك بنبيك محمد ﷺ إنى استشفع به فى رد بصرى اللهم شفعه فىّ وقال: فإن كان لك حاجة فمثل ذلك فرد الله بصره[(٣)] فعلم أن النبى ﷺ شفع له فسأل الله أن يشفعه فيه، من أجل هذا الحديث استثنى الشيخ عز الدين بن عبد السلام التوسل بذاته ﷺ من المنع الذى أفتى به حيث قال هذا **ينبغى أن يكون مقصورا على النبى ﷺ لأنه سيد ولد آدم، وأن لا يقسم على**

---

(١) البخارى جـ٢ ص٢٥. (٢) قاعدة جليلة فى التوسل لابن تيمية ص ٥٨.

(٣) رواه النسائى والترمذى وصححه وابن ماجة ـ الإبداع فى مضار الإبداع ص ٢٠٨.

الله بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا فى درجته، وأن يكون هذا مما خصّ به لعلو درجته ومرتبته ﷺ [(١)].

٣ـ وأجازه بعض العلماء على إطلاقه كالإمام السبكى وغيره وقالوا: إن ما قاله الشيخ عز الدين بن عبد السلام بأنه خاص برسول الله ﷺ فيه نظر؛ لأن الخصائص لا تثبت إلا بدليل ولا يكفى فيها الاحتمال لأنها خلاف الأصل ويتضح لك بعد ذلك أن المستغيث بإنسان طالب منه سائل له بخلاف المتوسل به فليس مطلوبا منه ولا مسئولا وإنما يطلب به، وكل واحد يفرق بين المدعو والمدعو به[(٢)].

والذين أجازوا هذا النوع من التوسل ردوا على الإمام ابن تيمية قالوا: إن المتأمل فى قول ابن تيمية يجده بنفى وقوع التوسل أو سؤال الله تعالى بمخلوق مطلقا ولكنه لا يقدم لنا دليلا على ذلك، بل إن الأدلة قد قامت على خلافه، فقد روى ابن أبى شيبة بإسناد صحيح من رواية أبى صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر قال: أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى ﷺ فقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتى الرجل فى المنام فقال له: ائت عمر فقل له: إنكم مستسقون فعليك الكفين، قال: فبكى عمر وقال: يارب ما آلو إلا ما عجزت عنه[(٣)].

وروى الدارمى أن أهل المدينة لما قحطوا أشارت عليهم عائشة بأن يحملوا من قبر النبى ﷺ كوا إلى السماء حتى لا يكون بينه وبينها سقف ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسقت الإبل حتى تفتقت فسمى عام الفتق[(٤)].

ويرى الشيخ زاهد الكوثرى أن هذا الحديث ـ حديث عمر ـ نص على عمل الصحابة فى الاستسقاء به ﷺ بعد وفاته حيث لم ينكر عليه أحد مع بلوغ الخبر إليهم وما يرفع إلى أمير المؤمنين يذيع ويشيع[(٥)].

ثم إنه لا يلزم عن عدم شيوع هذا الحديث وانتشاره عدم الاستدلال به لأن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ما كان يقر على باطل أو يسكت على ضلال. يقول ابن حجر يحتمل أن يكونوا طلبوا السقيا من الله مستسقين به ﷺ [(٦)]. ولم لا يكون التوسل بعم النبى ﷺ العباس أراد به عمر رضي الله عنه أن يبين جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل.

---

(١) الإبداع في حضار الابتداع ص ٢١٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠.

(٣) فتح البارى جـ٣ ص ١٤٨ والإصابة جـ٣ ص ٤.

(٤) البدعة د/ عزت عطية ص ٤٥٢.

(٥) محض النقول ص ١٠.

(٦) فتح البارى جـ٣ ص ١٤٧.

ولما كان هذا الحديث ـ حديث الاستسقاء ـ لم يكن نصا صريحا فى جواز التوسل به ﷺ حيا وميتا وجواز التوسل بغيره من الصالحين، فإن الأرجح فى فهمه وما يوافق ظاهر لفظه هو دلالته على الجواز؛ ذلك لأن بعضهم قال لكى يؤيد رأى عدم الجواز أن هناك مضافا محذوفا فى قول عمر« وإنا نتوسل إليك بعم نبينا» أى بدعاء عم نبينا فلا ندرى لم لا يجرى على ظاهره[1].

حديث الأعمى : ولقد روى الطبرانى بسنده عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته فلقى عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان: ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل: « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فيقضى لى حاجتى، وتذكر حاجتك»، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان، فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة وقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فأتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلىّ حتى كلمته فىّ، فقال عثمان بن حنيف والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضرير فشكا له ذهاب بصره، فقال له النبى ﷺ : أو تصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لى قائد وقد شق علىّ، فقال له النبى ائت الميضأة فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم ادع بهذه الكلمات. قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضر قط والنص واضح بالتوسل بالرسول ﷺ بعد وفاته ولذلك صرفه بعضهم ومنهم الشيخ الكوثرى والشيخ حسنين مخلوف على الجواز بالتوسل بغيره، إذ إن دلالة الحديث على التوسل صراحة بذات الرسول ﷺ وليس بغيره، فالتوسل بغيره لاختلاف فيه مجال والذى نرجحه هو الجواز حيث لم يرد ما يدل على المنع والله أعلم[2].

يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف[3]: التوسل بذوات الأنبياء والصالحين بمعني الاستشفاع بذواتهم وسيلة عند الله تعالى لبلوغ مآرب المتوسلين لما لهم عند الله تعالى

(١) هذا رأى د/ عزت عطية في كتابه(البدعة) ص ٤٥١ وما بعدها.
(٢) هذا رأى د/ عزت عطية فى كتابه(البدعة) ص ٤٥٨ .
(٣) فى كتاب حكم الإسلام فى التوسل ص ٤٥ .

من الزلفى والكرامة كأنه يقول: « اللهم إنى أتوسل إليك بنبيك ﷺ أو بفلان الصالح أن ـ تقضى حاجتى أو ترزقنى أو تشفى مريضى» فهذا ونحوه لا شىء فيه ولا وجه لمنعه.

ولقد قال معاوية: إنا نستقى بخيرنا وأفضلنا اللهم إنا نستسقى بزيد بن الأسود فاستسق معاوية بهذا الرجل الصالح، ومن أنواع التوسل الخلافية التوسل بجاه النبى ﷺ وحقه وحرمته فقد وافق العلامة الألوسى على جواز التوسل بجاهه ﷺ وحرمته حيا أو ميتا وصرف الجاه والحرمة إلى صفة من صفات الله تعالى أى اجعل محبتك له وسيلة فى قضاء حاجتى، وقال: نعم لم يعهد التوسل بالجاه والحركة عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ولعل ذلك كان تحاشيا منهم عما يخشى أن يعلق منه شىء فى أذهان الناس إذ ذاك وهم قريبو عهد بالتوسل بالأصنام ثم اقتدى بهم من خلفهم من الأئمة الطاهرين، وقد ترك رسول الله ﷺ هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد إبراهيم لكون القوم حديثى عهد بكفر كما ثبت ذلك فى الصحيح[(١)].

أرأيت كيف أن المسألة نزاعية خلافية كما قال العلماء وليست من أمور العقيدة فى شىء.

قول الإمام البنا: والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من أمور العقيدة.

فأنت تلاحظ أن الإمام البنا فى هذه المقولة لم يرجح رأيا على رأى ولم يظهر رأيه فيما قال وإنما قال حكما فقهيا بين علماء السلف جميعاً، فالمسألة تتعلق بالصواب والخطأ وليست متعلقة بكفر وإيمان واسمع ما قاله العلماء فيها:

يقول الإمام ابن تيمية: « نقل عن أحمد بن حنبل فى مسند المرودى التوسل بالنبى ونهى عنه آخرون، فإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل نزاع، وما تنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول»[(٢)] ويقول أيضا: «بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد، ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول»[(٣)]. ويقول: «وإن كان فى العلماء

(١) حكم الإسلام فى التوسل للشيخ محمد حسنين مخلوف ص ٣٦.
(٢) الفتاوى لابن تيمية جـ ١ ص ٢٦٤.
(٣) الفتاوى جـ ١ ص ١٧٩.

مَنْ سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه ـ فتكون مسألة نزاعية ـ وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة(١).

ويقول الشيخ ناصر الدين الألبانى: بعد أن أشار إلى التوسل المشروع الذى أشرنا إليه ـ وغير المختلف فيه ـ قال: وأما ما عدا هذه الأنواع من التوسلات ففيه خلاف والذى نعتقده وندين الله به أنه غير جائز ولا مشروع لأنه لم يرد فيه دليل يقوم به الحجة وقد أنكره العلماء المحققون فى العصور الإسلامية المتعاقبة، مع أنه قال ببعضه بعض الأئمة فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول ﷺ وأجاز غيره كالإمام الشوكانى التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين(٢).

ولقد أجاب فضيلة الشيخ ابن باز حين سئل عن هذا النوع من التوسل بأن من العلماء مَنْ أجازه ومنهم من منعه وليس بشرك(٣).

ويقول فضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعى ـ رحمه الله ـ **أن هذه الأمور** ـ الدعاء والتوسل ـ ليست من صميم العقائد عند السلف، وإنما هى أمور وُزِّعت وصُنِّفت عندهم فى أبواب ليست من أبواب التوحيد، فالقبور وتجصيصها وما يتصل بها صنفت فى كتاب الجنائز، أما الأدعية فتجدها فى كتاب الأذكار ولا تجد شيئا منها عند السلف فى كتاب التوحيد، ونحن نشير إليها هنا بعد أن احتدم الخلاف وأصبح هذا الأمر ينظر إليه على أنه يخل بشىء من العقائد ولذلك يجب عرضها بطريقة لا تخرج مسلما عن ملته، فهم ذلك السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين(٤).

ها نحن قد رأينا أن التوسل بذات النبى ﷺ وبغيره مسألة خلافية فإن الإمام أحمد بن حنبل وابن حجر العسقلانى صاحب فتح البارى فى صحيح البخارى ويجوز بالنسبة للنبى ﷺ، كما أجازه العز بن عبد السلام، وأما الإمام السبكى والشوكانى فيجوزه بالنسبة للنبى ﷺ وبغيره، وكذلك العلامة الألوسى كما أجازه الشيخ زاهد الكوثرى كما رأيت بالنسبة للأحياء والأموات، بينما منع ذلك الإمام ابن تيمية والشيخ ناصر الألبانى وغيرهم.

فالمسألة كما رأيت فيها خلاف فقهى كما بين الإمام البنا ـ والخلاف فى كيفية

---

(١) الفتاوى جـ ١ ص ٢٨٥.

(٢) التوسل وأنواعه وأحكامه للألبانى

(٣) من محاضرة للدكتور عصام البشير.

(٤) منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف ص ٤٥.

الدعاء ولذلك فهى ليست من أمور العقيدة فلا تتصل بكفر وإيمان إنما تتصل بصواب وخطأ مما يسوغ فيه الاجتهاد - أى مسألة فرعية - لا يجوز الخصام بسببها أو الهجر أو التدابر والتقاطع، فضلا عن العقوبة كما ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله.

والخلاصة:

وخلاصة ما نريد أن نقوله: إن الشريعة الغراء جاءت فاصلة بين حدود الإيمان والشرك مبينة ما يجب اتباعه من آداب الألسن والجوارح والقلوب.

وغاية ما يؤخذ على بعض العوام من الناس الذين نعذرهم بجهلهم صدور بعض الألفاظ الموهمة التى يقولونها، والحقيقة أنهم لم يريدوا منها أن النبى ﷺ أو الولى ينفع ويضر بمعنى يخلق الضر والنفع فدعوه بها إذ هم يعتقدون أنه لا خالق إلا الله ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ ولا يستحق للعبادة إلا هو ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ فيجب أن نعلمهم أن يجتنبوا كل ما فيه إيهام مشابهة للمشركين، ويجب أن نسد هذا الباب سدا منيعا - إن هم أتوا بأمور تنافى الشرع - وننهى كل من يدعو بمثل هذا الذى يوقع فى الشرك والضلال - مما نراه فى الأضرحة والقبور - علما بأن الشرك الأكبر قلما يقع من مسلم خالط قلبه شعب الإيمان، والشرك الخفى أنواعه كثيرة وكلها وإن كانت لا تخرج المؤمن عن ملة الإسلام فقد تجر إليه كما قيل إن المعاصى بريد الكفر، وقول بعض الناس إن هذا كفر صراح وشرك جلى - دون تبيان ذلك للجاهل وتعريفه بالإسلام - من الغلو فى الدين - والله يقول: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** ﴾.

ومن ذلك يتضح:

١- أن التوسل بالأنبياء والصالحين بمعنى الإقسام بهم أو السؤال بهم خلاف فقهى يسوغ فيه الاجتهاد.

٢- أنها تخضع للصواب والخطأ لا الكفر والإيمان؛ لأن الكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة أو إنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ونحو ذلك.

٣- ليس هناك دليل قاطع فى الجواز أو المنع وعلى ذلك، فالاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد اعتقاد.

٤- أجمع المسلمون على أن المسألة لا يعاقب عليها.

٥- الذى يُعَاقِبْ مخالفه - فى مثل هذه المسألة - معتد ظالم جاهل - أو كما قال

العز بن عبد السـلام ـ المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقـوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله من المفترين على الدين[1].

فلنا بعد هذا الإيضاح أن نقول: صدقت يا إمام حين قلت:

« والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة».

* * *

(١) الفتاوى جـ١ ص ١٠٦ وكتـاب معاً على طريق الدعوة ـ شيخ الإسلام ابن تيمـية والإمام حسن البنا ص٢٠١.

العرف الخاطئ لا يغير
حقائق الألفاظ الشرعية
الأصل السادس عشر

والعرف الخاطئ لا يغير من حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها والوقوف عندها كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

* * *

العرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية

الأصل السادس عشر

« والعرف الخاطئ لا يغير من حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها والوقوف عندها كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء».

هذا الأصل يعالج:

١ـ العرف الخاطئ.

٢ـ الخداع اللفظى.

٣ ـ منع التحيّل.

٤ ـ العبرة بالمسميات لا بالأسماء.

ما هو العرف؟: العرف لغة بمعنى الشيء المعروف المستحسن الذى تتلقاه العقول السليمة بالقبول وعليه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

والأعراف منها الحسن ومنها القبيح، إذ ليس كل ما يعتاد الناس ويتعارفونه ناشئا عن حاجة صادقة ومصلحة حكيمة يكون الأمر المعتاد وسيلة ميسرة لها.

فقد يعتاد الناس عادات تقوم على جهالات وضلالات موروثة يشفى بها المجتمع وليس فيها منتفع كاسترقاق المدين المعسر عند الرومان، وفى جاهلية العرب كوأد البنات وكدفن الزوجة حية مع زوجها إذا مات عند الهنود الوثنيين، وكدفن نفائس الأموال مع أصحابها الموتى عند قدماء المصريين، فكل هذا وأمثاله عادات وأعراف قبيحة يجب أن تكافح بالتعليم والتشريع وما أكثر الأعراف القبيحة فى زماننا هذا فهى لا تعد ولا تحصى.

العرف اصطلاحا: أما فى الاصطلاح الفقهى فإن العرف هو عادة جمهور قوم فى قول أو عمل(١).

ويفهم من هذا التعريف أنه لا يتحقق وجود العرف فى أمر من الأمور إلا إذا كان مطردا بين الناس فى المكان الجارى فيه أو غالبا. بحيث يكون معظم أهل هذا العرف كل منهم يرعاه ويجرى على وفقه كتعارف الناس مثلا فى الشام أن المهر الذى يسمى للمرأة فى عقد النكاح يكون ثلثاه معجلا وثلثه مؤجلا.

(١) المدخل العام لمصطفى الزرقا جـ١ ص ١٣٠.

فيجب أن يتحقق فى تكوين العرف اعتـياد مشترك بين الجمهور وهذا لا يكون إلا فى حالة الاطراد أو الغلبة على الأقل وإلا كان تصرفا فرديا لا عرفا.

شأن العرف بين مصادر الأحكام: فى الحياة الاجتماعية التى لدى الأقوام الذين لا شريعة عندهم تكون الأعراف والعادات هى الشريـعة التى يحتكم إليها ولما كان بعض الأعراف قد تكون فى ذاتها حسنة عادلة أو قبيحة جائرة كان من جملة أهداف الشرائع التى تُسنّ أن تقر العرف الحسن وتنهى عن القبيح.

ولذلك فإن العرف والعادات كانا مصدرا من أهم المصادر للقوانين الوضعية فيستمد منه واضعوها كثيرا من الأحكام المتعارفة ويبرزونها فى صورة نصوص قانونية.

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية فأقرت كثـيرا من التصرفات والحقوق المتعارفة بين العرب والإسلام، وهذبت كثيرا، ونهت عن كثير، كما أتت بأحكام جديدة استوعبت بها تنظيم الحقوق والالتزامات بين الناس فى حياتهم الاجتماعية على أساس وفاء الحاجة والمصلحة والتوجيه إلى أفضل الحلول والنظم؛ لأن الشـرائع الإلهية إنما تبغى بأحكامها المدنية تنظيم مصالح البشر وحـقوقهم فتقر من متعارف الناس ما تراه محـققا لغايتها ملائما لأسسها وأساليبها.

العرف فى الفـقه الإسلامى : وللعرف فى الفـقه الإسلامى اعتـبار شرعى، والاجتهادات الفقهية فى الإسلام متفقه على هذا الاعتبار للعرف وإن كان بينها شىء من التفاوت فى حدوده ومداه.

وهو ـ أى العرف ـ فى نظر بعض الفقهـاء دليل شرعى كاف فى ثبوت الأحكام الإلزامية، والالتزامات التفصيلية بين الناس حيثما لا دليل سواه.

أما إذا عارض العرف نصا تشريعيا آمراً بخلاف الأمر المتعارف، ففى اعتبار العرف وعدمه وفى محل الاعتبار ودرجته تفضيل لا يتسع له المقام(١).

وغنى عن البيان أن مـا بُنى من الأحكام على العرف يتبدل بتـبدل العرف؛ ولذا وضعت القاعدة «لا يـنكر تغير الأحكام بتغير الزمـان» ولكن متى يكون للعرف هذا السلطان؟.

شرائط اعتبار العرف: لكى يكون العرف سلطان يجب أن تتوافر فيه شرائط.

١ـ أن يكون العرف مطرداً غالباً ـ كما ذكرنا.

٢ـ ألا يعارض العرف نص شرعى أو أصل قطعى فى الشريعة يكون العمل بالعرف تعطيلا له.

---

(١) المدخل العام لمصطفى الزرقا ص ١٣٥.

فالنصوص التشريعية يجب أن تفهم بحسب مدلولاتها اللغوية والعرفية فى عصر صدور النص؛ لأنها هى مراد الشارح ولا عبرة لتبديل الألفاظ فى الأعراف الزمنية المتأخرة وإلا لم يستقر للنص التشريعى معنى.

فمثلا لفظ(**فى سبيل الله**) من آية مصارف الزكاة له معنى عرفى، إذ ذاك وهو **مصالح الجهاد الشرعى، أو سبل الخيرات مطلقاً على اختلاف بين العلماء فى ذلك**، ولفظ (**ابن السبيل**) معناه العرفى من ينقطع من الناس فى السفر، فإذا تبدل عرف الناس، فأصبح مثلاً معنى (**فى سبيل الله**) طلب العلم خاصة، (**وابن السبيل**) الطفل اللقيط الذى لا يعرف له أهل فإن النص التشريعى يظل محمولا على معناه العرفى الأول عند صدوره ومعمولا به فى حدود ذلك المعنى؛ لأنه هو مراد الشارح ولا عبرة للمعانى العرفية أو الاصطلاحات الحادثة بعد ورود النص.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن العرف إذا كان مخالفا لبعض الأدلة الشرعية من نصوص الشريعة أو من قواعدها وأحوالها فالمبدأ العام الذى يستخلص من أقوال الفقهاء الباحثين إجمالا هو أنه إذا ترتب على العمل بالعرف تعطيل لنص شرعى أو أصل قطعى في الشريعة لم يكن عندئذ للعرف اعتبار؛ لأن نص الشارع مقدم على العرف.

وأما إذا لم يترتب على العرف هذا التعطيل بل كان العرف مما يمكن تنزيل النص الشرعى عليه أو التوفيق بينهما، فالعرف عندئذ معتبر وله سلطان محترم فمثلا عرف التبنى فى الجاهلية لا اعتبار له لاصطدامه بنص قرآنى ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ...** ﴾ وكذلك تجارة الخمر والربا، وزواج الشغار[(١)] وكل ما كان عرفا سائدا عند العرب وجاء القرآن بمنعه.

تقسيم العرف : العرف إما أن يتعلق باستعمال بعض الألفاظ فى معان بتعارف الناس على استعمالها فيها، وإما أن يتعلق باعتياد أنواع من الأعمال أو المعاملات.

ومن هنا انقسم العرف من حيث موضوعه ومتعلقه إلى نوعين:

١ـ عرف لفظى.

٢ـ عرف عملى.

ومن جهة أخرى فقد يكون العرف موضوعه عاما فاشيا فى جميع البلدان بين جميع الناس من أرباب الأعمال أو الصنائع أو العلوم دون سواهم وهو من هذه الناحية

(١) هو أن يتفق شخصان فيزوج كل منهما الآخر قريبته فتكون كمهر للأخرى، وبعضهم إذا ماتت إحدى المرأتين يستعيد زوجها قريبته من عند الآخر حتى يزوجه امرأة أخرى بدلا من التى ماتت فكأنه ضامن لحياتها.

ينقسم إلى نوعين أيضا:

١ـ عرف عام.

٢ـ عرف خاص.

والذى يهمنا هنا هو العرف اللفظى الذى أشار إليه الإمام البنا.

العرف اللفظى: النظر الفقهى فى حكم هذا العرف ومدى سلطانه إن كل متكلم يحمل كلامه على لغته وعُرفه فينصرف إلى المعانى المقصودة بالعرف حين التكلم، وإن خالفت المعانى الحقيقة التى وضع لها اللفظ فى أصل اللغة؛ ذلك أن العرف الطارئ قد نقل تلك الألفاظ إلى معان أخرى صارت هى الحقيقة العرفية المقصودة باللفظ فى مقابل الحقيقة اللغوية.

ولذلك أعيد على مسامعك ما قاله البنا ليتضح لك المقصود، ويقول رحمه الله:

«و العرف الخاطئ لا يغير من حقائق الألفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها، والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء».

العبرة بالمسميات لا بالأسماء: ،ولذلك وجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين ـ كما قال الإمام البنا ذلك لأن من عادة أعداء الإسلام أن يستخدموا مصطلحات يشيعونها بين الناس حتى تصبح أعرافا بينهم وهى مصطلحات خادعة براقة مهلكة يخدعون بها المسلمين باستخدام ألفاظ مقبولة له، معناها ـ فى اللغة ـ معنى حسن، بينما معناها فى الشرع مرفوض غير مقبول بل منهى عنه وإليك أمثلة على ذلك.

المشروبات الروحية معناها اللغوى غير معناها المقصود لديهمْ وهى الخمور بأنواعها فماذا لو سميت الأقرع « **أبو شعر**» فهل هذا الاسم يغير من حقيقته أنه أقرع وكذلك ولو سميت الأعمى «**أبو العيون**» والمكسح «**أبو سريع**» لا يغير ذلك من المسميات شيئا.

وقس على ذلك الكثير:

الفائدة ويقصدون الربا. واليانصيب الخيرى ويقصد به الميسر، القيم الروحية ويقصدون وحدة الأديان سواء كانت سماوية أو وضعية ليتميع الإسلام، الروح الجامعية ويقصد بها اختلاط الرجال بالنساء. العمولة: ويقصد بها الرشوة فى الغالب الأعم. التطرف: ويقصد به التمسك بالإسلام. التقدم والحضارة: ويقصد بهما أهل الغرب

والشرق اللاديني والعلمانية وترك منهج الله وهكذا، ولذلك قال العلماء لو صرف كلام المتكلم إلى حقيقته اللغوية دون العرفية التي هي معناه في عرف المتكلم لترتب عليه إلزام المتكلم في عقوده وإقراره وحلفه وسائر تصرفاته القولية بما لا يعنيه هو ولا يفهمه الناس من كلامه.

ولذا وضع الفقهاء المبدأ العام القائل: «يحمل كلام الحالف والناذر والموصى والواقف وكل عاقد على لغته وعرفه وإن خالف لغة العرب ولغة الشارع[1]».

وعلى هذا الأساس قرر الفقهاء أحكاما كثيرة منها أنه:[2]

مثلا: لو حلف الإنسان أن لا يضع قدمه في دارفلان، انصرفت اليمين إلى معنى دخول الدار؛ لأنه المعنى العرفي لا إلى مجرد وضع القدم الذي هو الحقيقة اللغوية فلو دخلها راكبا دون أن تمس قدمه أرضها يحنث في يمينه شرعا وتجب عليه الكفارة، ولو مدّ رجله من خارجها فوضعها فيها دون أن يدخل لا يحنث.

مثال آخر : إذا تعارف الناس على إيقاع الطلاق بألفاظ وتعابير جديدة فشى استعمالها بينهم فإنها يقع بها الطلاق، ولو كانت في أصل اللغة لا تقتضي الوقوع كلفظ **«عليّ الطلاق»** الذي يستعمله الرجال في هذا الزمان عند إرادة التطليق مع أن الطلاق وصف يقع على المرأة التي هي محله شرعا لا الرجل.

ويتضح من ذلك أن العرف اللفظي بوجه عام تنشأ به لغة جديدة تكون هي المعتبرة في تنزيل كلام الناس عليها، وتحديد ما يترتب على تصرفاتهم القولية من حقوق وواجبات بحسب المعاني العرفية، وبالنسبة للغة العامية يحمل كلام الناس فيها على معناه المتعارف بينهم - فالعبرة بالمسميات لا الأسماء - وقد يختلف المعنى من بلد عن آخر فيعتبر في كل مكان عرفه الخاص في التخاطب حتى تنضبط الأعراف بضوابط الشرع الحكيم.

منع التحيّل: وبهذه المناسبة فإن بعض الناس تشيع بينهم أعراف ظاهرها كأنه عمل مشروع ولكن يقصد به إسقاط واجب أو ارتكاب الحرام ليكون حلالا في الظاهر.

وإليك بعض الأمثلة:[3]

١- البيع مثلا له مقاصد ومصالح هي حاجة المشتري إلى السلعة وحاجة البائع إلى

---

(١)مجموعة رسائل ابن عابدين نقلا عن فتاوى العلامة قاسم ٢/١٣٣ ومن كتاب المدخل العام لمصطفى الزرقا جـ ٢ ص ٨٥٣.

(٢) الأمثلة من كتاب المدخل العام لمصطفى الزرقا ص ٨٥٣.

(٣)نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي د. حسين حامد طبعة ١٩٧١م ص ٢٦٩ وما بعدها.

الثمن، فإذا باع شخص سلعة بعشرة قروش إلى أجل ثم اشتراها نفس البائع قبل الأجل بخمسة نقداً. هذا البيع يحقق مفسدة وقد استخدم الخداع اللفظى بكلمة البيع بينما الحقيقة هى الإقراض بالربا بعينه.

٢ـ الهبة مشروعة لما لها من مقاصد كريمة، ولكن إذا وهب شخص ماله فى آخر الحول هربا من الزكاة فإن الهبة فى هذه الحالة لا تحمل إلا اسمها؛ لأنها لم تحقق الغرض منها ولكن مآل هذه الهبة المنع من الزكاة وهى مفسدة.

٣ـ عقد الزواج ينعقد بالألفاظ ـ الإيجاب والقبول ـ وهى الصيغة والألفاظ إنما هى معبرة عن الرضا، ولكن إذا قصد بالألفاظ غير ما وضعت له فإن الرضا بالعقد يكون منعدما، وعلى ذلك فإن المحلل يقول نفس الألفاظ ولكن الألفاظ فى هذه الحالة لا تكون سببا لترتب الآثار إلا إذا كان القصد منها معناها وموجبها فلفظ النكاح لم يوضع ليحلل مطلقة وإنما هو لدوام العشرة وحفظ النسل وغير ذلك من المقاصد الكريمة.

وعلى ذلك إذا كان ظاهر الفعل موافقا للشرع والمصلحة مخالفة له، فالفعل غير صحيح وغير مشروع؛ لأن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لذاتها وإنما قصد بها أمور هى المعانى والمقاصد التى شرعت لها، فالألفاظ لا عبرة بها إذا لم توافق المعانى الشرعية التى قصدها الشارع.

وهكذا يطهر المسلم باطنه وتصح نيته ويتقبل الله قوله حتى ولو خالف المعنى الذى يقصده ـ دون قصد ـ كالذى كاد يهلك فى الصحراء بعد أن فقد راحلته فلما وجدها فإذا به من شده فرحه يقول: **«اللهم أنت عبدى وأنا ربك»** ـ من سعادته الغامرة ـ وهو يقصد أن يقول: **«اللهم أنت ربى وأنا عبدك»** فالعبرة بالمقاصد وعلى المسلم أن يطهر قوله كما يطهر فعله حتى يصبح ظاهره كباطنه ويستشعر قول الله ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾.

* * *

عمل القلب
وعمل الجارحة

الأصل السابع عشر

والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

* * *

عمل القلب وعمل الجارحة

الأصل السابع عشر

« والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب».

هذا الأصل يعالج:

١ـ العقيدة أساس العمل.

٢ـ عمل القلب وعمل الجارحة.

٣ـ تحصيل الكمال فى كليهما مطلوب.

ما هى العقيدة: هى التصديق بالشىء والجزم به دون شك أو ريبة، فهى بمعنى الإيمان يقال: أعتقد فى كذا أى آمن به، والإيمان بمعنى التصديق يقال: آمن بالشىء أى صدق به تصديقا لا ريب فيه ولا شك معه(١).

وعلى هذا فهى ما بلغه الرسول ﷺ من الحقائق المتعلقة بالغيب من مثل الوجود الإلهى وثبوت صفات الكمال المطلق للذات الإلهية وثبوت الوحى والبعث وعالم الملائكة والجن وغير ذلك مما بلغه رسول الله ﷺ متصلا بالاعتقاد.

وهى رأس التدين وأساسه وكل ما سواها من الأعمال مبنى عليها وتابع لها ولذلك فإن صلاح الأعمال رهين بحسن الاعتقاد فلا يكون المسلم مسلما حقا إلا إذا صح اعتقاده أولا ثم يصدق اتباعه؛ لأن العقيدة هى الركن الركين، والأساس المتين، والصراط المستقيم الذى عليه يقام صرح الإسلام العظيم. فبدونها لا تقام أركانه ولا يستوى نظامه. ولا تقبل أعماله ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠].

إنها ميراث رسل الله جميعا، وهى التى ربطت بين المؤمنين بدين الله الواحد الذى لا يختلف فى الزمان ولا فى المكان بل هى التى توجه إلى شرف الحياة، ألا ترى كيف دان للحفاة العراة رعاة الشاة القياصرة والأكاسرة وأصبحوا خير أمة أخرجت للناس بعقيدة التوحيد.

إن المؤمن بالله بخير ما صحت عقيدته فيه، وصح إيمانه به فأسلم وجهه لله وهو محسن، إنه حينئذ يراه مالك الأمر كله، وبيده ملكوت السموات والأرض وهو وحده

(١) العقائد الإسلامية لفضيلة الشيخ سيد سابق ص ٨.

الذى يقدر على النفع والضر والعطاء والمنع، وليس لأحد مهما كان سلطانه وجبروته يملك ذلك، فهو سبحانه الذى يجير ولا يجار عليه ولا يرجى غيره ولا يخاف سواه. وهو سبحانه الذى يوثق فى نصره وعونه وتأييده وبهذا يتميز رجل العقيدة عن غيره.

العقيدة والرجال : إن عقيدة التوحيد التى صنعت الرجال فى كل زمان ومكان وسل التاريخ عن أعمالهم بعد أن تمكنت العقيدة من قلوبهم سل عن ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٥ - ٩].

وقف متأملا أمام سحرة فرعون لما دخل الإيمان قلوبهم فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، وسل عن ياسر وعمار وسمية، وبلال وصهيب وخباب وغيرهم رجالا ونساء، شبابا وشيبة بل صبية وأطفالاً، سل عنهم فى بدر وأحد وحمراء الأسد يوم أن ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[الاحزاب: ١٧٣] ويوم تحزب الأحزاب﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب : ٢٢].

بل سل عن رجال العقيدة فى اليرموك وحطين والقادسية وغيرها من المواقف التي سجلها التاريخ بسطور من النور وما قصة العقيدة وأثرها اليوم منا ببعيد، فرجال الأفغان يضربون المثل، وأطفال الحجارة فى فلسطين، وفى كل مكان فيه رجال يحبون أن يتطهروا.

وما زال عطاء العقيدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يدفع الرجال إلى أعظم الأعمال ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]

ولو سئلت كم عدد المسلمين فى زماننا هذا وكم عددهم بالأمس لعرفت لمَ عزَّ هؤلاء مع قلتهم وذلَّ هؤلاء مع كثرتهم؟ ولمَ انتشر هؤلاء بدينهم، ولمَ انحسر هؤلاء فى بلادهم، ولمَ أصبح المسلمون اليوم ذيلا وتبعاً لغيرهم، بينما كانوا شهداء على الناس يوم مجدهم. الإجابة بكل بساطة إنها العقيدة التى تصنع الرجال.

العقيدة أساس العمل : إن بناء الإسلام دعامته العقيدة فإذا انهارت الدعامة أو اختلفت الغاية فقدت نظم الإسلام قيمها وصارت شيئا آخر لا يمت إلى الإسلام بصلة ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[إبراهيم: ١٨].

إن العقيدة هى مفترق الطريق بين سبيل الله وسبل الشيطان، وبين الحياة الإسلامية، والحياة الأخرى، وفى التصور والاعتقاد، والحياة والسلوك؛ ذلك لأن التفرد والتميز بطبيعة الحياة الإسلامية كلها لا لطبيعة الاعتقاد وحده، فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق من عقيدة الإسلام، فأثر العقيدة فى القلب ينشأ عنه التوكل على الله فى كل عمل والثقة فى الله ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[إبراهيم: ١٢].

ولذلك فإن المسلم حين كان يقبل الإسلام كان يشعر فى اللحظة التى يجىء فيها إليه أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها قبل الإسلام وأن أعماله قبل ذلك كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، أما اليوم فإنه يرتوى من المعين الذى لا ينضب يستظل بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

ذلك لأن إصلاح الفرد إصلاحا يجعله جديراً بحمل المبادئ الفاضلة والعمل لتحقيق الأهداف السامية لا يتم ولا يؤدى ثمرته المرجوة إلا إذا مسّ التغيير نفسه التى بين جنبيه باعتبارها مصدر السلوك وموطن الشعور ومبعث العمل التى توصف بالخير أو الشر وتضع الإنسان مع الأخيار المفلحين أو الأشرار الخائبين ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[الشمس: ٧-١٠].

والعقيدة التى يتوقف عليها مصير الإنسان وسعادته؛ وذلك لأن العقيدة الإسلامية تهذب السلوك فتسمو النفس وتحب الفضائل فإذا بعمل المسلم يزينه الصدق والوفاء والكرم والشجاعة والإيثار والتضحية فتنشأ شخصية ذات مثل أعلى يتصل بالله فإذا بصاحبها يطلب الحقيقة أين كانت، وسيطرة هذه المثل العليا على النفس المؤمنة توحدها وتربط دوافعها وعادتها برباط واحد تحت قيادة واحدة تسير النفس فى ظلها منسجمة آمنة مطمئنة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وهو بهذه العقيدة الحقة لا يخاف ظلماً ولا هضماً، ولا يخاف بخساً ولا رهقاً، ولا يضل ولا يشقى، ويعيش حياة هنيئة سعيدة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[النحل: ٩٧].

وصاحب العقيدة الصحيحة يتعلم من القرآن قيمة العمل فى حياة الإنسان فى الدنيا والآخرة فيجده - أى القرآن - يقرن الإيمان [بمعنى التصديق] بالعمل دائما بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

[الكهف: ١٠٧] ويقول﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [التغابن: ٩] ويقول﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[الرعد: ٢٩].

عقيدة بلا عمل: وكيف لعقيدة أن تدوم وتسود دون عمل؟ فهل لنهر لا يفيض ماؤه قيمة؟ وما فائدة قمر لا ينساب ضياؤه؟ وزهر لا يفوح عبيره؟ بل ما معنى الفضيلة إن لم تصبح سلوكا للأفراد والجماعات؟ وما معنى أن تصبح المثل العليا نظريات للبحث والدراسة دون أن تتمثل لها قدوة فاضلة وسلوك رشيد؟.

ولعمرى إن الأمر على مايقول الشاعر الواقعى:

كل نهــــر لا ارتواء به ... لا أبالى ســال أم نضبــا
كل نجم لا اهتــــداء به ... لا أبالى راح أم غـــــربا
إن صــدقــا لا أحس به ... لهــو شىء يشبــه الكذبا

قيمة العقيدة: إن قيمة العقيدة أن تتجاوز التصور إلى العمل والقدوة وأن تجعل من صاحبها أسوة حسنة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقيمة العبادة أن تنشئ المعاملة الحسنة وبذلك يظهر المثال الواقعى لما ندعو إليه [1] ولذلك فإن الذى ضاع من المسلمين اليوم وافتقدوه هم شخصيتهم الإسلامية الأخلاقية التى صنعتها العقيدة.

إن عقيدة الإسلام ليست تلك العقيدة التى تنزوى فى الوجدان أو تلوذ بالمسجد أو تعتصم بركن من أركان الحياة، كــلا، إنها منهج حياة متكاملة تأبى إلا أن تخضع كل شىء فيه للواحد القهار.

فهى عقيدة علم وحياة تنعكس آثارها الواقــعية على الوجدان ضياءً وعلى المجتمع بناء، وعلى العلم صديقــا ودودا فى رحلة الحياة، ومن ثم فإن كل إنجــاز علمى يعد رصيداً رائعا للعقيدة والإيمان لا يزحزحهما عن مكانهما وإنما يدعمهما ويمنحها الصمود والبقاء ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣].

ولذلك فإن أعداء الإسلام يحاولون دائما أن يحاصروا تلك العقيدة القوية أو يذيبوا روحها حتى تبرد حرارة المسلمين أو يحبســوها فى الوجدان منفصلة عن الحياة معتزلة واقع المجتمع سياسياً واجتماعياً وأخــلاقياً وتنظيمياً وأنَّى لهم هذه وهى عقيدة شمول وتوحيد لوجدان المسلم فيما يعتقد، وتــوحيد لخضوعه لله، وتوحيد فى مطالب جسده وروحه ودنياه وآخرته.

---

(١) واقعية المنهج القرآنى توفيق محمد سبع.

وكم جهد أعداء الإسلام أنفسهم ليحولوا هذه العقيدة إلى مجرد قيم روحية لا واقع لها فى مناحى حياتهم فلم يستطيعوا لأن طبيعة العقيدة الإسلامية تأبى ذلك وسل عن تركيا وما أحدثه أتاتورك أتاتورك وعاد الإسلام لتركيا نحن ذا نسمع (الله أكبر) من جديد تعلو مآذنها ويعود شبابها إلى الإسلام من جديد وقد خاب من افترى.

تفاوت الناس فى الأعمال الصالحة: إن الأعمال الصالحة المأمور بها يتفاوت الناس فى أدائها وكذلك يتفاوتون فى اجتناب المحرمات صغائرها وكبائرها فإنه يقال: إن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى فليست الزيادة والنقص منصبين على نفس الاعتقاد بوجود الله وثبوت صفاته العظمى له إذ إن ذلك لا يزيد ولا ينقص عادة إنما الذى يزيد وينقص هو مقدار الاطمئنان القلبى بآيات الله وحسن التوكل عليه، وجميل عدله وعظيم ثوابه وعقابه على الأفعال الإنسانية.

يقول لقمان لابنه وهو يعظه: يا بنى إن الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حرون، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق، وإن فتر قائدها حرنت،فإذا اجتمعا استقامت.

ويقول الإمام على رضى الله عنه:[1] إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك المحرمات نمت وزادت حتى يسودّ القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله:

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

عمل القلب : ولما كانت العقيدة ـ الإيمان ـ محلها القلب، فإن معاصى القلوب أخطر بكثير من معاصى الجوارح، فالأولى أعاذنا الله تؤدى إلى الكفر، وأما الأخرى فتؤدى إلى الصغائر أو الكبائر.

إن القلب السليم هو المحور الفذ للقبول، والله وحده يعلم أين يكون، وكان علماؤنا الأوائل موفقين عندما قسموا المعاصى إلى معاصى القلوب ومعاصى الجوارح أو بتعبير معاصر: معاصى بدنية ومعاصى نفسية.

إن المعاصى البدنية ـ الجوارح ـ شهوات محدودة الخطر على قبحها وسوء مخبثها أما معاصى القلوب أو الرذائل النفسية تسيطر على أصحابها فلا يعرفون منها متابا،

---

(١) العقيدة الإسلامية فى المرآة أو التوحيد الخالص للأستاذ عبد العزيز عطية ص ١٧.

وتأمل موقف إبليس بعد ما عصى الأمر بالسجود، لقد مضى فى تحدّ به يقول لله أهذا آدم الذى فضلته علىّ؟ ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[الإسراء:٦٢].

فقسوة القلب وعماه لعنة إلهية على رءوس الناقضين للمواثيق المارقين، اللاعبين بالإيمان: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً .. ﴾[المائدة:١٣] فهم بهذا السلوك والاعتقاد الفاسد قساة القلوب لا يعرفون(١) تواضعا.

فمعاصى القلوب أخطر من معاصى الجوارح ولا نستطيع أن نساوى بين أكل آدم الشجرة المحرمة وهى معصية مع تكبر إبليس على الله فشتان بين الاثنين.

ولذلك فإن تقوى القلوب فى الحقيقة هى التى تقود تقوى الجوارح كما قال المولى ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[الحج:٣٢] وقال: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[الحج:٣٧] ومن هنا فإننا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: « التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره.

فالكيس يقطع المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد، وصحة النيلُ مع العمل القليل، واسمع إلى قول على ﷺ يقول: لا تهتموا بقلة العمل واهتموا بالقبول، فإن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل: « أخلص العمل يُجزِك» أى يكفى منه القليل(٢)

إن العزيمة والمحبة فى القلب تذهب المشقة وتطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل(٣).

وأنت تسمع قول ربنا لرسولنا ﷺ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ وهذا الثقل تخففه النية الصادقة فى القلب المحب لأن هداية القلب، وإضاءة النفس ونهضات الهمم إنما يزكيهن الجد فاستجلب نور الجد بدوام الجد فلابد من الجد الدائم؛ لأن خواطر

(١) دستور الوحدة الثقافية للشيخ محمد الغزالى ص ١٨٩ بتصرف.

(٢) قال الحافظ العراقى، حديث معاذ أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وإسناده منقطع من كتاب موعظة المؤمنين من كتاب إحياء علوم الدين ص ٤٤٣.

(٣) الفوائد لابن القيم ص ١٤٠.

الفكر دائمة وحركات الجوارح متصلة، فالفكر لا يحد واللسان لا يصمت والجوارح لا تسكن ولذا يقول بعض السلف: إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى ومشربى ونومى ودخولى الخلاء يقول الحسن البصرى: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتى، ما أردت بأكلتى، ما أردت بحديثى، وإن الفاجر يمضى قدما ولا يعاتب نفسه؛ لأن حقيقة الإيمان لم يتم تمامها فى القلب حتى يتعرض المسلم لمجاهدة النفس والناس ولذلك كان علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة. بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص[1]، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها؛ ولذلك علمنا الرسول ﷺ لكى يكون العمل خالصا لوجه الله سبحانه ليس لأحد فيه شىء أن تقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه**».

يقول عثمان بن عفان: لو سلمت منا القلوب ما شبعت من كلام الله عز وجل، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهوغاية مطلوبه. فما هو القلب السليم؟.

القلب السليم: هو القلب الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ○ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]. وهو القلب الذى سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية سواه، وسلم من تحكم غير رسوله، فتوكل على الله وأناب إليه وذل له وخلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وخشية ورجاء[2].

ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك ومن البدع والباطل ولذلك تسلم جميع أذواقه وأحواله وأعماله ومواجده ظاهراً وباطناً لله فيسالم أولياء الله ويعادى أعداءه[3]. وصدق ابن مسعود إذ يقول: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر.

ولذلك فإن القلب يمرض بل ويموت وله أحوال عند ورود الحق المنزل عليه، فهناك قلب يفتن به كفراً وجحوداً، وقلب يزداد به إيمانا وتصديقا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدرى ما يراد به.

---

(١) الدعوة قواعد وأصول للمؤلف ص ٤٨.
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم.
(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ص ٤١ بتصرف.

يقول حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأى قلب أُشْرِ بها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نُكتت نكتة بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مُرْبَادًا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أُشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض»[1].

والخلاصة:

الإسلام هو دين الله وهو إيمان وعمل

والإيمان يمثل العقيدة، والأصول التى تقوم عليها شرائع الإسلام ومنها تنبثق فروعه.

والعمل يمثل الشريعة، والفروع التى تعتبر امتداداً للإيمان والعقيدة.

والإيمان والعمل أو العقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر ارتباط الثمار بالأشجار أو ارتباط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات.

ومن أجل هذا الترابط الوثيق يأتى العمل مقترنا بالإيمان فى أكثر آيات القرآن الكريم﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[البقرة: ٢٥] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾[مريم: ٩٦].

ولذلك أقسم المولى فقال: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر: ١-٣] والحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصى بهما فكان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ـ بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العلية ويخص به من الخسران المبين وليس ذلك إلا بتقوى الله وتقوى الله تتحقق بذلك ﴿الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

فلكى نحقق تقوى القلوب علينا بالإقبال على القرآن نتفهمه ونتدبره ونستخرج كنوزه وآثاره ودفائنه، وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد فى المعاش والمعاد والموصل لهم إلى سبيل الرشاد. ولذلك كان الراعى والخليفة والولاة والأمراء دائما وأبداً ينصحون الرعية بتقوى الله لتحصيل الكمال فى عمل القلب والجوارح؛ لأن كليهما مطلوب شرعاً واسمع إلى عمر بن الخطاب يكتب إلى سعد بن أبى وقاص أمير الجنود فى حرب الفرس يقول له: أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة

(١) رواه مسلم ـ النووى.

فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من العدو فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

ومن هذا العرض السريع لأهمية العقيدة فإنك ترى جميع المسلمين يقرون أن العقيدة هى الأساس لا يختلف فى ذلك مسلم، ولكن الخلاف فى أسبقية طرحها، فيجب أن تقدم فى إطارها الكلى ونعالج بها مشاكل عصرنا سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية أم أخلاقية.

فحينما نتكلم عن جوانب التوحيد الثلاثة الربوبية والألوهية والأسماء والصفات فننزه الله تعالى عن المشابهة بخلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ونصفه بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا كيف « أمّروها بلا كيف» كما قلنا.

فإن من المهم أيضا إذا أبرزنا توحيد العبادة أو الألوهية فلا نتكلم عن شرك القبور والاستعانة بغير ذلك ـ وهذا خلل لا شك فى ذلك فى العقيدة يجب تصحيحه ـ ولكن ليس هو الخلل وحده ولا الانحراف الوحيد، فإذا قلنا لا يستغاث بغير الله فيجب أن نقول لا تشريع لغير الله ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ ولا حكم إلا لكتاب الله وهذه أخص خصائصه سبحانه.

فلماذا نتكلم عن شرك القبور ولا نتكلم عن شرك التشريع ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ولقد بينه الرسول ﷺ عندما رأى عدى بن حاتم فى رقبته صليب فقال له: الق عنك هذا الوثن ثم قرأ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ فقال عدى : يا رسول الله ما كنا نعبدهم فبين له الرسول ﷺ أن عبادتهم هو تحريم الحلال لهم وتحليل الحرام.

فالشرك فى العقيدة لا يقتصر علي شرك العبادة بل هناك شرك السياسة حين تتخذ الأوامر المخالفة لشرع الله طاعة، وهناك بجوار ذلك شرك الهوى، وشرك المحبة ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ وشرك الاقتصاد فى حب المال.

لذلك فيجب ألا يقتصر نظرنا على الشرك فى جانب واحد حتى نصحح للناس مفهوم العقيدة الشامل ثم نقدم للناس العقيدة والعمل معا كمنهاج حياة؛ لأن العقيدة هى أساس العمل حقا وعمل القلب كما فهمنا أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعا وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

استخدام العقل فى التفكر
والتدبر فى الآفاق واحترام العلم والعلماء
الأصل الثامن عشر

والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شىء. والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

* * *

استخدام العقل فى التفكر والتدبر فى الآفاق واحترام العلم والعلماء

الأصل الثامن عشر

« والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شىء والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها».

هذا الأصل يعالج:

١ـ الإسلام والعقل.

٢ـ التفكر فى الآفاق.

٣ـ احترام العلم والعلماء.

٤ـ الترحيب بكل صالح نافع.

٥ـ الحكمة ضالة المؤمن.

ما هو العقل: هو تلك المَلَكَة الفطرية فى الإنسان التى يستطيع بها أن يرتب محصول الحواس، وأن يدرك ما وراءها من المعانى المجردة وأن يميز بطرق ومناهج معينة ما هو حق وما هو باطل ـ إن استخدم عقله كما أراده الله له ـ ولذلك فهو أساس التكليف فمن لا عقل له ليس مخاطبا بتعاليم الدين أصولا وفروعا يقول ﷺ : «يُرفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يعقل، وعن المولود حتى يبلغ الحلم ـ أو كما قال ﷺ».

والعقل محله القلب وهو مروى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه ودليلهم قوله تعالى﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[الحج:٤٦] وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[ق:٣٧]. قالوا المراد لمن كان له عقل فعبر بالقلب عن العقل لأنه محله.

ونقل الفضل بن زياد عن أحمد رحمه الله أن محله الدماغ وهو اختيار أصحاب أبى حنيفة رحمه الله(١).

(١) ذم الهوى لابن الجوزى ص ٥.

فهم لابد منه:

نريد أن نسأل سؤالا نطرحه ونقول: سواء كان محل العقل القلب أو الدماغ هل نحكمه فى كل شىء أم أنه كالحواس سواءً بسواء له مدى لا يتعداه وله مجال لا يخرج عنه؟

والإجابة: إننا لا نستطيع أن نحكم العقل فى كل شىء، يمتد مداه إلى غير مالا نهاية لأن العقل لا يستطيع أن يدرك شيئا حتى يحصره بين أمرين: الزمان، والمكان فما لم ينحصر بينهما لم يدركه العقل بنفسه، فالعقل لا يحكم إلا فى حدود الزمان والمكان فما كان خارجا عنهما من مسائل مثل الروح وأمور القدر، وأسماء الله وصفاته وغير ذلك، فلا حكم للعقل عليه؛ ذلك لأن العقل محدود والمحدود لا يحكم على غير المحدود، ولا يستطيع أن يحيط به.

فالعقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود، ويقع فى التناقض المستحيل إذا بحث فيما لا ينتهى كالبحث فى عالم الغيب مثلا، وخلود المؤمنين فى الجنة، فعقل المؤمن موقن بأن ذلك حقيقة وجاءه هذا اليقين من الخبر الصادق ولكن عقله لا يحيط بهذا الخلود، فالعقل يحتاج إلى نور الوحى لكى يضىء له الطريق ويحدد له المعنى المراد.

فكم زلت أقدام بعد ثبوتها حين أطلقت للعقل العنان وجعلته هو المنشئ المريد، وكم هوت عقول فى مكان سحيق وتخطفتها الطير وكم من عقل مضى فى الطريق فضلّ حين رفض الوحى مرشدا فإذا هو بسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، أو يعيش فى ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومَنْ لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

ولا يحسبن أحد أننا بذلك ندعو إلى تعطيل العقل أو تحجيمه بل ندعوه لانطلاق بعيد المدى فى جميع الآفاق ولكن فى حدود مجاله وفيما خلق من أجله، فالذين عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم، وغفلوا عن الحق واتبعوا الباطل الذى لا دليل عليه ولا برهان استتار الحق عقولهم فقال: ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾[الأنعام:١٤٨] ويذكرهم بيوم يقولون فيه: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠-١١].

تلاميذ إبليس والعقل:

إن عبادة العقل والتحاكم إليه ليس بجديد بل هو من يوم أن قال إبليس لربه: خلقتنى من نار وخلقته من طين، لقد جعل إبليس له رأيا مع أمر الله وقارن بين النار والتراب واستخدم حواسه فضلّ وأضل.

وتلاميذ إبليس الذين تخرجوا من مدرسته وحكموا عقولهم فى أمور ليس للعقل أن يحكم فيها وصلوا إلى أن قالوا: أرنا الله جهرة بأعين لا تستطيع أن ترى ما في الكون المادى المحسوس وصدق الله حين قال: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك:٤] فهل هذا من العقل أو من التفكير السديد؟ ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦].

إن هذا التفكير التافه المريض أوصل بعضهم إلى أن يقول: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾[غافر:٣٦-٣٧] فهل رأيت أحط من هذا التفكير.

ويحضرنى قصة لطيفة وقعت فى إحدى المدارس حين وقف معلم ابتدائى يقول لتلاميذه: أترونني؟ قالوا: نعم. قال: فإذن أنا موجود، أترون اللوح؟ قالوا: نعم. قال: فاللوح إذن موجود، أترون المكتب؟ قالوا: نعم قال: فالمكتب إذن موجود، قال: أترون الله؟ قالوا: لا. قال: فالله إذن غير موجود ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فوقف أحد التلاميذ الأذكياء وقال: وأترون عقل الأستاذ: قالوا: لا. قال: فعقل الأستاذ إذن غير موجود.

ولذلك فالعقل لابد أن يقوده الوحى يبصره بالطريق ويهديه السبيل حتى لا يضل ولذا كان ضمن منهج الإسلام تربية العقل.

الإسلام والعقل: الدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق ولا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاع، فلا ترجمان بين الله وبين عباده يملك التحريم والتحليل أو يقضى بالثواب والعقاب، ودين هذا شأنه لن يتجه فيه الخطاب بداهة إلى غير الإنسان العاقل(١).

ولذلك خلق الله الإنسان ومدّه بإمكانات تؤهله للسيادة على الأرض بهذه العقيدة

---

(١) الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية أطراف من بحث التربية الإسلامية وأثرها فى المجتمع الدكتور عبدالرحمن عميرة ص ٢٧٦.

الصافية التى يشيد عليها نظاما ربانيا يحقق للبشرية سعادتها فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة من هذه الإمكانات العقل الذى يهدى الإنسان فى مسالك الحياة فإذا بالإيمان يملأ قلبه فيدفعه إلى ارتياد هذه المسالك فيسعى ليسخر ما فى الكون لرسالته فيسيطر على البر والبحر ويحصل رزقه من الطيبات مما فى الأرض ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٠].

وبذلك يكون قد استخدم عقله للهداية لا للإفساد، وقلبه للإيمان ومحبة عباد الله الصالحين لا للكفر والحقد والكراهية، ويسعى فى تحصيل الخير وعمران الأرض فإذا به بهذا العقل الراجح والقلب السليم يصبح سيد نفسه فيؤمن بالحق وينصره، ويكفر بالباطل ويطارده؛ لأن الإسلام يريد للإنسان أن يكون إنساناً(١).

من أجل هذا كان خطاب المولى سبحانه وتعالى للعقل الصائب والإدراك السليم أن يعقل ويتفكر ويتأمل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ...﴾[سبأ: ٤٦].

إنها دعوة إلى العقل المجرد ليفكر تفكيراً سليما بعيدا عن الهوى والظن ويعرف أن له خالقا خلقه وصانعا أوجده، ولقد ضرب القرآن المثل ليوضح ذلك للعاقلين، يقول بعض السلف: إذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣](٢) قال الحسن: ما يتم دين الرجل حتى يتم عقله وما أودع الله امرأ عقلاً إلا استنقذه به يوماً.

واسمع إلى القرآن وهو يثير العقول لتعى وتنظر وتتدبر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٧٣-٧٤]. والله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦] والآيات التى تثير العقل وتدعوه إلى التفكر للوصول للهداية الحقة كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[المؤمنون: ٩١] ويقول للرسول ﷺ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢] وبذلك يحرر الإسلام العقل ولا يشله عن التفكير.

(١) منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف ص ١٣.

(٢) مختصر ابن كثير للصابونى جـ١ ص٤٥.

واسمع إلى هذه الآية التى تبين العقول الممسوخة وهى تقول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢] فهل هذه عقول سليمة فبدل أن يقولوا ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فاهْدِنَا إِلَيْهِ﴾ يقولون ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ألا فما أقبحها عقول!!!

العقائد الأخرى والعقل: لقد أشارت كتب الأديان الكبرى إلى العقل ولكن الحديث عنه كان يأتى عرضا غير مقصود بل إننا نرى بعد تحريف هذه الكتب ـ الزراية بالعقل أو التحذير منه ـ يقولون: أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى[(١)] فاحمد الله على إسلامك.

إن رجال الدين فى أوربا وغيرها كانوا يعتبرون التفكير والنظر فى مسائل الدين قرين الكفر والإلحاد، ومن ثم ظل الفكر الإنسانى قرونا طويلة مكبلا بالقيود والأغلال فى ظل العقائد والعبادات الضالة المنحرفة وهو سر الأسطورة التى ذاعت فى العصر الحديث فى أوربا من عداء الدين للعلم والنظر والتفكير والكشف.

ولقد ابتدع رجال الدين فى أوربا كثيرا من الأساطير والألغاز وأحاطوا العقيدة السمحة بكثير من الغموض والأسرار حتى يكون لهم على نفوس الناس سلطان، ويكون لهم فى الحياة عمل يُحلّون الرموز ويكشفون الأسرار فلا يتوب مذنب ولا يصلى عابد ولا يدعو إنسان أو يتصل بخالقه أو يفارق الدنيا إلا على يد كاهن أو قديس.

فأين هذا من قول ربنا ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦] وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

ومن ثم ثار القرآن ثورة عارمة على الشرك والكهانة والوساطة فقضى على جميع مظاهر العبودية لغير الله، وحرر العقول وطالبها بالتفكير والتدبر وأشاع فيها اليقظة والنور وجعل الصلة مباشرة بين العبد وخالقه لا تحتاج إلى وساطة ولا كهانة ـ كما رأيت.

لقد كانت الرسالات السابقة تعتمد على المعجزات الحسية التى تراها العين لترغم الناس على التصديق والإيمان، فجاء القرآن بمنهج جديد يتفق مع ما يراد للبشرية من اكتمال ورشد، منهج العقل الذى لا يعتمد على قسر أو معجزة طليق من كل قيد أو إكراه، ولذلك فإن العقل فى الإسلام لا يذكر إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب

---

(١) دائرة معارف القرن التاسع عشر كتاب الإسلام دين خالد ص١١٤ نقلا عن كتاب منهج القرآن فى التربية محمد شديد ص١٢٨.

العمل به والرجوع إليه، وفى القرآن آيات كثيرة تحث المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها على إهمال عقله وقبول الحجر عليه. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الجاثية ٣-٥] وفى المقابل يقول تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[الأنفال: ٢٢].

العقل ثورة على الهوى والتقليد: ولقد حمل القرآن على الغافلين الذين يعطلون عقولهم ويغلقون فى أنفسهم منافذ المعرفة والنور، وهبط بهم دون مستوى الأنعام ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا(١) لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وهاجم التقليد والمقلدين لآبائهم الضالين وصورهم فى صورة السائمة التى لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ(٢) بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٧٠-١٧١].

وعرض صورة معبرة مثيرة للذين لا يريدون أن يسمعوا أو يفكروا من قوم نوح ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا(٣) ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥ ـ ٧] فأين هؤلاء من الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[الزمر: ١٨].

تحرير العقل من التعطل:

لا شك أن الإسلام بعقيدته الصافية يحرر العقل من سلطان الخرافة والوهم، والجمود والتقليد؛ ذلك لأن العقيدة ترسخ الحقائق فى العقول وتدحض منطق الانحراف والضلال وتنبه الإنسان إلى مشاهد هذا الكون بإثارة نزوعه الفطرى الأصيل نحو التأمل المنتج والتدبر الهادف فيما خلق الله فى هذا الكون من مخلوقات تحيط

(١) ذرأنا: خلقنا. (٢) وينعق يصيح غنمه، وألفينا وجدنا.

(٣) واستغشوا : غطوا.

بالإنسان من كل جانب، وتدل بروعة إنشائها ودقة إحكامها وكمال تناسقها، ووحدة نواميسها على عظمة بارئها، وقدرة مصورها وفى ذلك أعمق إيحاء وأجل برهان على وحدانية الله تبارك وتعالى واستحقاقه للعبادة والخضوع والشكر.

وملاك الأمر فى هذه القضية أن توحيد الله تبارك وتعالى هو مفرق الطريق فى حياة الإنسان بين ما يجب أن يكون عليه من رعاية للعمل العقلى السليم والمنطق السديد الذى يحقق الدقة والنظام فى أخطر شأن من شئون البشر - وهو العقيدة - وبين مالا ينبغى له ولا يليق به من استخفاف بما يحكم به العقل السوى وما يحمل عليه المنطق الصحيح وما يؤدى إليه الاستخفاف من اضطراب وفوضى فى العقيدة بسبب الانسياق وراء الخرافات الباطلة والأوهام الزائقة التى يأباها العقل ويرفضها المنطق.

ذلك لأن توحيد الله عز وجل هو وحده الذى يحرر العقل الإنسانى من التعطل المزرى والانسياق وراء الأهواء والخرافات والأساطير الغامضة الباطلة؛ لأن المنهج الإسلامى ليس به أوهام وأسرار وخرافات تصطدم مع العقل الإنسانى السليم والمنطق الصحيح بل لقد جعل هذا المنهج الربانى العقل الإنسانى هاديا إلى الحق، وأمر بالاحتكام إليه فى حقائق الوجود، وجعله مناط الفصل فى حسم الجدال بين الملحدين والمؤمنين، حول أى قضية يثور النزاع فيها بين الشك واليقين.

واسمع إلى قول الله وهو يعلى من شأن العقل والدعوة إلى أعماله فى فهم آيات الله، وإدراك دلائل الهداية فى الكون والحياة:

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ٢٤٢]، **﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[آل عمران: ١١٨] ، **﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[الانعام: ١٥١]، **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[يوسف: ٢].

وهذا المنهج يقرر أن الذى يعمل عقله فيعلم الحق ويوقن به، هو الإنسان السوى البصير، وأن الجاهل الذى يعطل عقله فلا يعلم ولا يهتدى، هو الأعمى المطموس البصيرة، المشلول الإدراك. كما قال عز وجل: **﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** [الرعد: ١٩].

إن هذا التحرر للعقل هو الذى يفتح المدارك، ويثير الفكر، ويحمل على الاستزادة من العلوم والمعارف، ويفصل فصلا حاسما بين الحقائق والأوهام؛ ذلك أن الإنسان إنما يفكر ويتقدم فى مضمار العلم بالعمل العقلى، فإذا تعطل العقل، انحسرت المعرفة، وضمر العلم؛ ولذلك يعقد الإسلام أوثق الأواصر بين الإيمان والفكر، والإيمان والمعرفة

والإيمان والتقدم فـي الميدان العلمي، حين يدعو الإنسان إلى النظر والتـأمل والتدبر فى خلق السموات والأرض ويحثه على التفكير فى عالم النفس[1] وفى آفاق الكون، ويرى أن خير عظة توجه إلى الإنسان هو أن يفكر تفكيرا سليما وينظر نظرا صحيحا فى آيات الله فى الأنفس والآفاق.

ومن أجل ذلك لا يتصور فى ظل منهج الإسلام أى ضرب من ضروب النزاع بين الدين والفكر أو العلم كـمثل مـا عرفت أوربـا من نزاع طويل مرير بين العلمـاء وبين رجال الكنيسة، وشتان بين هذا ومنهج القـرآن الذى يصادق العلم والفكر ولا يعاديهما فلا تجد حكما فى الإسلام يشل حركة العقل أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم.

دور العقل: ليس فى طاقة الـعقل أن ينشئ تصورا واقـعيا شـاملا للكون والحـياة والإنسان وأن يحيط بالخالق ويدرك ـ وحده ـ أسـماءه الحسنى وصفاته المثلى وأن تكون له الكلمة فى نشأة الحياة ومصيرها.

فلابد للعـقل أن يعرف حدوده ويحدد وظيـفته حتى تستقيم الحيـاة وينجو الفكر الإنسانى من التيه والضلال فليس يضر العقل أن يعجز عن إدراك مما ليس فى طاقته إنما يضره أن يضنيه العناء والجهد فى غـير ما خلق له ولا يملك أداة البحث فيه[2]. والعقل فى الإسلام له دوره فى قضية الإيمان ومنهج الحياة ونظامها، ولقد حدد الإسلام له دوره ووضع له القواعـد والأصول؛ فمن ذلك أنه يتلقى عن الرسـالة ووظيفته وأن يفـهم ما يتلقاه عن الرسـول ﷺ ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين، وينبـه العقل إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان فى الأنفس والآفاق وأن يرسم له منهج التلقى الصحيح ومنهج النظر الصحـيح وليس دوره أن يكون حاكـما على الدين ومقـرراته من حيث الصـحة والبطلان والقبـول والرفض، بعد أن يتأكـد من صحة صـدورها عن الله ـ ولكنه ملزم بقبول مقـررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح، ومتى فهم عـقله المقصود بها والمراد منها، فرسـالة الإسلام تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه وتوجـهه وتقيم له منهج النظر الصحيح لا بمـعنى أنه هو الذى يحكم بصحتها أو بـطلانها، وبقبولها أو رفـضها ومتى ثبت النص كان هو الحكم وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه سواء كان مدلوله مألوفـا أو غريبا عليه، وأكبر دليل على هذا عـجز العقل عن إدراك حكمة الله البالغة فى كثير من الأمور ما جاء فى القصص القرآنية من مواقف تدل على التسليم المطلق لأمر الله دون عرضها علـى العقل لتستفتيه طالما أنها تخـالف منطوق العقل كما

(١) لمحات فى الثقافة الإسلامية ص٢٢٢ عمر عودة الخطيب.

(٢) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ٢٩.

حدث مع نـوح وهو يصنع الفلك بأمر الله فى أرض صـحراوية لا تمطر مـاء ولا تنبت زرعا ومع هذا صنعـها فلما انتهى من صنعـها قال: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[القمر: ١٠-١٤].

وإبراهيم حين أمـر بذبح ابنه الحليم وترك أولاده وزوجـته فى صـحراء جـرداء لا يملك إلا أن يقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فكان مـا كـان من فـضل الله على هذا المكـان الذى أصـبح مـثابـة للناس وأمنا ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[البقرة: ١٢٥] وتفجرت زمزم.

وأم موسى التى ألقت بفلذة كبدها فى اليم انصياعا لأمر الله ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: ٧] وصدق الله وعده: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ... ﴾[القصص: ١٣].

وموسى نفسه وهو يخرج بقومه وأعداؤه من خلفه والبحر من أمامه وهم يقولون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦١-٦٢] فضرب بعصاه البحر: ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾[الشعراء: ٦٣].

وقصته مع الخضـر معروفة وهو يسير مع فتاه يوشع بن نون ذكـر له عبدا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه كما حكى لنا ابن عباس عن أبى بن كعب رضي الله عنه أنه سـمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسـئل أى الناس أعلم؟ قال: أنا فعتب الله إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله إليه أن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يارب وكيف لى به ـ فوصف له كيف يصل إليه ـ حـتى إذا التقى به قال له موسى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف: ٦٦-٦٧] قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ فَانطَلَقَا﴾[الكهف: ٦٨-٦٩] وكان ما كان من أفعال الخـضر التى لا يدركهـا العقل ولا يتصور مـا وراءها حين خرق السفينة فـالعقل يقول ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝

قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[الكهف: ٧١-٧٣] فكانت الثانية حين أبصر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ قال: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۞ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا۞ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف: ٧٤-٧٧].

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۞ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۞ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف: ٧٩-٨٢][(١)].

أرأيت إلى العقل وعجزه عن إدراك حكمة الله البالغة فى هذا الوحى من الله إلى هذا العبد الصالح، إنها أمور على غير مألوف العقول لا نستطيع معها إلا التسليم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ....﴾[الأحزاب: ٣٦].

فللعقل مجاله الذى يعمل فيه فإن تعداه اعتدى وضل ولا يهتدى سبيلا. فما هو مجال العقل؟.

مجال العقل إذاً:

أولا: له أن يعارض مفهوما عقليا بشريا للنص بمفهوم عقلى بشرى آخر له فلا حرج عليه فى هذا ولا حجر، ما دام هناك من الأصول الصحيحة مجال للتأويل والأفهام المتعددة.

ثانيا: أن يتدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان فى الأنفس والآفاق.

ثالثا: محاولة فهم النصوص والاقتناع بها ليسلم تسليما كاملا ويخضع لأوامر الله

---

(١) القصة بطولها فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٩٧ تفسير سورة الكهف.

ويلتزم بهـا، فالإسلام يخـاطب العقل ويكل إليـه فهم مدلولات النصـوص التى تحمل مقرراته ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه، فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفـهم المقـررات لم يعد أمـامـه إلا التـسليم وإلا كان الـعقـاب الذى ينتظره[1].

منهج الإسلام فى تربية العقل: واهتم الإسلام بتربية العقل تربية تتفق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليـها ويحـوطه بسيـاج من العناية والرعـاية؛ لأنه مناط التكليف وعليه المعـول فى فهم الشـريعة وتطبيـقها وإذا مـا اختل العقل سـقطت التكاليف عن صاحبه جملة فتفقد الخصائص التى فيه فهو إلى الأنعام أقرب.

ويعمد الإسلام أولا إلى تفريغ العقل من كل المعـتقدات والتصورات التى لا تتفق ومنهجه:

تصورات عن الألوهية، وتصورات عن طبيعـة الكون، معتقدات عن الخلق والحياة

تلك المعتـقدات والتصورات التى ترددت البـشرية فيها ردحـا من الزمن ولا زالت تتردى والتى لم تقم على يقين، وإنما قامت على مجـرد الظن والتقليد: ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ** ﴾ [النجم:٢٣].

ولذلك بدأ الإسلام برحلة طويلة مع العقل الإنسانى للكشف عن هذه الانحرافات ويأخذ فى نقضها واحدة تلو الأخرى.

فتـعرف الإنسان على خـالقه الذى ليس كمـثله شىء والذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، والذى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وتعرف على نفسه مَنْ هو ومن أى شىء خلق وما رسـالته فى الوجود وما المصير الذى ينتظره ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون:١٢-١٦] ولذلك عـرفنا إبراهيم عليه السـلام مَنْ هو ومَنْ ربه ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ [الشعراء:٧٨-٨١] كما دعاه إلى النظر فى الكون.

---

(١) الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية وبحوث أخرى للدكتور عبد الرحمن عميرة ٢٧٨ بتصرف.

دعوة إلى النظر فى الكون: فبعد أن كانت العقول أسيرة الأوهام والخرافات محصورة فى حيز الأرض لا تحلق ولا ترتفع، حبيسة العقائد الفاسدة، أطلقها القرآن من أسارها وأخرجها من محبسها وضيقها ودعاها إلى النظر وإعمال العقل وساح بها من المنشأ إلى المصير، وطاف بها على بدائع صنع الله فى السماء والأرض وجعل لها الكون محرابا للتفكير والتدبر والاعتبار ودعاها إلى تتبع يد القدرة ورؤيتها وراء كل شىء.

فأنت تقرأ كتاب الله المنظور فى هذا الكون وتتأمل صفحاته استجابة لأمر الله بالتفكير فى خلقه، وهذا أسلوب من أساليب القرآن الفريدة فى إرساء العقيدة وتعميقها ومعرفة للأدلة الحية المتحركة التى توصلك إلى اليقين وتنأى بك عن التقليد إذ إن الناس فى قوة العقيدة أقسام كثيرة بحسب وضوح الأدلة وتمكنها من نفوس كل قسم، فمنهم من تلقاها يقينا واعتقدها عادة، وهذا لا يؤمن عليه من أن يتشكك إذا عرضت له الشبهات، ومنهم من نظر وفكر فازداد إيمانه وقوى يقينه وثبت فؤاده[1] ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[محمد:١٧].

ولذلك دعانا القرآن للتأمل فى هذا الكون لنتعرف على الله ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٢ ـ ٤].

وتأمل وحدانية الخالق وأنت تقرأ كتاب الله المنظور وتقرأ كتاب الله المقروء: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

(١) رسالة العقائد للإمام البنا ص٣٧٩ من مجموع الرسائل.

يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل:٥٩-٦٤].

والآيات التى تدعوك للتأمل والتفكر فى الأنفس والآفاق لا تعد ولا تحصى لتوقظ القلب، وتنبه العقل، وتفتح العين ثم تترك للفكر أن يصل إلى مداه(١).

ولذلك كانت حياة رسول الله ﷺ فكرا متصلا ودعوة وتربية على النظر والتفكر، يبيت ليله عابدا باكيا مفكرا فى آلاء الله وخلقه، قال عبد الله بن عمر لعائشة رضى الله عنها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: كان أمره عجبا، أتانى فى ليلة حتى مسّ جلده جلدى ثم قال: ذرينى أتعبد لربى عز وجل فقلت: والله إنى لأحب قربك وأحب هواك، فقام وتوضأ ثم قام يصلى، فبكى حتى بلّ لحيته ثم سجد فبكى ثم اضطجع فبكى حتى إذ أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قال يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: ويحك يا بلال! وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله علىّ هذه الليلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[آل عمران:١٩٠-١٩١] ثم قال: يا بلال ويل لمن قرأها ولم يتفكر(٢).

اهتمام القرآن بالعلم والعلماء: لقد بدأ الوحى بالأمر بالقراءة والإشارة بالعلم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأقسم بمادته ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وهذا القسم يدل ما للعلم من قيمة وماله من مكانة فى رسالة الإسلام واعتبر القرآن العلم عنصرا من عناصر تكوين الإنسان وسرا من أسرار تكريمه، فبالنفخة العلوية أسجد الله لآدم ملائكته رفعة وتكريما وعلمه الأسماء كلها ثم أنزل على محمد ﷺ قرآنا مفصلا على علم ليكون منهجا للبشرية: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

والعلم الذى يقصده القرآن هو العلم بمفهومه الشامل الذى ينظم كل ما يتصل

---

(١) راجع منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام فى موضوع الكون. للمؤلف.

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه عن تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٤١.

بالحياة ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الدينى كما يتبادر إلى بعض الأذهان ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢٠-٢١].

والعلم لا يناوئ العقل ولا يسعه أن يناوئه لأن العقل يؤيد الدين فليس للذين يجدون اختلافا بين العلم والدين المستند إلى دليل عقلى منطقى أن يرفضوا الدين ويرفضوا معه العقل استنادا منهم إلى العلم وتفضيلا له على العقل وإن فعلوا فلا يعتد بهم ويرفضهم وغداً سيندمون لأنهم لم يفكروا التفكير السليم وسيقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك:١٠-١١].

ولذلك فقد احترم الإسلام العلماء وأمر بتقديرهم واحترامهم؛ لأنهم أولى الناس بخشية الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ولقد تحدثنا عن فضلهم وأدب التعامل معهم فليرجع إليه فى هذا الكتاب.

الحكمة ضالة المؤمن: والمسلم أحق الناس بالحكمة أنى وجدها ويرحب بالصالح النافع فى كل شىء فهو حريص على ألا يستورد العقائد ولا الأخلاق ولكنه فى نفس الوقت يرحب بالخطط التى تخدم أهدافه لأنه لا معنى لنبذها إذا كانت تفيد.

إننا مثلا نتمسك بمعانى الجهاد ولا نحيد عنه ونعتز بديننا ولكن هل الاعتزاز بالدين يعنى أن أرفض الجهاد بالصواريخ والأقمار الصناعية وأن أنقل صناعتها إلينا؟ أن أترك أساليب الزراعة الحديثة ووسائل تنظيم الأدوات وتدريب الجيوش وكل حديث يحدد أمر دينى ولا يصطدم به أهذا من الحكمة؟.

وما الذى يمنع الفقيه المسلم من قبول كل وسيلة أصيلة أو مستوردة فى كل مناحى الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية وتنظيمية لا تصطدم بدينى وعقيدتى وشريعتى لتحقيق الغايات التى قررها دينى.

إن النقل والاقتباس فى شئون الدنيا وفى المصالح المرسلة وفى الوسائل الحسنة ليس مباحا فقط بل قد يرتفع إلى مستوى الواجب فنحن مع الذين يعادون الغزو الفكرى والعسكرى الذى يضر بديننا ولكن أن أتمسك بدينى وأتعلم من غيرى ما ينفع مجتمعى المسلم فهذه هى الحكمة التى يجب أن ينشدها كل مسلم يحافظ على شخصيته الإسلامية وهويته الإيمانية.

وإذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعى وننتفع من خبرات غيرنا فى

آفاق الحياة العامة فليكن ذلك فى إطار صلب شرائعنا وشعائرنا[1] وأن نفتح الباب على مصراعيه لكل ما يفيـد المجتمع المسلم ونبنى أفراده بالإيمان الصادق والعلم النافع لنكون بحق خير أمه أخرجت للناس ننشر ذلك كله بإيمان المسلم بربه وانتفاعه بغيره، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

* * *

(١) الوحدة الثقافية للشيخ محمد الغزالى ص ٢١٣ بتصرف.

النظر الشرعى والنظر العقلى

الأصل التاسع عشر

وقد يتناول كل من النظر الشرعى، والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا فى القطعى، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة.

ويؤول الظنى منهما ليتفق مع القطعى، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار.

النظر الشرعى والنظر العقلى

الأصل التاسع عشر

وقد يتناول كل من النظر الشرعى، والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا فى القطعى فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيّين، فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار.

هذا الأصل يعالج:

١ـ النظر الشرعى والعقلى.

٢ـ الفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية.

النظر العقلى: قلنا أن العقل ليس فى إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده؛ ذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم لما فقدت هداية الوحى الإلهى لم تغن عنها هداية العقول شيئا فضلت وهلكت وصدق الله القائل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الأحقاف: ٢٦].

إن العقول لا تهتدى إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان فى حياته ليأخذ به ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسان فى حياته كلتيهما ليتجنبه وينجو مما يضره إلا فى ضوء الشرع الإلهى ونور وحيه ومن رأى غير هذا فإنه يغالط نفسه(١).

فتاريخ الفلسفة وتراث الفكر الإنسانى وحصيلة العلم تشهد بعجز العقل عن معرفة حقيقة الكون أو إدراك أسرار الحياة أو الإحاطة بالخالق، أو أن يقول كلمة الفصل فى حقيقة النشأة والمصير. وليس معنى ذلك تعطيل العقل وهو الذى له صلة وثيقة بالعقيدة وهذه الصلة هى صلة المدرك بالمدرك، فلا غرابة إذن إن كان الإسلام دعوة إلى الناس جميعا أن يستعملوا عقولهم التى وهبها الله لهم وميزهم بها عن غيرهم من المخلوقات.

ولقد شبه الإمام الغزالى العقل السليم بالعين المبصرة والقرآن بالضياء، وأن العين السليمة لا تقدر أن تبصر الأشياء على وجهها الصحيح إلا بالضياء الخارجى الذى يوضح للعين الحقائق، كذلك إذا لم يستعمل الإنسان عقله لم يستفد بإيمانه شيئا كثيرا ومَنْ أغمض عينه أو أغشاهما لم يستفد من النور والضياء.

---

(١) عقيدة المؤمن أبو بكر الجزائرى ص ٢٩.

ولقد شـرف الله العقل بالخطاب، وجعله مناط التكليـف وندبه إلى البحث والنظر ولكنه فى ذات الوقت مـحـدود المؤهلات، فهـو ليس مـأمون الخـطأ ولقد ضل أقـوام استخدموا العـقل فى غير مجاله فضلوا حين تكلموا فى ذات الله تبـارك وتعالى فتركوا للعقل أن يفكر فيـما لايدرك كنهه ـ وهذا نظر عقلى غيـر معتبر ـ لأن عقـولنا القاصرة تعجز عن إدراك حقيقة نفسها فما بالك بإدراك حقيقة ذات الله.

روى الإمـام مـسلـم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قـال: «لا يزال الناس يتسـاءلون حتى يقال: هذا، خلق الله الخلق فَـمَنْ خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيـئا فليقل: آمنت بالله.

والمسلم له قـوتان قوة من دينه وقـوة من عقله، وهمـا سليمتـان فى قلب المؤمن متحالفتان، وقوة الدين مقدمـة على قوةالعقل إن كانت يقينية، ولقد أخطأ المتكلمون ـ المعتـزلة ـ حين قدمـوا القضايا العـقلية قـبل النظر فى الآيات القرآنيـة بالرغم من أنهم يأخـذون بالعقل والنقل إلا أنهم يقـدمون النـظر العقلى على الشـرعى فيـؤولون على مقتضى العقل وإن كانوا لا يخرجون عن عقائد الإسلام ويقولون الحسن ما حسنه العقل والقبيح ما قبحه.

وهناك فريق آخر ـ الماتريديه ـ الذين يسـتعينون بالعقل ليبرهنوا علـى عقائد القرآن على عكس الأشاعرة الذين يسـتعينون بالأدلة العقلية بجـوار الأدلة القرآنية ولكل نظره العقلـى فى مثل هذه الأمور، إلا أن الدلـيل فى مثل هذه المسـائل مقيـد حين ينظر فى مسائله بقيود عـلمية بينها العلماء ووضعوا لها القـواعد والأصول ليكون الدليل العقلى معتبراً وليس هنا مجالها.

مجال آخـر للدليل العقلى: والحقائق الـعلمية التى توصل إليهـا البحث العلمى محال أن تصطدم بالنظر الشـرعى فيها؛ ذلك لأن أحكام القرآن كلهـا صادقة لا تخطئ ولا تغيـر لا تبديل لكلمات الله وربنا الذى نزل القـرآن هو سبحـانه وتعالى الذى علم الإنسان فـمحال أن يتناقض العلم الصحـيح مع صريح القرآن، فإذا قـرر القرآن أن الله استـأثر بعلم ما فى الأرحام مثـلا فلن يصل العلم أبدا معرفـة ما فى بطن الأم حين لا يكون للحـمل حجم ولا جـرم، ونوع هذا الحـمل ذكر أم أنثى حين لا يملك أحـد أن يعرف عن ذلك شيئا فى اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى.

ويجب أن نوقن أن الحقـيقـة العلمية والحكم الشـرعى القاطع لا يخـتلفان أبدا،

فالمولى مثلا يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ هذا حكم شرعى والعلم يقطع بأن القمر ينتقل من منزلة ويتحول من هلال إلى ما فوقه حتى يصير بدرا.

ومن البينّ أن الحقائق بلغت من الثراء فى العلم الحديث ما تكون به مصدرا لا ينفذ للاستئناس للاستدلال على حقائق العقيدة، وهو مصدر متجدد بنمو الاكتشافات لقوانين العلوم، ففى كل قانون جديد دليل جديد على تلك الحقائق.

إن ما جاء فى القرآن صريحا يجب الإيمان به وبما صرح به وذلك مثل ما حكاه القرآن عن الكون كان شيئا واحدا ثم فصله الله بالخلق والتقدير وهو من صريح قوله ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] هذه حقيقة أثبتها العلم وذكرها القرآن، أما البحث وراء ذلك من كيفية الفتق وعوامله وتاريخ أجزائه ووضع كل جزء مكانه مما لم يدل عليه نص قرآنى صريح فهو مهمة البحث العقلى الذى وكل إلى الإنسان ولا ينبغى التماس حقيقته من ظواهر القرآن التى سيقت للاستدلال بها على قوة الله، ولفتح أبواب البحث والمعرفة أمام الناس(١).

ولذلك فقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر كما رأيت ـ ولكنهما لا يختلفان فى القطعى فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار.

القرآن والحقائق العلمية: إن لفيفا من الباحثين وجد أن أوصاف القرآن للكون دقيقة مشيرة فهى تومئ إلى أسرار علمية وسنن فطرية لم يعرفها الناس إلا فى هذا العصر، وتبين بالموازنة المنصفة أن حديث القرآن عن بناء الكون وقوانينه ووظائفة ينسجم مع الحقائق العلمية انسجاما لم يعرف له شبيه فى كتاب آخر.

فأنت تقرأ عن الوصف العلمى للسحاب والأمطار والرعد والبرق فتجده مطابقا لأوصاف القرآن، وتقرأ فى خلق الإنسان بين الطب والقرآن تجده مطابقا لآيات العليم الخبير وتقرأ فى مضار جماع الزوج لزوجته فى فترة الحيض، وعن مضار أكل لحم الخنزير وشرب الخمر والدم والميتة وغير ذلك مما ذكر تحريمه فى القرآن فتجد مطابقة ذلك للعلم.

بل وتعجب لوصف القرآن للكافر ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ وتجد العلم يبين لك قلة الأكسجين كلما صعدت إلى أعلى حتى يكاد المرء أن يختنق واقرأ عن عذاب

---

(١) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت ص ٤٢٥.

الكافرين فى النار يقول المولى: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فإذا بالعلم الحديث يكتشف أن مناطق الإحساس هى الجلد وتقرأ ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ وتجد علم تحقيق الشخصية ـ البصمات ـ وما أكثر الأبحاث الطبية التى قام بها علماء على عسل النحل فتحققوا وهم غير مسلمين من قول الله ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

وعلام تعجب وصانع هذا الكون وما فيه هو منزل القرآن وحيا على النبى الأمى محمد ﷺ والصلة بين الحياة وما فيها وبين القرآن وما أخبر به صلة قوية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[النجم: ٤-٥].

وعلى هذا فلا يمكن أن تتصادم حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية، فالكون خلقه الله والقرآن كلام الله وما دام القائل هو الخالق فلا تصادم.. ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك: ١٤].

ومع هذا فإن القرآن ليس كتاب كيمياء ولا فيزياء ولا طب ولا فلك، كما أنه ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علما تجريبا كذلك، إنما هو كتاب عقائد وأخلاق وعبادات ومعاملات تكوّن منهج حياة يقوّم العقل ليعمل وينطلق فى حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل فى جزئيات وتفصيلات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه ليصل إلى الحقائق العلمية الثابتة.

ولهذا، فإننا نؤكد أنه يستحيل أن توجد حقيقة علمية يقال: إن الإسلام يناقضها، إن الدين الحق والعلم الحق يتصادقان ولا يتكاذبان أبدا، إنما الخلاف قد يقع بين ظن علمى وظن دينى، أو بتعبير آخر بين مسائل دينية ظنية ونظرية علمية(١) وحينئذ يقدم الظن الشرعى حتى يثبت العقلى ويصبح قطعيا أو ينهار، ومن هنا يجب أن نفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية القطعية.

الحقيقة العلمية والنظرية العلمية: النظرية العلمية هى الرأى الراجح عند القائلين به فى تفسير ظاهرة طبيعية أو تحليل قضية اجتماعية وهى احتمالية لا تصل إلى حد اليقين الجازم.

---

(١) دستور الوحدة الثقافية للشيخ محمد الغزالى ص ٢١٤ بتصرف.

أما الحقيقة العلمية فإنها لا تتحقق إلا بأمرين:

أولا: إقامة دليل دامغ على صحتها.

ثانيا: إقامة الدليل على استحالة تغييرها فتصبح بذلك قطعية لا تحتمل تغييرا ولا تبديلا فتكون من سنن الله حينئذ ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا، ذلك أن الكون قائم على الناموس الواحد الذى يربط بين أجزائه جميعا وينسق بين أجزائه جميعا وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم، هذا الناموس من صنع إرادة واحدة لإله واحد فلو تعددت الذوات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ لتعددت الإرادات ولتعددت النواميس تبعا لها فالإرادة مظهر الذات المريدة والناموس مظهر الإرادة النافذة.

ومن هنا يتضح الفرق بين النظرية والحقيقة العلمية، فالحقيقة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل فى سنة من سنن الله ـ كما قلنا ـ على عكس النظرية فإن النظرية التى تقوم اليوم يمكن أن تقوم بعدها أخرى تناقضها فلا يجب أن نحمل النص المتيقن على نظرية غير مستيقنة تقبل اليوم وترفض غدا فلا يصح محاولة توفيق النصوص القرآنية القطعية مع النظريات العلمية المتغيرة فالحقيقة العلمية كتمدد المعادن بالحرارة، وتحول الماء إلى بخار أو تجمده بالبرودة وغير ذلك من الحقائق العلمية الثابتة شىء آخر غير النظريات العلمية التى تحتمل الصواب والخطأ.

فالخطر إذن أن نعتقد فى شىء أنه حقيقة علمية وهو ليس كذلك ولكنه ظن أو احتمال وشك لم يصل إلى مرتبة الحقيقة العلمية، أو أن يكون هناك سوء فهم لحقيقة قرآنية، فكم من أشياء حسب الناس أنها حقيقة علمية ثم تبين بعد ذلك كذبها، وهناك مئات مما قال عنه العلماء أنه حقيقة علمية ثبت أنه غير صحيح وما زال تحت البحث والدراسة والتحليل ولم يصلوا إلى نتيجة قاطعة له.

لا تصادم بين الدين والعلم: الإسلام لا يتصادم أبدا مع العلم، والذين يقولون بذلك إنما هم أصحاب العقائد الفاسدة التى تتصادم مع الفطرة بل مع الكون والإنسان والحياة؛ ذلك لأن الكتب السماوية قبل القرآن حرفت بشريا فأوجدت تصادما بين العلم والدين أما القرآن فالله حافظه ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[الحجر:٩]وما زال القرآن يقول: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾وستستمر ﴿**سَنُرِيهِمْ**﴾ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأعطيك مثالا لهذا اللبس: قالوا إن القرآن يقول: ﴿ **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا** ﴾ ومعنى المد هو البسط ففسرت بأن الأرض مبسوطة وقالوا: إن هناك تصادماً بين الدين والعلم، فالعلم يقول: إن الأرض كروية.

والحقيقة أن القرآن لم يأت بالدلائل التى تؤكد أن الأرض كروية فى آية واحدة بل جاء بها فى آيات متعددة مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠].

فهذه الآية ترد على اعتقاد خاطئ غير صحيح كان موجودا عند العرب وقت نزول القرآن وهو أن الليل يأتى أولا ثم بعد ذلك يأتى النهار، أى أن النهار لا يسبق الليل ويجيء الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخاطئ فيقول: ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾، أى أن الليل أيضا لا يسبق النهار، ومعنى ذلك أنهما موجودان معا على سطح الكرة الأرضية ولا يمكن أن يوجد الليل والنهار معا فى وقت واحد على سطح الكرة الأرضية إلا إذا كانت الأرض كروية فيكون نصف الكرة مضيئا والنصف الآخر مظلما.

بل إن الآية نفسها ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ تدل على كروية الأرض؛ لأن الشكل الوحيد الذى يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة فى كل بقعة تصل إليها هى أن تكون الأرض كروية [1] وليس هنا مجال التفصيل ـ ونكتفى بهذا القدر.

وأخيرا، فلا بأس من الائتناس بالحقائق العلمية المكتشفة التى يأذن الله للإنسان بعلمها أو المبثوثة فى الكون بسنن يصل إليها والتى تطابقت مع النصوص القرآنية فهى فى هذه الحالة تكون شاهدا على ما ذكره القرآن من آيات الله فيعلم الناس أنه الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم ويزدادوا إيمانا مع إيمانهم.

* * *

(١) مقال للشيخ محمد شعراوى جريدة الأخبار فى الجمعة ٨/١٢/ ١٩٨٩ بتصرف شديد.

الحد الفاصل بين الكفر والإيمان

الأصل العشرون

لا نكفر مسلما - أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأى أو معصية ، إلا إن أقرّ بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن أو فسّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال أو عمل عملا لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .

* * *

الحد الفاصل بين الكفر والإيمان

الأصل العشرون

لا نكفر مسلما ـ أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ـ برأي أو معصية، إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر.

هذا الأصل يعالج:

١ـ مفهوم الكفر والإيمان.

٢ـ حكم الناطق بالشهادتين.

٣ـ الكفر والجهل بالعقيدة والعذر بالجهل.

٤ـ أصحاب الذنوب والكفر الأصغر.

٥ـ أنواع الكفر.

٦ـ الجماعة ليست شرطا للإيمان.

٧ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله.

* * *

مفاهيم يجب أن توضح

يظن بعض الناس ـ خاصة الشباب منهم ـ أن الحكم على إنسان بالكفر أو الإسلام فى حياته إنما ينصرف إلى آخرته، وهذا فهم خاطئ فالحكم بإسلام المرء أو كفره فى الدنيا لا شأن له بما يؤول إليه مصيره فى الآخرة إنما هذا الحكم يتصل بدنياه ولا شأن له بآخرته، فنحن نحكم عليه لنجرى عليه أحكام الإسلام فى مجتمع المسلمين فإن كان مسلما فله ما لنا وعليه ما علينا، وإن كانت الأخرى فلا نصل عليه إن مات ولا يورث ولا يدفن فى مدافن المسلمين وتنزع منه الولاية والنصرة إلى غير ذلك من الأحكام.

وتبيان ذلك أننا ربما نحكم على إنسان حكما فى الدنيا يختلف عن حكم الله فيه فى الآخرة وأكبر دليل على ذلك حكمنا على المنافقين نجرى عليهم أحكام الإسلام كمسلمين، بينما هم فى الدرك الأسفل من النار.

وها نحن ذا يأمرنا الإسلام بأن نحكم على إنسان بأنه كاذب بل فاسق إن أخبر عن حالة زنى لم يستكمل فيها شهودها وإن رآها رأى العين متيقنا فإن تكلم فهو عندنا من الكاذبين يجلد حداً وإن كان عند الله من الصادقين فيما قال.

وتقف متعلما درسا فى التربية عظيما يعطيه المولى لعباده كى يتعاملوا مع الناس بما استعلن من سلوكهم لا بما تكن صدورهم حين يبتلى المولى عبدا من عباده وهو سبحانه يعلم ما فى نفسه وقلبه ولكنه سبحانه يبتليه ليحاسبه على ما وقع من عمله لا على ما يعلم سبحانه وتعالى من دخيلة نفسه ومن سرائر أمره وهذا فضل الله من جانب وعدله من جانب آخر وإرشاد لنا نحن المسلمين من جانب ثالث لكى لا نؤاخذ الناس إلا بما استعلن من أمرهم وبما حققه فعلهم يقول المولى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣] ليظهر ما كانوا يخفون ويبطنون ليحاسبهم بما ظهر من السلوك.

والدليل على أن شهادتنا على إنسان فى الدنيا ليست بالضرورة هى اليقين الذى هو عليه أن الرسول ﷺ يقول: «إذا رأيتم الرجل يكثر الخطى إلى المساجد فاشهدوا له بالإيمان» فهذه شهادة بالإيمان لظاهر السلوك. أما حقيقته فلا يعلمها إلا الله طالما إنه يسرّ أمرا آخر فى نفسه بدليل قول أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالعالم ـ وانظر إلى كلمة العالم، أى أن الناس شهدوا له بذلك يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» (١) فأنت ترى أنه بين

---

(١) متفق عليه.

الناس عالم وعند الله ظالم لنفسه، أنت ترفع مكانته والله يخفضها ويعاقبه.

وعلى هذا فإننا حين نتكلم عن الحد الفاصل بين الكفر والإيمان إنما نقصد حكم الله على الناس فى الدنيا فنحكم عليهم بالظاهر والله يتولى السرائر.

والحقيقة أننا يجب ألا ننشغل بالحكم على الناس ولكن ننشغل بدعوتهم إلى دين الله ونقول لهم: « أنتم تلقون بأنفسكم فى النار وأنا آخذ بحجزكم» كى تكون رحمة للناس ونحن ندعوهم فنحن دعاة ولسنا قضاة.

ما هو الإيمان: هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ـ كما جاء فى حديث جبريل أى تصديق الله فى كل ما أخبر به رسوله ﷺ بهذه الأمور الغيبية كل ذلك على النحو الذى بينه رسول الله ﷺ.

الكفر: أصله فى اللغة التغطية والستر ـ والكفر فى الدين صفة من جحد شيئا مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه، والجحود يكون إما بالقلب دون اللسان أو اللسان دون القلب من غير إكراه أو بهما معا، وهذا أيضا صفة من عمل عملا جاء النص بأنه مخرج لفاعله عن اسم الإيمان.

فالجحود هو الإنكار والتكذيب مع العلم بالأمر المنكر المكذب فهو يقتضى معرفة الجاحد بما افترض الله عز وجل عليه الإيمان به أو بلوغ الحق إليه وقيام الحجة عليه.

حكم الناطق بالشهادتين: وحكم الناطق بالشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ أن نعتبره مسلما تجرى عليه أحكام الإسلام وليس لنا أن نبحث فى مدى صدق شهادته، إذ ذلك متعلق بما استشعره واستيقنه بقلبه ولا سبيل لنا بالكشف عن ذلك والتثبت منه، وإنما ذلك شأن الذى يعلم السر وأخفى فإن استيقن قلبه ما نطق به كان عند الله مسلما ونفعه ما نطق به وبرهان ذلك:

أولا: الحديث الذى رواه لنا أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »[1].

ثانيا: وقوله ﷺ : «يدرس الإسلام كما يدرس الوشى من الثوب فيأتى أقوام يقولون لا إله إلا الله ويقولون أدركنا آباءنا يقولونها ـ ولا يدركون معناها ـ فيقول الراوى: ماذا تفيدهم لا إله إلا الله فقال: ويحك إنها تنجيهم من النار»[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني.

ثالثا: عن أبى معبد المقداد بن الأسود قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا فعزل إحدى يدى بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال إنى أسلمت لله، أأقتله بعد أن قالها؟ فقال النبى ﷺ: «لا تقتله، فقلت يا رسول الله: لقد قطع إحدى يدى ثم قال ذلك بعد أن قطعها ؟ فقال: لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته»[١].

رابعا: حديث معاذ حين قال له الرسول ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار، قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال لا إنى أخاف أن يتكلوا»[٢].

خامسا: يقول حذيفة قال النبى ﷺ: « اكتبوا لى مَنْ تلفظ بالإسلام من الناس فلقد رأيتُنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلى وحده وهو خائف»[٣].

سادسا: عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله إلى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم على مياههم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما أغشيناه قال: لا إله إلا الله فكف الأنصارى عنه، وطعنته برمحى حتى قتلته، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبى ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذا بها ـ أى معتصما بها من السيف لا معتقدا بها فقال: أقتلته بعد أن قال لاإله إلا الله ؟ فما زال يكررها علىّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت فى ذلك اليوم»[٤] وفى رواية أخرى قال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح، قال: أفلا شققت على قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ. بمعنى أنه لو كان إسلامه قد تأخر بحيث لم يشهد هذه المعركة ولم يقتل هذا الرجل.

سابعا: الحديث الذى رواه ابن عباس فى تحديد معنى الإيمان فيما قاله الرسول ﷺ لوفد عبد القيس، هل تدرون ما الإيمان بالله وحده وقد أمرهم به، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»[٥].

فالنبى ﷺ حكم بالإسلام لمن أعلن النطق بالشهادتين، يقول الشهيد سيد قطب فى قوله: «**ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا**»، يقول: يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا وأن يكتفوا بظاهر الإسلام فى كلمة اللسان، إذ لا دليل يناقض كلمة الإسلام»[٦].

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) البخارى جـ١ ص٤٤.
(٣) رواه البخارى جـ٤ ص ٨٧.
(٤) رواه البخارى ومسلم
(٥) رواه البخارى.
(٦) الظلال المجلد الخامس، سورة النساء.

وأيضا قد ثبت عن النبى ﷺ الحكم لكل مَنْ نطق بالشهادة ثم توفاه الله، فقد روى أحمد عن أبى صخر العقيلى أن رجلا من اليهود كان يقرأ التوراة على ابن له عند الموت فقال رسول الله ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى؟ فقال برأسه هكذا أى لا. فقال ابنه: أى والله الذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا هذا صفتك ومخرجك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبى ﷺ : « أقيموا اليهودى عن أخيكم ثم تولى دفنه والصلاة عليه»[1]. روى البخارى عن عمر رضي الله عنه قال: إن أناسا كانوا يؤاخذون بالوحى فى عهد رسول الله ﷺ وإن الوحى قد انقطع، وإنما نؤاخذكم بما ظهر من أعمالكم « فليس لنا أن نحكم بعد انقطاع الوحى إلا بما ظهر من أعمال تدل على إسلامه ولا دخل لنا بحركة القلوب».

الرسول والشفاعة:

ودليل آخر نسوقه على أن الناطق بالشهادتين من أهل القبلة وليس مخلداً فى النار ولو ارتكب الكبائر على خلاف ما قال الخوارج ـ كما سنبين بمشيئة الله تعالى ـ هو دليل شفاعة المصطفى ﷺ لأهل التوحيد من أصحاب المعاصى.

ففى الحديث الصحيح «وشفاعتى لمن قال: لا إله إلا الله مخلصاً، يصدق قلبُه لسانَه، ولسانُه قلبَه» وشاهده فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول ﷺ : « لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً».

فهى شفاعة لجميع أهل التوحيد من أهل الطاعات أو أهل المعاصى والكبائر، ففى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى».

واسمع إلى ما رواه الإمام البخارى فى كتاب التوحيد (باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) إلى أن قال: حدثنا معبد بن هلال العنزى قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك وذهب معنا ثابت البنانى فسأله عن حديث الشفاعة، فإذا هو فى قصره فوافقناه يصلى الضحى فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه فقلنا لثابت لا تسأله عن أى شيء أولى من حديث الشفاعة. فقال: يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤك يسألونك عن حديث الشفاعة. فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم فى بعض فيأتون آدم

---

(١) رواه الإمام أحمد.

فيـقولون اشـفع لنا إلى ربك، فيـقول: لست لهـا، ولكن عليكم بإبراهيم فـإنه خليل الرحمن فـيأتون إبراهيم فيقـول لست لها ولكن عليكم بموسى كليم الله فيـأتون موسى فيقـول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمـته فيأتون عيسى فـيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ فيأتونى فأقول أنا لها، فأستأذن على ربى فيؤذن لى ويلهمنى محامد أحمده بها لا تحضرنى الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً فيقال: يا محمد؛ ارفـع رأسك، وقل يُسمع لك. وسل تعط، واشفع تشفع. فأقول: يارب أمتى أمـتى فيقـال: انطلق. فأخـرج منها من كان فى قـلبه مثـقال ذرة من إيمان فأنطلق فأفـعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامـد ثم أخرّ له ساجدا فيقال يـا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط، واشفع تشفع. فأقول يا رب أمتى أمتى..

فيقال: انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان..

فأنطلق فأفعل ثم أعود فـأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدا فيـقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسـمع لك وسل تعط واشـفع تشـفع، فـأقول: يارب أمـتى أمـتى. فيقول: انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل.

فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحـابنا: لو مررنا بالحسن وهو متوار فى منزل أبى خليفة فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا فقلنا: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس فلم نر مثل مـا حدثنا فى الشفاعة. فقال: هيه، فقلنا لم يزد لنا على هذا. فـقال: لقد حـدثنى وهو جميع منذ عشـرين سنة فلا أدرى أنسى أم كره أن تتكلوا. فقلنا: يا أبا سعيد فحدثنا. فضحك وقال: حدثتكم به، قال: ثم أعود الرابعة فأحـمده بتلك المحامد ثم أخرّ له سـاجدا فيقـال: يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع وسل تعـط واشفع تشفع فـأقول: يارب ائذن لى فيـمن قال: لا إله إلا الله فيقول: وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجنّ منها من قال لا إله إلا الله» وهكذا رواه مسلم.

ولذلك فإن ابن القيم حين ذكر أنواعا ستة للشفاعة قال فى النوع الرابع: «شفاعته فى العصاة من أهل التـوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم والأحاديث فيـها متواترة عن النبى ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدّعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلالة».

ومعروف أن أهل الشـرك والكفر مخلدون فى النار، أما العصاة من أهل الـتوحيد فيسـتخرجون منهـا بعد جزائهم على المعـاصى بمشيئة ربهم وهذا هو الحـد الفاصل بين

الكفر والإيمان ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨].

وفى شرح المنازل للعلامة ابن القيم: اتفق أهل السنة والجماعة على أن الشخص الواحد قد يكون فيه إيمان وشرك ـ شرك أصغر ـ ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦].

فأثبت سبحانه وتعالى لهم الإيمان مع مقارفة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب برسله واليوم الآخر ـ أى أصول الإيمان ـ لم ينفعهم إيمانهم ـ حيث إنه انتقل إلى الشرك الأكبر ـ وإن كان معه تصديق بذلك وهم يرتكبون أنواعا من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل واليوم الآخر فهم مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر.

ولهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ثم خروجهم ودخولهم الجنة لما قام بهم من السببين، قال ابن عباس وعطاء وطاووس أنه صح عنه ﷺ أنه قال: يخرج من النار مَنْ كان فى قلبه ذرة من الإيمان»[1].

العذر بالجهل: بعض الناس يقولون: إن كل فرد أيام رسول الله ﷺ على وجه التحديد أدرك بغير لبس ولا إبهام ما دعى إليه، وهذا كلام يلقى على عواهنه فمن ذا الذى أحصاهم عددا وتأكد من كل فرد بعينه على ذلك، لقد قبل الرسول ﷺ إسلام الناس الذين دخلوا فى دين الله أفواجا من العرب والمستعربين والأرقاء والعبيد المستجلبين وأهل الحيرة وغيرهم ممن فتحت بلادهم على عهد الرسول ﷺ دون إجراء يفيد ضرورة التأكد من أن كل فرد منهم قد فهم معنى محددا معينا، أو أن معانى محددة معينة شائعة معروفة بينهم فدل عمله ﷺ على افتراض ما يكفى من العلم فى حق من نطق بالشهادتين للحكم بإسلامه وأن جهله من معانى الألوهية والربوبية ومفهوم الشهادتين وغير ذلك من الأحكام لا يضر إسلامه شيئا وليس بمانع من الحكم بإسلامه.

وما كان الرسول ﷺ غافلا عن أنه مبعوث إلى الناس كافة عربيهم وأعجميهم وهو القائل فى الحديث: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . الحديث».

نعم يقاتل الناس كل الناس بلا تمييز بين الناس ودون تمييز بين العرب وغيرهم وهذا هو حكم الله نطق به رسوله الأمين ﷺ .

ولو كان النطق بالشهادتين يختلف شأنه وحكمه بين الناطقين بالضاد وبين غيرهم

(١) حكم الإسلام فى التوسل الشيخ محمد حسنين مخلوف ص ٩٦.

أو يلزم إجراء آخر فى حق الناطقين به من العرب أو غير العرب ما سكت رسول الله ﷺ : عن بيانه ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[مريم:٦٤].

ولقد فتح المسلمون على عهد الصحابة والتابعين بلاد الشام وفارس ومصر وبلاد البربر شمال أفريقيا - والأندلس وتركيا وأجزاء من البلقان وغيرهم وكلها بلاد لم تعرف العربية وكان إجماع الصحابة وكافة المسلمين على قبول أهلها فى الإسلام بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، وعصمت دماؤهم وأموالهم وأجريت عليهم شرائع الإسلام ثم علموا شيئا فشيئا ما كانوا يجهلونه من فرائض الإسلام وشرائعه.

ولك أن تسأل لم كان رسول الله ﷺ يلحّ على عمه أبى طالب وهو يحتضر على فراش الموت أن يقول لاإله إلا الله محمد رسول الله ﷺ إن كانت بذاتها لا تخرج قائلها من الكفر إلى الإيمان وتدخل به فى الإسلام(١).

واسمع إلى ما بينته أحاديث رسول الله ﷺ حسما لهذه القضية:

أولا: جاء خالد بن الوليد بنى خذيمة فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل ويأسر وأمر من معه أن يقتل كل منهم أسيره فامتنع عبد الله بن عمر حتى قدموا على النبى ﷺ فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد(٢) (مرتين).

قال الشوكانى فى نيل الأوطار وهو دليل على أن الكناية مع النية بصريح لفظ الإسلام لا يتوقف على الإحاطة بمعانى الإيمان والكفر ولم يقل أحد من الصحابة بالتوقف فى الإيمان لهؤلاء حتى يحيطوا بذلك علما.

ثانيا: عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل خيبر ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سدرة يلتفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: الله أكبر كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، لتركبن سنن مَنْ قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم(٣).

فكشف رسول الله ﷺ لهم الخطأ ولم يحكم بكفرهم وهم قبل هذا الحكم مؤمنون لم يتوقف إيمانهم على هذا العلم.

---

(١) دعاة لا قضاة للأستاذ المستشار حسن الهضيبى رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه البخارى.

ثالثا: روى ابن حزم أن عبد الرحمن بن حاطب كانت له نوبية صامت وصلت وهى أعجمية لا تفقه وكانت ثيبا فحملت فأرسلها إلى عمر بن الخطاب فسألها أحبلت؟ قالت: من مرعوش بدرهمين، فاستشار عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف فقال على وعبد الرحمن: وقع عليها الحد، قال عثمان: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه وليس الحد إلا على من علمه قال: صدقت يا عثمان ثم أمر بجلدها مائة وتغريبها عاما تأديبا لها لتهاونها فى السؤال عن الحرام والحلال فى أمر دينها(١).

رابعا: نقل القرطبى أن الإمام مسلم قد روى عن ابن عباس أن رجلا أهدى لرسول الله ﷺ رواية خمر (قربة) فقال النبى ﷺ : هل علمت أن الله حرمها؟ فقال: لا. فسارَّ الرجل رجلاً آخر فقال النبى : بم ساررته؟ قال: أمرته ببيعها، فقال النبى: إن الذى حرم شربها حرم بيعها.

وهكذا ترى أن الجهل عذر خلافا لما يدعيه أصحاب أفكار معينة فلا يعتبرونه نوعا من الخطأ والمولى يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

[الأحزاب: ٥].

والرسول ﷺ يقول: «**رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(٢).

ويبين لنا رسول الله ﷺ هذه القاعدة «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ فله أجر، وإذا حكم فاجتهد فأصاب فله أجران»(٣).

أما إذا تعلق الأمر بحق الناس فالقاعدة أن لا يعذر أحد بجهالته حفاظا على حقوق الإنسان(٤) يقول رسول الله ﷺ :« لو يعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دماء رجال وأموالهم»(٥).

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام لأبن حزم جـ٤.
(٢) رواه ابن حزم فى المجلس بسند صحيح جـ٨.
(٣) رواه مسلم.
(٤) الحكم وتكفير المسلم للأستاذ سالم البهنساوى ص ٥٩.
(٥) رواه مسلم فى باب القضاء.

الواجب فى أمر العقيدة:

يتضح مما تقدم أن أصل واجب الإسلام وما يتعلق بالعقائد يكفى فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ اعتقاداً جازماً سليماً من كل شك ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين، هذا هو الصحيح الذى اتفق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين وغيرهم ولم يطلب النبى ﷺ من أحد شيئا سوى هذا[٢].

فالواجب فى أمر العقيدة وفرض العين فيها أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وما يجب فى حق الله ورسله إلخ، وهذا ما يجب على كل مسلم أن يقر بها وهى الأصول الكلية كقاعدة للاعتقاد.

وهناك أمور بالنسبة لشهادة التوحيد لابد للمسلم أن يأتى بها ولا تنافيها كالعلم الذى ينافى الجهل والإخلاص الذى ينافى الشرك والانقياد المنافى للترك والمحبة المنافية لردها والصدق المنافى للنفاق والكذب حتى يصبح اعتقاده سليما صحيحا متقبلا إن شاء الله.

الإيمان والعمل: يقول الإمام الغزالى: اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل[٢]، فالتصديق هو الذى ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان وهذا الذى كان عليه العمل فى عهد رسول الله ﷺ وصحبه الأخيار.

ذلك لأنه لم يثبت أن الرسول ﷺ حكم على أحد بالكفر لعدم العمل بأحكام الشرع فقد قال عبادة بن الصامت: أخذ علينا الرسول ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أتى منكم حدا فأقيم عليه فهو كفارة له، ومن ستر الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له[٣].

واستمر الحال على ذلك حتى عهد على رضي الله عنه وأثير الجدل حول مرتكب الكبيرة أثار ذلك الخوارج بعد التحكيم، إذ حكموا بكفر من رضى التحكيم باعتباره كبيرة فى نظرهم، وكفروا عليا رضي الله عنه كما كفروا مَنْ معه وقد جرّ هذا إلى المناقشة فى شأن مرتكب الكبيرة: أهو مؤمن أم غير مؤمن، وهل هو مخلد فى النار يوم القيامة أم يرجى له الغفران وأن رحمة الله وسعت كل شىء وهنا ظهرت الفرق فى هذه المسألة.

---

(١) المجموع للإمام النووى جـ١ ص ٤٩ تكملة الأستاذ لمجيب المطيعى رحمه الله.

(٢) الإحياء جـ١ ص ٢٥.

(٣) رواه مسلم.

الخوارج: قالوا إن الإيمان ليس اعتقادا وإنما هو اعتقاد وعمل ومرتكب الكبيرة كافر بل منهم من يرون تكفير أهل الذنوب ولم يفرقوا بين ذنب وذنب بل اعتبروا الخطأ فى الرأى ذنب.

وأهم ما يميز هذه الفرقة الحماسة والتمسك بظواهر الألفاظ فضلا عن حب الفداء والرغبة فى الموت والاستهداف للمخاطر من غير داع قوى يدفع إلى ذلك وربما كان منشؤه هوسا عند بعضهم واضطرابا فى أعصابهم لا مجرد شجاعة فهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية.

ولقد كان منهم من يقاطع سيدنا على رضى الله عنه فى خطبته، بل من يقاطعه فى صلاته، ومَنْ يتحدى المسلمين بسبّ على وعثمان ورمى أتباعهما بالشرك.

اسمع ما قاله الكامل فى المبرد: من طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى خيرا، وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم، لقيهم عبد الله بن خباب بن الأرت وفى عنقه مصحف ومعه امرأته وهى حامل فقالوا: إن الذى فى عنقك يأمرنا أن نقتلك، قالوا: فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى خيراً قالوا: فما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان فى ست سنين[أى السنين الأولى من الخلافة] فأثنى خيرا، قالوا فما تقول فى التحكيم؟ قال: أقول أن عليا أعلم بكتاب الله منكم، وأشد توقيا على دينه، وأنفذ بصيرة قالوا: إنك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائهم، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فذبحوه.. وساموا رجلا نصرانيا بنخله له فقال هى لكم، فقالوا والله ما كنا لنأخذها إلا بثمن، قال: ما أعجب هذا أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا نخله[1].

من غريب أقوالهم: ولكى يدللوا على آرائهم بتكفير مرتكب الذنوب يقولون: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦] يقولون: جعل الله تارك الحج كافرا، وترك الحج ذنب فكل مرتكب للذنب كافر.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:٤٤] يقولون: كل مرتكب للذنوب فقد حكم لنفسه بغير ما أنزل الله فيكون كافرا.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران:١٠٦] قالوا: إن الفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ووجب أن يسمى كافرا.

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة جـ١ ص ٦٨.

وكذلك فى قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٣٨-٤٢] قالوا: الفاسق على وجهه غبرة فوجب أن يكون من الكفرة.

﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣] يقولون وبهذا ثبت أن الظلم جحود وكفر ولا شك أن مرتكب الذنب ظالم(١).

والحق أن الإخلاص كان سمة الكثيرين منهم لكنه إخلاص يشوبه الانحياز لناحية استولت على مداركهم بالهوى حتى أنك ترى فيهم صفات متناقضة تقوى وإخلاص وانحراف وتشدد وخشونة وجفوة، وشجاعة متهورة فى الدعوة إلى ما يعتقدون وحمل الناس على آرائهم المنحرفة بالعنف والقسوة من غير رفق وبصورة لا تتفق مع سماحة الدين ولا مع ما يبعثه الإخلاص والتقوى من الرحمة فى القلوب والسبب إن الإيمان أصاب شغاف قلوبهم مع سذاجة فى التفكير وضيق فى التصور وبُعْد عن العلوم الإسلامية فتكوّن من ذلك نفوس مؤمنة متعصبة ضيقة العقول(٢).

سيدنا على يناقشهم: كان سيدنا على بن أبى طالب حين يناقش الخوارج يناقش ويحتج بعمل رسول الله ﷺ وعدل عن مناقشتهم بالنصوص؛ لأنهم يأخذون بظواهر النصوص كما رأيت ـ ولكن الاحتجاج بالعمل الذى عليه الرسول ﷺ لا يقبل تأويلا ولا يفهم إلا على وجهه الصحيح فلا يكون فيه مجال لنظراتهم السطحية.

اسمع إليه رضي الله عنه يخاطبهم بقوله:

« فإن أبيتم أن تزعموا أنى أخطأت وضللت، فلم تضلون عامة أمة محمد ﷺ وتأخذونهم بخطئى، وتكفرونهم بذنبى، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزانى المحصن ثم صلى عليه ثم ورثه أهله، وقتل القاتل، وورث ميراثه أهله، وقطع يد السارق وجلد الزانى غير المحصن ثم قسّم عليهما الفئ، ونكحا المسلمات فآخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله»(٣).

والخوارج أهل جدل يتمسكون بآرائهم أشد الاستمساك، وكان التعصب يسود جدلهم فهم لا يسلمون لخصومهم بحجة ولا يقتنعون بفكرة مهما تكن قريبة من الحق أو

---

(١) نهج البلاغة جـ ٢ ص ٣٠٧ عن المذاهب الإسلامية لأبى زهرة جـ ١ ص ٧٢.

(٢) المرجع السابق أبو زهرة جـ١ ص ٦٨.

(٣) المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ٧٣.

واضحة الصواب ولذلك انقسموا إلى فرق منها الأزارقة والنجدات، والصفرية، والعجاردة، والأباضية، وهناك بعض الفرق التى أتت بمبادىء تعد خروجا على الإسلام: كالزيدية ادعوا أن الله سيبعث نبيا من العجم ينزل عليه كتاب ينسخ الشريعة المحمدية، والميمونية الذين أباحوا نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الأخوة وكل ذلك من الانحراف فى التفكير واضطراب فى التصور.

ومع هذا فإن سيدنا على بن أبى طالب لم يحكم على الفئة الأولى منهم بكفرهم فنظر إليهم على أنهم ضلوا من حيث أرادوا الخير وأجهدوا أنفسهم وأجهدوا الناس معهم: ولذا روى عنه ﷺ أنه أوصى أصحابه بألا يقاتلوهم من بعده؛ لأنه من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فناله، فعلىّ رضى الله عنه كان يعتبرهم طالبين للحق ولكن جانبوا طريقه ويعتبر الأمويين طالبين للباطل ونالوه[١] هؤلاء هم خوارج الأمس.

بدعة التكفير بين الأمس واليوم:

تعتبر بدعة الخوارج من البدع البارزة المشهورة والتى لا زالت آثارها تتردد بين أنحاء العالم الإسلامى إلى الآن، وقد أخبر الرسول ﷺ عن شرها وحذر من الأخذ بها، وطالب بالقضاء عليها ومحاربتها.

روى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن زيد بن خالد الجهنى أنه كان فى الجيش الذين كانوا مع على ﷺ، الذين ساروا إلى الخوارج فقال على رضى الله عنه: أيها الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتى يقرأون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء ولا صيامكم إلى صيامهم بشىء يقرءون القرآن ويحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم لا تكلوا على العمل وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع، وعلى رأس عضده مثل حلمة الثدى عليه شعرات بيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم والله أنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على سرح[٢] الناس فسيروا على اسم الله.

قال سلمة بن كهيل: فنزلنى زيد بن وهيب منزلا حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبدالله بن وهب الراسبى، فقال لهم: ألقوا الرماح وسلوا

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٨٦.

(٢) الأنعام التى ترعى ومن رعاها.

سيوفكم من جفونها فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدونكم يوم حروراء فرجعوا فوحشوا[1] برماحهم وسلوا السيوف وشجرهم[2] الناس برماحهم قال: وقتل بعضهم على بعض، ما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان، فقال على رضي الله عنه: التمسوا المخدج[3] فالتمسوا فلم يجدوه، فقام على نفسه حتى أتى أناسا قد قتل بعضهم على بعض، قال: أخروهم، فوجدوه مما يلى الأرض، فكبر ثم قال: صدق الله وبلغ ورسوله، قال فقام إليه عبيدة السلمانى فقال: يا أمير المؤمنين، الله الذى لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال: أى والله الذى لا إله إلا هو ، حتى استحلفه ثلاثا وهو يحلف له[4].

لقد نبتت بدعتهم وترعرعت فى خفاء وتستر طوال عهد النبوة الكريم وعهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ثم فى عهد عثمان رضي الله عنه إلى أن انتشرت الفتنة فكانوا ممن اشترك فى قتله ظلما وعدوانا ثم بادروا إلى مبايعة على رضي الله عنه بالخلافة فيمن بايع، واشتركوا معه فى حرب صفين وما كاد على رضي الله عنه يشرف على الانتصار حتى أشار عمرو بن العاص على معاوية رضي الله عنهما برفع المصاحف على الرماح والمبادرة بطلب الاحتكام إلى كتاب الله تعالى والدعوة إلى حقن دماء المسلمين فوافقه معاوية على ذلك ثم نقدوا ـ أى الخوارج ـ عليا ومن معه فى موقفهم، وناقشهم ابن عباس حتى قال على رضي الله عنه كلمته المشهورة فيهم فى قولهم: «لا حكم إلا لله » قال كلمة حق أريد بها باطل.

وقال لهم إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا:

١ـ لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه.

٢ـ ولا نمنعكم الفئ ما دامت أيديكم مع أيدينا.

٣ـ ولا نقاتلكم حتى تبدءونا.

ولكنهم عاندوا واتبعوا أهواءهم واستمروا فى ضلالهم حتى قاتلهم وأقام الدليل على أنهم المقصودون بالأحاديث النبوية وأنهم خرجوا ببدعتهم عن الدين خروجا كليا أو جزئيا[5].

---

(١) أى رموا بها عن بُعد.

(٢) طعنوهم.

(٣) أى الذى تقدم وصفه بأن له عضد وليس له ذراع إلخ. .

(٤) رواة مسلم انظر شرح النووى جـ ٧ ص ١٧١ وأبو داود جـ٤ رقم ٢٤٤ وفى البخارى بعضه جـ ٤ ص ١٦٠ .

(٥) البدعة د/ عزت عطية ص ٣٨٤ بتصرف.

قول ابن عــمر فـيهم: ومن أصدق ما يـصور حال الخوارج ما روى عن ابــن عمر رضى الله عنهما أنه كان يراهم شرار خلق الله يقول فيهم: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فـجعلوها على المؤمنين[1] وقال: «**يكفـرون المسلمين ويسـتحلون دمـاءهم وأموالهم وينكحون النسـاء فى عدتهن، وتأتيهم المرأة فينكحـها الرجل منهم ولها زوج، فلا أعلم أحداً أحق بالقتال منهم**»[2].

فبدعة كبدعة الخوارج التى كانت سبـبا فى فرقة المسلمين وتشعبهم إلى فرق تتناحر بالسيف وتتضـارب بالرأى لابد وأن يحاول إحياءها أعـداء الإسلام من آن لآخر إن هم عجزوا عن ضرب الإسلام نفسه لأنه عقبة كئود فى طريق كفرهم فكان لابد من محاولة تفتيت هذه الصـخرة وإحياء هذا الفكر حتـى يتفرق المسلمون ولا تقوم للإسـلام قائمة ولكن هيهات:

كناطح صخرة يوما ليوهنها ... فأوعى وأوهى بقرنه الوعل

ويكفى أن تعلم أن من ضرر تكفير الناس بالذنوب:

أولا: ضرب كتاب الله بعضه ببعض.

ثانيا: إهمال السنة الموضحة والمبينة لنصوص القرآن.

ثالثا: تحكيم الهوى والظن السيىء.

رابعا: ترك الكفار وتأمينهم.

خامسا: محاربة المسلمين وإرهابهم.

سادسا: اعتبار المسلمين العصاة مرتدين عن الإسلام.

والردة: هى الرجـوع إلى الكفر بعـد الإسلام ـ بعـد نقض الشهـادة بشروطـها ـ وحكم المرتد القتل قـال ﷺ: [من بدّل دينه فاقتلوه] وقال: لا يحل دم امـرئ مسلم يشـهد أن لا إله إلا الله وأنى رسـول الله إلا بإحـدى ثلاث: النفس بالنفس، والثـيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[3].

والإجماع أن من جحد شيئا مما افترضه الله تعالى عليه الإيمان به فقد كفر وارتد عن الإسلام إلا أن يكون الجـاحد غـير عالـم بالنص فيبلـغ إليه ويعرّف بما هو واجـب عليه

(١) البخارى جـ٩ ص ١٥. (٢) الاعتصام للشاطبى جـ ٥ ص ١٥٨.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

الإيمان به فمن أصر على الجحود والتكذيب كان كافرا مشركا. فهل يكف الشباب عن تكفير المسلمين ويعودوا إلى الإسلام بدقة أحكامه حتى تتوحد الصفوف وتتآلف القلوب.

المرجئة: وهم الذين قالوا: الاعتقاد بالقلب والعمل لاأثر له مطلقا حتى قالوا عبارتهم المشهورة لهم لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

المعتزلة: الذين قالوا: أن مرتكب الكبيرة غير مؤمن وقد سمى مسلما، وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين، فمرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب مخلد فى النار وليس مؤمنا ولا كافرا.

أما جمهور المسلمين ورأى أهل السنة والجماعة قالوا: هو ومؤمن عاص أمره بيد الله إن شاء عذبه بقدر ذنبه وإن شاء عفا عنه.

ولقد استدل الفقهاء ومنهم ابن حزم الظاهرى الذي لا يعرف القياس أن الأحاديث فى هذا المعنى تفيد أن الإيمان يكون بالنطق بالشهادتين، أما الأعمال فلا يكفر تاركها، وقد أجمعت الأمة على أن الدخول فى الإيمان يكون بالتصديق بالشهادتين والخروج من الإيمان بجحود وإنكار ما جاء من عند الله؛ لأنه رد للشهادتين وجحود بهما ولهذا أطلق اسم الكفر الأصغر أو العملى أو المجازى على الأعمال التى سماها الشرع كفر ودلت الآثار على أنها ليست كذلك لا تخرج من الملة.

أما التكاليف الشرعية والأعمال من جهاد وحج وصوم وصلاة فيزيد الإيمان بوجودها وينقص بتركها، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾**[الفتح :٣] ويقول: **﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾**[التوبة: ١٢٤].

فالإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى وهذا هو رأى أهل السنة والجماعة يقول ﷺ : «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة: ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ذرة**»(١) فالخير الوارد هنا الإيمان لأن الله أخرج المشركين من المغفرة **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾**[النساء: ١١٦].

ولا توجد واقعة واحدة تفيد أن رسول الله ﷺ حكم بالكفر على المعصية أو

(١) رواه البخارى.

توقف بالحكم على من نطق بالشهادتين بالإيمان انتظاراً للتأكد من مدى اعتقاده بها أو علمه بمفهومها أو عمله بأحكام الشرع، ولكن جميع الآثار والنصوص تثبت الحكم بالإيمان بمجرد النطق بالشهادة.

وليس معنى ذلك أنه إذا فعل ما ينافى هذا التصديق يظل مؤمنا بل يرتد عن الإيمان إن تبين أنه يشرك مع الله غيره قاصدا ذلك، أما من آمن وعمل عملا لا يدرى أنه كفر أو شرك فلا ينافى هذا إيمانه لأنه لم تتجه إرادته إلى ذلك إلا إذا نُبّه فأصر على الشرك عالما به قاصدا له وغير مكره عليه أو متأولا.

وها هو ذا رسول الله ﷺ يدعو صباح مساء « **اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه**»[1].

والذين يقولون بشرط العمل نقول لهم: إن أول العمل النطق بالشهادتين ،فعن أبى هريرة أن الرسول ﷺ سئل أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور[2].

ثم ما هو العمل وما مقداره الذى يصبح به المسلم مع عقيدته مسلما لا يستطيع أحد أن يحدده كمقياس لقبول الإيمان.

وأخيرا نقول: إن فى كل عبادة عملية جانبين من الامتثال: الجانب الأول هو الجانب الاعتقادى، والثانى هو التنفيذ ومثال ذلك القتال: يجب اعتقاد فرضيته على كل مسلم ثم يجب تنفيذه إذا تعين على كل فرد معين أو جماعة معينة وذلك بشروط معروفة فى كتب الحديث والفقه، ولذلك يقول الرسول ﷺ : «مَنْ لم يغز أو يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق». فتحديث النفس هو الجانب الاعتقادى فيجب على كل مسلم اعتقاد وجوب القتال على مجموع الأمة لقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**﴾[البقر:٢١٦] الآية، والقيام به عند تعيين ذلك.

وهذا الجانب الاعتقادى نفيه كفر وهو مايسميه العلماء(الجحود) يقولون: من جحد وجوب الحج كفر وأما تركه كسلا أو بعذر ما غير مقبول شرعا يعتبر عاصيا والفرق واضح بين الجحود والأعذار الأخرى وهى تبين مدى دقة الأحكام فى الإسلام[3] وصدق

(١) رواه أحمد والطبرانى وأبو يعلى. (٢) البخارى جـ٢ ص ١١٩.

(٣)الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ،عبد الرحمن ص ٢١ بتصرف.

الإمـام النووى حين قال: اعلم أن مـذهب أهل الحق أن لا يكفـر أحد من أهل القـبلة بذنب[١].

أنواع الكفر:

والذين يقـولون بتكفيـر أهل المعـاصى يتعلقـون بما ورد من الأحـاديث التى تدمغ مرتكبى الكبائر بالشرك أو ما يقتضيه مثل:

- قوله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»**[٢].
- وقوله ﷺ لأبى ذر: **«إنك امرؤ فيك جاهلية»**[٣].
- وقوله ﷺ: **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**[٤].
- وقوله ﷺ: **«إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»**[٥].
- وقوله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»**[٦].
- وقوله ﷺ: **«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مـؤمن، ولا يسرق السـارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن»**[٧].

وليس فى كل ما سبق من هذه الـنصوص دليل صريح على كفر مـرتكب الكبيرة؛ ذلك لأن الأدلة قـد قامت على ضـده، وعلى المسلم ألا يكفر بشىء من المعـاصى ولو كانت كـبيرة قـال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣]، أى ما عدا الشرك الذى بينت الآية السابقة أن الله لا يغفره وقال تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [الحجرات: ٩] فسماهم رغم الاقتـتال مؤمنين والطـائفة تطلق على الواحد والجـمع، وسمى الله القـاتل مؤمنا، وجعله أخا لولى المقتول، ولم يخرجه بالقتل عن الإيمان فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ**

---

(١) شرح مسلم جـ١ ص ٧٠ للإمام النووى.

(٢) مسلم جـ١ ص ٢٨٤ شرح النووى وأبو داود جـ٢ ص ١٨١ والترمذى وقال: حسن صحيح وابن ماجة.

(٣) البخارى جـ ١ ص ١٢.

(٤) البخارى جـ١ ص ١٥ ومسلم جـ١ ص ١٥٣ والترمذى وقال حسن صحيح.

(٥) أبو داود جـ١ ص ٢٦٨ والترمذى وقال: حسن صحيح.

(٦) البخارى جـ٩ ص ٤ ومسلم جـ١ ص ٢٥٤ وأبو داود.

(٧) البخارى جـ٣ ص ٢٦٨ ومسلم جـ١ ص ٢٤١ النووى.

أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[البقرة: ١٧٨].

ومما يدل على أن هناك كفر دون كفر أن لفظ الكفر قد يرد فى القرآن والسنة النبوية بمعنى آخر غير الكفر المخرج من الملة والذى من نتائجه مفارقة الزوجة المسلمة للمسلم الذى كفر وخروج أولاده عن ولايته وانعدام التوارث عند الوفاة، مع دفنه فى مقابر غير المسلمين.

ذلك لأن لفظ الكفر أو الشرك يطلق على بعض المعاصى من قبل المجاز للزجر وبيان عظم أمر هذه المعصية ـ ومن أمثلة ذلك ما أشرنا إليه قبل ذلك مثل« من حلف بغير الله فقد كفر أو فقد أشرك» فهذه الألفاظ لا تعنى الكفر الأكبر المخرج من الملة.

وأنت ترى ذلك أيضا فى قوله رسول الله ﷺ للصحابيات« تصدقن وأكثرن من الاستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» سألت امرأة عن السبب فقال: تكثرن اللعن وتكفرن العشيرة [(١)]، فكفر العشير أو كفر النعمة لا يخرج عن الملة، وفى رواية البخارى ورد سبب دخول النساء النار وهو قول النبى ﷺ « إنهن يكفرن» فسئل يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان.

وعلى هذا فإن الكفر والظلم والفسق مراتب، كما ورد عن ابن عباس قوله « كفر دون كفر» ولقد جعل البخارى كتاب الإيمان عدة أبواب منها باب كفر العشير وكفر دون كفر، ولذلك قد يوصف المؤمن بالفسق والظلم أو الشرك أو عدم الإيمان لفعل منكر فعله ولكن لا يعد مرتدا عن الملة فالذى شرب الخمر وأقيم عليه الحد قال الرسول ﷺ حين لعنه أحد الصحابه «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم ولكن قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»[(٢)].

كما روى البخارى استنكار النبى ، من لعن ذلك الذى أكثر من شرب الخمر ثم قال: لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله.

وحديث عبادة بن الصامت الذى جاء فيه «ومن أتى حدا فأقيم عليه فهو كفارة له، ومن ستر الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[(٣)] أى أن العاصى مؤمن غير مشرك لأن المشرك لا يغفر الله له. والمولى جعل للمعاصى حدودا أى عقوبات كالجلد وقطع اليد أما الخروج عن الإسلام فعقابه القتل.

دعوة إلى العمل: ليس معنى أن العمل ليس شرطا للإيمان أنها دعوة إلى

---

(١) رواه مسلم.   (٢) أبو داود.

(٣) صحيح مسلم.

التكاسل وترك العمل فما قيمة إيمان لا ثمرة له ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وإن قوما ألهتهم الأمانى وخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

إن الذى يترك الفرائض ويأتى بالمنهيات متكلا على إيمان فى القلب كرجل وضع حبة وفى الأرض ولم يروها ولم يرعها ولم يتعهدها ثم جلس ينتظر الثمرة إنه لعابث غير جاد فى زراعته الحبة.

والذى يستهين بعذاب الله ولو يوما واحدا خطره عظيم وجرمه كبير فكيف ينتظر عفو ربه ثم شفاعة نبيه ﷺ من كان يحمل فى عقله هذا التفكير السقيم « **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**».

فوجل القلب أى خوفه وخشيته وزيادة الإيمان أى التصديق فى القلب وتأكيده، والتوكل على الله كل هذا استجابة حسية يحسها القلب المؤمن، ومعنى هذا أن حقيقة الإيمان ليس مجرد تصديق خامل فى القلب وإنما هو تصديق مستجيب حى ثم يأتى بعد ذلك إعمال الإيمان وأثره.

أما العصاة التاركين لأوامر الله والعمل بما أنزل سدخلون النار لأمد لا يعلمه إلا الله فهم داخلون بمشيئة الله فمن هذا الذى يتحمل نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى» فهم مع هؤلاء وإن اختلفت دركاتها، وسيخرجون منها بمشيئة ربهم لتوحيدهم.

والمسلم لا يستهين بذنب، ولا يستصغر إثما فالإصرار على الصغائر كبائر وباب التوبة مفتوح وشرط قبولها العمل الصالح «**وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعملا صالحا ثم اهتدى**» وسنرحل من هذه الدنيا ولا يبقى لنا إلا العمل عش ما شئت فإنك ميت واحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزى به، البر لا يبلى والذنب لا ينسى والدّيان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان، والكيس مَنْ دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى.

وهذه الظاهرة ـ ظاهرة المسلمين الذين لا يعملون ـ الموجودة فى ديار المسلمين من أناس يشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا يعملون بما أمر الله به، وينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يول بل ربما يصل الأمر إلى

أن يفسدوا فى الأرض وتحقق فيهم قول الله ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩].

إنما ترجع هذه الظاهرة إلى عدم تحكيم كتاب الله وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأصبحت الفاحشة شائعة بين الناس وأصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا وانتشر الفساد واستشرت الفتن وكأنى برسول الله ﷺ يعينهم بقوله ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان: ٣٠] فاستهان الناس بدين الله لأنهم لم يجدوا مَنْ يزجرهم ويعيد الحق لنصابه» إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

ويوم يعود المسلمون بشرع الله ويقام دين الله على الأرض لن تجد هذه الظاهرة الأليمة ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: ٦].

نقض الشهادة: إن الذى يترك العمل مطمئنا لإيمانه على شفا جرف هار بل على شفا حفرة من النار ويخشى عليه أن يقترب من نقض هذه الشهادة فيرتد على أعقابه خاسرا خاسئا وعليه أن يجدد إيمانه لأن الإيمان يخلقُ كما يخلق الثوب ويحتاج إلى تجديد، وإن كانت الشريعة قد حددت كلمات للدخول فى الإسلام فهى أيضا حددت أقوالا وأفعالا إذا قالها أو فعلها المسلم خرجت به من الملة السمحاء إلى الكفر، وهذه الأقوال والأفعال حددت تحديدا واضحا لا لبس فيه ولا إبهام حتى لا يحكم على مسلم بكفر وهو من أهل القبلة فينوء بها من حكم عليه بذلك وتكون عاقبته خسرا.

والذى نحب أن نؤكد عليه أن إنكار الأصول: الإيمان بالله، والإيمان برسله، والإيمان باليوم الآخر، أو انكار ما لا يحتمل التأويل فى نفسه مما تواتر نقله كإنكار الحشر والجنة والنار، وعلم الله تعالى بتفاصيل الأمور وأركان الإسلام ونحو ذلك كفر.

وأما ما تطرق إليه احتمال التأويل ولو بالمجاز البعيد فيجب التريث فيه قبل الحكم.

ولا يكفر المسلم هكذا باطلاق إذ لابد من التحقق من وجود شروطا التكفير فيه وانتقاءموانعه عنه فإذا توافرت هذه الأمور حكم عليه بالكفر وهكذا ترى أن أمر التكفير من الأمور الدقيقة التى ضبطها الشارع الحكيم.

هل الجماعة شرط للإيمان؟: نحن نفهم إسلامنا على أنه ينتظم الحياة جميعا، ويفتى فى كل شأن من شئونها، ويضع لها نظاما محكما دقيقا، ولا يقف مكتوف الأيدى أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لابد منها لإصلاح الناس. فهو ليس مقصورا على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانيات كما فهمه بعض الناس، لكننا

نفهمه على أنه ينتظم شئون الدنيا والآخرة، فهـمهمتنا إذن سيادة الدنيا وإرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة وتعاليمه فلا يمكن بغيرها أن يسعد الناس.

لهذا جـاء أول ما جاء بعقـيدة لتوحيـد المشاعر، ثم عبـادات لتوحيد الشـعائر ثم بشريعة تنتظم الحيـاة جميعا شاملة لألوان النشاط البشـرى اجتماعيا وسياسـيا واقتصاديا وفكريا وبذلك أصبح الإيمان بالتوحيد يقـتضى الإيمان بالتشريع، إذ لو كان الإسلام دون شرائع لأصـبح علاقة بين الـعبد وربه لا شـأن له بتنظيم الحياة وبالـتالى فلا حـاجة لنا بالحاكم ينظم ويحكم ويقيم دولة على منهج حياة ربانى.

وكل مسلم يعلـم علم اليقين أن دعوة الإسـلام دعوة عالميـة وليست محليـة فهى ليست لقوم دون قـوم ولا جنس دون جنس ولا لغة دون لغة ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾[الفرقان: ١]. . وفى الحديث المتفق عليه «كان كل نبى يبعث إلى قومه خـاصة وبعثت إلى الناس كافة واقـرأ إن شئت قول ربنا ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ** ﴾[إبراهيم: ٥] فمـوسى يرسل إلى قومه ليـخرجهـم من الظلمات إلى النور أمـا رسولنا مـحمـد ﷺ فيقـول له ربه﴿ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [إبراهيم: ١] الناس كل الناس عربيـهم وعجمـيهم أبيضـهم وأسودهم لتقـوم دولة الإسلام العالمية.

فإن قال قائل: أنا أستطيع أن أحكم بالإسلام على نفسى فلا أظلم ولا أرابى، ولا أسكر، ولا أزنى، وأقـوم بصلاتى وزكـاتى، وصومى وحجـى وكل واجباتى الإيمـانية الفردية.

نقول هذا جمـيل ولكن كيف نطبق المنهج السيـاسى، والاقتصادى، والاجـتماعى والتربـوى، بل من يقيم الحـدود فيقـطع يد السارق، ومن يجلد الزانى؟ بل ومن يـقيم العدل ويرد الظلـم؟ ومن يحدد المال الحلال والحـرام؟ ومن يحدد أنواع العـمل ووسيلة الكسب؟ ومَنْ يسوس الأمة ويحمى البيضة وينشر الدعوة؟

إن المسلمين إذا لم يحققوا ذلك فى واقع حياتهم ويكتـفوا بالمشاعر والشعائر فإنهم يقعـون فى تناقض اعتقـادى لا مخرج منه وهم يسـتمعـون إلى ربهم يقول ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[البقرة: ٨٥] ويسمعـون لتحذير القـرآن لرسـولـهم ﷺ وهو يقـول« **واحـذرهم أن يـفـتنوك عن بعـض مـا أنزل الله إليك...**».

وجوب الإمامة: من هنا أجمع المسلمون من بعـد وفاة الرسول ﷺ على من يخلفه ليحفظ الدين، وتستمـر الدعوة، ويحمى الأمن، وتبلغ رسالة الإسلام إلى سائر أنحاء الدنيا.

ولذلك **قال الإمام الجوينى** الإمامة إنما تقوم على أصل الإجماع الثابت. **ويقول ابن خلدون:** إن نصب الإمامـة قد عرف وجوبه فى الشـرع بإجماع الصحـابة والتابعين ولم يقل أحد بغير ذلك.

ويقول الشهر ستاني: قال أبو بكر بعد خطبته فى سقيفة بنى ساعدة «ولابد لهذا الدين من قائم يقوم به فناداه الناس من كل جانب صدقت يا أبا بكر».

ويقول الماروردى: الإمامـة موضوعة لخـلافة النبوة فى حـراسة الدين وسيـاسة الدنيا. وصـدق القائل الدين أصل والسـلطان حارس وما لا أصل له فـمهـدوم وما لا حارس له فضـائع ولقد وضع الفقهـاء شروطا لتنصيب الإمام أو خلعـه وعزله ليس هنا مجال الحديث فيها.

ولكى نحـقق هذا الأمر لابد من تحديد أهـداف توصلنا إلى الهدف الأكـبر ولذلك كان من أهداف الاخوان:

الفرد المسلم، فالبيت المسلم، فالشعب المسلم، فالحكومة المسلمة، فالدولة التى تقود الدول الإسـلاميـة وتضم شـتات المسلمين ومن هنـا فإن الجـماعـة المسلمـة هى التى يتم الوصول بها إلى تحقيق هذا الواجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وكأنى بربى يذكرنا بهذه الجماعـة التى تقيم الإسلام على الأرض فى كل ركعة من الركعات وأنت تقول« **إياك نعبد وإياك نستعين**» ولا تقول« **إياك أعبد وإياك أستعين**» ولو صليت بمفردك ليس لك إمام فكأن العبادة الحقة لا تتم إلا من خلال هذه الجماعة المؤمنة مستـعينة بالله وهى تسير طريق الـهداية وتقول « **اهدنا الصراط المسـتقـيم صراط الذين أنعمت عليهم**».

ولو تدبرت القسم الذى أقسم الله به فى قوله﴿**وَالْعَصْرِ ○ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ○ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ لوجدت أن الذين استثناهم المولى من الخسـران هم الجماعـة المسلمة ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ ولم يقل إلا الذى آمن وعمل صالحا لأن هذا الكتاب الذى لا ريب فيه « **هدى للمتقين**» وليس هدى للمتـقى فهى الجـماعة التى تشـير إليـها كثـير من آيات القـرآن لتثبـيت هذا المعنى عند المسلمين.

ولا يتم معنى الجماعة فى نفس الفرد إلا إذا شعر:

١- بالاعتزاز بانتمائه إليها.

٢- الطمأنينة فى وجوده فيها.

٣- أنها حققت آمانيه.

٤- أنه عضو فيها ولبنة من لبناتها يمدها وتمده ويشدها وتشده.

٥- أنه ليس بغيرها وهم إن لم يكونوا به فبغيره﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾[محمد:٣٨].

ومع هذا كله فهل الجماعة تعتبر شرطاً للإيمان؟

جماعة المسلمين: هى الجماعة التى تقيم شرع الله على الأرض وتحكم بالشورى ولها إمام للمسلمين له شروط منها:

الإسلام - والذكورة - والتكليف - والعلم - والعدل - والكفاية وغير ذلك من الشروط التى وضعها الفقهاء.

ولا يجوز الخروج عليه طالما أنه يضع منهج الله موضع التنفيذ فالخروج عليه أثم عظيم وفتنة وفساد كبير - وفى هذا الموضوع كلام كثير ليس هنا مجاله.

أما ما نراه فى أيامنا هذه فهى جماعات من جماعات المسلمين وليست فيهم جماعة تدعى أنها الجماعة المسلمة يأثم من تركها ومَنْ لم يلتحق بها فسعى المسلمين للجماعة التى لها خبرتها وتاريخها وفقهها ورجالها ليشدوا من عضدها ويسيروا طريقها أمر مرغوب ومطلوب بل واجب.

ومع هذا فالخروج من هذه الجامعة أو تلك لا يعتبر إثما إلا بقدر الدافع الذى دفع صاحبه للخروج منها، وبقدر سلوكه المنافى لأخلاق المسلمين وآدابهم فلا يأثم للخروج نفسه ولكن لما ارتكبه فى حقها من آثام.

إما إذا تركها لسبب أو لأخر أو انتقل من جامعة إلى أخرى يرى أنها الأولى والأصلح لتحقيق الأهداف السامية والغاية الكريمة فلا بأس ولا حرج عليه طالما أنه رأى أنها الأولى فالنبى ﷺ حكم بالإسلام لمن أعلن النطق بالشهادتين فبهما وحدهما يصبح المسلم مسلما، أما القول بكفر من نطق بهما لأنه لم يلتحق بجماعة من المسلمين فهو قول خاطئ وتشريع زائد وادعاء لا برهان عليه.

يقول ربنا﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فالذين لم يهاجروا إلى رسول الله ﷺ وجماعته ـ وهى الجامعة المسلمة الوحيدة ـ أى جماعة المسلمين لم يسلب الله إيمانهم بل حكم لهم بالإيمان فى موضعين هما!

أولا: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ فأثبت لهم الإيمان.

ثانيا:﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ إنما سلب منهم فقط النصرة إن طلبوا المناصرة على كفار بينهم وبين جماعة المؤمنين ميثاق وعهد وأمان﴿ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ فإن تحول الأمر إلى موالاة الكفر والاعتراف لأهله بحق التحليل والتحريم سُلب الإيمان.

فالمسلم الذى ينضم إلى النبى ﷺ والمسلم الذى أعلن اسلامه بكلمة اللسان كلاهما لم يخرج عن الإيمان ولا يجوز أن نزعم أنه كافر، ذلك لأن المعاصى لا يترتب عليها الحكم بكفر صاحبها ـ كما بينا بتفصيل ـ كما أن الانضمام إلى الجماعة الإسلامية ولو كانت هى الجماعة الوحيدة فى العالم بل ولو كانت السلطة والحكم بيدها، هذا الانضمام فريضة وليس شرطا من شروط الإيمان فعدم الانتقال إلى مجتمع هذه الجماعة لا يترتب عليه كفر لمن آثر الخوف ولم يجاهد مع هذه الجماعة لأن الله يقول﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ فنفى عنهم حق النصرة ولم ينف عنهم الإيمان. وليس معنى ذلك أنهم على حق بالطبع لا ولكن إثمهم دون الكفر.

يقول الشهيد سيد قطب فى معنى الآية: «ثم وجد آخرون دخلوا هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلا لم يهاجروا إلى دار الإسلام التى تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ثم يقول: إن هؤلاء ليسوا أعضاء فى المجتمع المسلم ومن ثم لا يكون بينهم وبينه ولاية ولكن هناك رابطة العقيدة»(١) نعم رابطة العقيدة ولكنهم مقصورون أو معذورون أو جاهلون أو آثمون لكنهم ليسوا كافرين.

هذا بالنسبة لجماعة المسلمين فما بالك بمن يلتحق بجماعة من جماعات المسلمين فليتق الله من لا همّ لهم إلا تكفير المسلمين وبدل أن يفتحوا للناس باباً للتوبة يلقون بهم فى النار هذه رسالة المسلم فى الوجود؟﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧].

(١) ظلال القرآن المجلد السادس سورة الأنفال.

حكم من لم يحكم بما أنزل الله

أجمع أهل السنة والجماعة على أن المعاصى صغرت أم كبرت لا تؤدى بذاتها إلى الحكم على المسلم بالكفر، إنما يكون الكفر بسبب استحلال المعصية بتحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله تعالى وهذه مسألة لا يختلف فيها اثنان من العلماء فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

بل إن استحقاق المغفرة لمرتكب الكبيرة أيضا واسمع إلى قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] وقوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فالكافر يدخل فى الإسلام بالنطق بالشهادتين ويعد بهذا الإعلان مسلما تجرى عليه أحكام المسلمين حتى ولو كان يظهر الإسلام ويبطن الكفر فأمره إلى الله لأن الله تعالى أمرنا فى هذه الدنيا أن نأخذ بظاهر أحوال الناس وأن نترك البواطن لحكم الله تعالى فى الآخرة: ولقد أنكر الله على مَنْ رد هذا الظاهر فقال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤].

فالمسلمون جميعا يؤمنون إيمانا كاملا تاما أن شريعة الله هى الحق والعدل وما دونها باطل وظلم ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] فماذا بعد الحق إلا الضلال وأن شريعة الله هى التى تلزمنا بمقتضى أمره تعالى سواءً ارتضاها حاكم أم لم يرتضها، وهى نافذة وواجب على كل مسلم العمل بها ما استطاع إلى ذلك سبيلا سواء أنفذها الحاكم أم عمل على تعطيلها ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وهى الشريعة التى لا يجوز التحاكم إلا فيها فقيها يرد الحلال والحرام وما هو فرض وما هو نهى وما هو مندوب اليه وما هو مكروه وما هو مباح﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

هذا ما يجب أن يكون عليه العباد، لكن المولى سبحانه وتعالى علم أن عباده يعصون بعض أوامره ويتبعون فى ذلك ـ بالعمل دون العقيدة ـ الشيطان وأهواءهم، ولقد فرق المولى سبحانه ـ رحمة بنا ـ بين المعصية التى سماها كفرا وشركا لا يغفران، وبين المعصية التى سماها ذنبا قد يغفر وقد لا يغفر ويجازى مرتكبه بالعذاب فى جهنم ولكن

لا يخلد وتلك هى المعاصى التى حكم الله تعالى أن مرتكبها لا ينتفى عنه اسم الإيمان.

ومن هذا قول الله ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال بعض الناس إن هذا الحكم معلوم من الدين بالضرورة كما أن حال الحاكم الذى لا يحكم بما أنزل الله معروف لدى الناس بالضرورة فلزم من ذلك ضرورة أن يقطع كل مكلف بكفر ذلك الحاكم وأن يعتقد ذلك فيه بقلبه ويعلن بلسانه فمن توقف عن الحكم على ذلك الحاكم بذلك فهو قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة فهو كافر.

وهذه - حقيقةً - معادلات رياضية وليست أحكاما فقهية ولقد قلنا من قبل أن كل عبادة عملية لها جانبان من الامتثال، الجانب الأول هو فرضيته على كل مسلم ثم وجوب تنفيذه إذا تعين على كل فرد معين أو جماعة معينة.

والجانب الاعتقادى نفيه كفر وهو ما يسمى بالجحود فمن جحد وجوب الحكم بما أنزل الله فقد كفر وأما تركه كسلا أو بعذر ما غير مقبول شرعا يعتبر عاصيا والفرق واضح بين الحالين.

لذلك قال ابن عباس إن الآية ليست على ظاهرها وإطلاقها وكذلك التابعى الجليل طاووس اليمانى قالا: «إن الكافر هو من حكم بغير ما أنزل الله جاحدا وأما مَنْ أقر بحكم الله وحكم على خلافه فهو ظالم فاسق»(1) وبذلك قال السدى وعطاء وطاووس وكثير من أئمة الفقه، وهذا هو المدون فى كتب الفقه وتفاسير القرآن المتداولة بين الناس مثل القرطبى وابن كثير وصفوة البيان وغيرهم(2).

والحق يقال إن أهل السنة اختلفوا اختلافا لفظيا لا يترتب عليه فساد وهو: هل يكون الكفر على مراتب - كفر دون كُفر؟ كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب إيماناً دون إيمان، وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم فى مُسمى الإيمان: هل هو قول وعمل يزيد وينقص أم لا؟ بعد اتفاقهم على أن مَنْ سمّاه الله ورسوله كافراً نسميه كافراً إذ من الممتنع أن يسمى الله سبحانه وتعالى الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ويسميه رسوله ﷺ ولا نطلق نحن اسم الكفر على ذلك.

ولكن من قال إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قال: هو كفر عملى لا اعتقادى، والكفر عنده على مراتب كفر دون كفر كالإيمان عنده.

ومن قال: إن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل فى مسمى الإيمان، والكفر هو

---

(1) البخارى جـ1 ص 29.

(2) دعاة لاقضاة للأستاذ المستشار حسن الهضيبى رحمه الله.

الجحودولا يزيدان ولا ينقصان قال: هو كفر مجازى غـير حقيقى، إذ الكفر الحقيقى هو الذى ينقل عن الملة[1].

ولذلك فإننا نقول: من اعتقد أن شخصاً أو هيـئة ما أو جماعة ما كائنا مَنْ كان له الحق أن يحل مـا حـرم الله أو يحـرم مـا أحل الله وثبت حكم التـحليل أو التـحـريم القطعى، وكان هذا الاعتقاد بعد أن بلغه الحق وقامت عليه الحجة ولم يكن متأولا لنص من كتاب الله أو السنة فهو كافر مشرك خارج عن ملة الإسلام، ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[الشورى: ٢١].

أما إذا انتفى عنه اعتقاد ذلك وآمن بما أنزل على محمد ﷺ وهو الحق ولكنه لم يضعه موضع التنفيذ فهو كما قلنا من قبل ـ عاص ظالم فاسق حسب ما بين علماء الأمة وليس بكافر كفراً يخرج من الملة.

قال سعيد بن جبير: مما يتبع الحرورية من المتشابه قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ويقولون معها: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ مع أن الكفر هـنا دون الكفر هناك كـما قال ابن عـباس فى تفـسيره للآية، قـال: إنه ليس بالكفر الذى يذهبون إلـيه، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة، إنه كفـر دون كفر[2] بل روى ابو داود أن تلك الآيات نزلت فى اليهود خاصة فى قريظة والنضير[3].

وهكذا ترى فقه البنا ودقة حكمه حين قال: لا نكفـر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ـ برأى أو معصـية ـ إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن،أو فسـره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر.

فرضى الله عليك يا إمام وأرضاك وألحقنا الله بك فى الصالحين. آمين.

* * *

(١) دعاة لا قضاة للأستاذ حسن الهضيبى رحمه الله.

(٢) مستدرك الحاكم جـ٢ ص ٣١٣.

(٣) أبو داود جـ ٢ ص ١١٤ الساعاتى من كتاب البدعة للدكتور عزت عطية ص ٤١٦.

خاتمة

لم كانت هذه الأصول؟

إن مَنْ يتدبر هذه الأصول العشرين التى حددها الإمام البنا ـ رحمه الله ـ للفهم يجد أمامه منهجا متكاملا فى المعرفة فهو يحدد لك مصادر التلقى ويستبعد أمورا لا تعتبر أدلة للأحكام، ولا يتجاهل دور العقل فـى الحوار ويعتبره جزءا من أجزاء المعرفـة إن استخدم فى مجاله وفكر بأسلوب علمى منهجى مع التـأمل فى خلق السموات والأرض وما خلق الله فيهما، لأن من المعارف ما لا سبيل للحصول عليه إلا بالتعرف على أسرار المخلوقات واكتشاف قوانينها وسننها، والتى ارتضتها حكمة الله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت: ٢٠].

وليس التعرف على السنن وقوانين الخلق هى السبيل الوحـيد للحصول على المعرفة الشاملة دون سـواها بل هناك الإيمان الصادق، والعـبادة الصحـيحة والمجـاهدة لها نور يقذفه الله فى قلب من يحب من عباده فيزداد علما ويقينا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

ثم ينتقل بك الإمام من فنن إلى فنن ومن غصنٍ إلى غصن فى شجرة وارفة الظلال عطرية النسيم وشـهية الثمر أصلهـا ثابت وفرعها فى السمـاء توتى أكلها كل حين بإذن ربها فـيبين لك دور الإمام فـيما لا نص فيـه، وأن كل أحد يؤخذ من كـلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ ويحثك على تحصيل العلم للوصول إلى درجة النظر بشروطه وقواعده.

ويؤكد لك أن العقيدة أساس العـمل وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، ويضبط لك مـوازين الأمور لـيحـدد لك الحـد الفاصل بـين الكفر والإيمان إلـى غيـر ذلك من الموضوعات الدقيقة التى إن واعـاها المسلم وسار على هداها كان على بصيرة من دعوته تعريفا وتكوينا وتنفيذا.

ذلك لأن طبيعـة الإسلام أنه فى معركـة مستمرة ذات جـوانب متعددة مـعركة مع الانحراف عن التـوحيـد لتحرير العـقول من الشك والشـرك والخرافة والوهم والجـمود وموروثات الباطل وتقليد الآباء فى الضلال ، ومـعركة مع النفوس والضمائر ترمى إلى إقامتـها على منهج الفطرة السوى فى صفـائه ونقائه ونوره حتى لا يستـبد بها الأهواء، ومعركة مع الأوضاع الفـاسدة فى علاقات البشر وشئون الحكم والتـربية ونظم الاجتماع والاقتصاد وسـائر دروب الحياة الإنسانية ولا يمكن أن يميـز المسلم الخبيث من الطيب إلا بالفهم السليم للإسلام فكانت هذه الأصول.

تحديد الشخصية المسلمة: كانت هذه الأصول لتحدد للشخصية الإسلامية طريقها حتى لا تضل الطريق إلى الهدف المنشود: توجهها عقائد الإسلام وتحكمها شرائع الإسلام، وتقودها مفاهيم الإسلام، وتسودها أخلاق الإسلام، وتسيطر عليها تقاليد الإسلام، وتسرى فى جنباتها روح الإسلام فتصطبغ بصبغة الإسلام، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[البقرة:١٣٨].

وذلك أنه قبل قيام المجتمع المسلم لابد أن يسبقه إسلام الفكر وإسلام النفس، وإسلام السلوك حتى يتأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ويقوم تشريعه وتوجيهه كله على قواعد الإسلام، وتشيع القيم الإسلامية فى نواحيه، وتسرى فى كيانه كله كالدم فى العروق يبعث الحياة.

وهنا يبرز معدن المسلم المتميز ذى الشخصية الأخلاقية التى افتقدناها فى زماننا هذا صاحب الأيدى المتوضأة، و القلب العامر، والنفس الأبية وهو مع إخوانه يمثل الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى فإذا بهم جماعة تتحلى بقوة إيمانية ونفسية عالية تتمثل فى إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به، وتقدير له يعصم من الخطأ فيه، والانحراف عنه، والمساومة عليه والخديعة بغيره.

هذه الأصول ليفهم الشباب أن أولى الخطوات لإقامة الدولة هذه اللبنات التى أسست على هذا الفهم الدقيق من غرس للمبادئ وتغذية للروح، ولباس التقوى وزاده فإن المسلم كالمصباح إذا نفد زيته أنطفئ.

لسنا طلاب سلطة:

وهنا يظهر أهمية الفهم الدقيق أننا لسنا طلاب سلطة ولا نعمل على الاستيلاء عليها؛ لأن هناك فرقا كبيرا بين الاستيلاء على السلطة وإقامة شرع الله على الأرض فالأولى فيها إكراه للناس عليها فتحل سلطة تكره الناس على الحق ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ مكان سلطة كانت تكره الناس على الباطل والمولى يقول: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

إن القرآن يلفت النظر إلى هذه الحقيقة فيعبر تعبيرا دقيقا يقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وقف طويلا أمام قوله ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ لتعلم أن الإقامة للدين غير

الاستيلاء على السلطة، فالإقامة للدين تطلب مجاهدة لـلنفس، وإنكاراً للذات، والتصدى للشهوات وذلك كله يتحقق بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور فإذا أنعم. عليك شكرت وإذا ابتلاك صبرت، وإذا أذنبت استغفرت هنا يتحقق فيك القلب السليم فيرضى الله عنا وعنك﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾[الفتح: ١٨].

إن الضعف لا ينتصر على القوى والقليل على الكثير، والأعدل على المسلح إلا إذا تحققت معية الله فيتم النصر، ولن يتنزل النصر إلا إذا كان الله معك ولن يكون الله معك إلا إذا حققت ما أراد» وقال الله ﴿ **إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾[المائدة: ١٢] فكان ولابد من بناء الشخصية قبل بناء الدولة ولن يكون ذلك إلا بالفهم الدقيق ولذلك طالت مرحلة البناء فى مكة ليربى رجالا يقيمون بناء يجمعهم صحة الاعتقاد وصدق الاتباع بفهم سليم ولذلك كانت هذه الأصول.

مسلم اليوم:

إن مسلم اليوم تتجاذبه تيارات ضخمة تعكس فى أعماقه صراعا داخليا عميقا، فهو بفطرته يحن إلى إسلامه وماضيه، وهو بواقعه خاضع لمؤثرات فكرية غربية وشرقية، وإذا نظرنا إليه وجدناه يعيش فى كل جانب من جوانب حياته نكسة خطرة لعل أبرزها وأوضحها أنه بُعد عن الفهم السليم للإسلام فتلاشت دولته التى أرادها له المولى وهذه سنة من سنن الله: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾[الإسراء: ١٦].

وإنسان هكذا يعيش إنتكاسة فى روحه ووجوده مضطربا تائها تتجاذبه المذاهب والفلسفات، مقطوع الصلة بالله لا يعرف دوره فى الحياة ولا يدرك غاية وجوده لابد له من أن تصحح له المفاهيم ويوضح له التصور وتحدد له معالم الطريق حتى ينتصر فى معركة الحياة والوجود فكانت هذه الأصول.

إن أول الخطى على الطريق أن نعلم أن الحكم الإسلامى فريضة والطريق إليه واجب، والتخلف عنه إثم عظيم، فهو مآل الرجاء وغاية الاطمئنان؛ ولذا لابد أن يقرر المسلم أنه خليفة الله فى الأرض ليقيم حضارة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ولا يتحقق ذلك إلا بالفهم الدقيق والإيمان العميق والحب الوثيق والوعى الكامل،

والعمل المتواصل، فكانت رسائل البنا رضوان الله عليه وفى مقدمتها رسالة التعاليم التى منها هـذه الأصول العشـرين فجـزى الله عنا الإمام الشـهيد خـير مـا يجزى به عـباده الصالحين وجـمعنا وإياه فى مستـقر رحمتـه مع النبيين والصديقين والشهـداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيا: التفاسير.

١ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير.

٢ـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن ـ الإمام المفسر أبى جعفر بن محمد بن جرير الطبرى.

٣ ـ جامع الأحكام ـ للقرطبى.

٤ـ أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين الشنقيطى.

٥ـ صفوة التفاسير ـ الشيخ محمد على الصابونى.

٦ـ فى ظلال القرآن ـ سيد قطب.

ثالثا: السنة المطهرة والحديث.

١ـ صحيح البخارى ـ الإمام البخارى.

٢ـ صحيح مسلم ـ الإمام مسلم.

٣ـ الترغيب والترهيب ـ المنذرى.

٤ـ سنن الدارمى ـ للدارمى.

٥ـ رياض الصالحين ـ للنووى.

٦ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ الشيخ ناصر الألبانى.

٧ـ السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ـ للدكتور مصطفى السباعى.

رابعا: السيرة وفقهها.

١ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام

٢ـ فقة السيرة ـ للبوطى.

٣ـ فقه السيرة ـ الشيخ محمد الغزالى.

٤ـ حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوى.

٥ـ من روائع البيان النبوى ـ مصطفى عبد الواحد.

٦ـ الشفا ـ للقاضى عياض.

خامسا: الفقه وأصوله وما يتصل بها.

١ـ الفتاوى الكبرى ـ لابن تيمية.

٢ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ لابن تيمية.

٣ـ أعلام الموقعين ـ لابن القيم.

٤ـ القواعد ـ العز بن عبد السلام.

٥ـ المدخل الفقهى العام ـ مصطفى أحمد الزرقا.

٦ـ أصول الفقه ـ الشيخ عبد الوهاب خلاف.

٧ـ أصول الفقه ـ الشيخ محمد أبو زهرة.

٨ ـ فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق

٩ ـ بيان النصوص التشريعية ـ الشيخ بدران أبو العينين.

١٠ـ التسهيل لعلوم التنزيل ـ ابن جزى.

١١ـ التشريع الجنائى فى الإسلام ـ عبد القادر عوده.

١٢ـ التشريع والفقه فى الإسلام ـ الشيخ مناع القطان.

١٣ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطى.

١٤ـ البرهان ـ للزركشى.

١٥ـ الموافقات ـ للشاطبى.

١٦ـ فتاوى ابن الصلاح ـ لابن الصلاح.

١٧ـ الفتاوى ـ للشيخ محمود شلتوت.

١٨ـ الحلال والحرام ـ للدكتور يوسف القرضاوى.

١٩ـ روائع البيان ـ الشيخ محمد على الصابونى.

٢٠ـ الأحكام ـ للآمدى.

٢١ـ المدخل للفقه الإسلامى ـ للأستاذ محمد سلام مدكور.

٢٢ـ المدخل للفقه الإسلامى ـ للأستاذ عيسوى أحمد.

٢٣ـ تاريخ الفقه الإسلامى ـ محمد السايس.

٢٤ـ سبل السلام ـ للصنعانى.
٢٥ـ الرسالة ـ للإمام الشافعى.
٢٦ـ الإحكام فى أصول الأحكام ـ لابن حزم الظاهرى.
٢٧ـ التنبيه على أسباب الاختلاف ـ للفقيه البطليموسى، تحقيق الدكتور أحمد حسن خليل، وحمزة عبد الله النشرتى.
٢٨ـ ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ـ للدكتور عبد الجليل عيسى.
٢٩ـ الإنصاف فى الأسباب الداعية للخلاف ـ لابن السيد.
٣٠ـ الفقه المقارن ـ حسن الخطيب.
٣١ـ كتاب الشهاوى ـ إبراهيم الشهاوى
٣٢ـ المجموع للنووى ـ تكملة الشيخ محمد نجيب المطيعى.
٣٣ـ التحف فى مذهب السلف ـ للشوكانى.
٣٤ـ الموطأ ـ للإمام مالك.
٣٥ـ المدخل ـ لابن الحاج.
٣٦ـ مجموعة رسائل ابن عابدين ـ ابن عابدين.
٣٧ـ فتاوى العلامة قاسم ـ للعلامة قاسم.
٣٨ـ نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى ـ للدكتور حسين حامد.
٣٩ـ الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية وبحوث أخرى بحث الدكتور عبد الرحمن عميرة.
٤٠ـ الفروق ـ للإمام القرافى.
٤١ـ تحفة البديع ـ للبراد.
٤٢ـ المذهبية أخطر بدعة ـ محمد سعيد البوطى.
٤٣ـ التمهيد فى تخريج الفروع على الأصول ـ للشيخ عبد الرحمن الإسنوى.
٤٤ـ تخريج الفروع على الأصول ـ للشيخ محمود الزنجانى.
٤٥ـ الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف ـ للشيخ ولى الله الدهلوى.
٤٦ـ أسباب اختلاف الفقهاء ـ للشيخ على الخفيف.

٤٧ ـ أسباب اختلاف الفقهاء ـ للدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى.
٤٨ـ القواعد والفوائد الأصولية ـ لابن اللحام.
٤٩ـ نظرة عامة فى تاريخ الفقه ـ على حسن عبد القادر.
٥٠ـ محاضرات فى المدخل لعلم الفقه ـ عبد الرحمن الصابونى.
٥١ـ تاريخ التشريع الإسلامى ـ عبد الوهاب خلاف.
٥٢ـ معا على طريق الدعوة ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ والإمام حسن البنا ـ محمد عبد الحليم حامد.

سادسا: كتب أخرى متنوعة لها اتصال بالأصول العشرين.

١ـ الإصابة فى تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلانى.
٢ـ إحياء علوم الدين ـ للإمام الغزالى.
٣ـ مدارج السالكين ـ لابن القيم.
٤ـ جمع الفوائد ـ لابن القيم.
٥ـ أمراض القلوب ـ لابن القيم.
٦ـ إغاثة اللهفان ـ لابن القيم.
٧ـ مفتاح دار السعادة ـ لابن القيم.
٨ـ الجواب الكافى ـ لابن القيم.
٩ـ قاعدة جليلة فى التوسل ـ ابن تيمية.
١٠ـ اقتضاء الصراط المستقيم ـ ابن تيمية.
١١ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية ـ للإمام شمس الدين بن عبد السلام الحنبلى.
١٢ـ الحلية ـ لأبى نعيم.
١٣ـ تنبيه الغافلين ـ للسمرقندى.
١٤ـ معترك الأقران فى إعجاز القرآن ـ للسيوطى.
١٥ـ جامع بيان العلم وفضله ـ لابن عبد البر.
١٦ـ الاعتصام ـ للشاطبى.

١٧ـ تحذير المسلمين من الابتداع والبدع فى الدين ـ لابن حجر.

١٨ـ عقيدة المؤمن ـ الشيخ أبو بكر الجزائرى.

١٩ـ الإنصاف فيما قيل فى المولد من الغلو والإجحاف ـ الشيخ أبو بكر الجزائرى.

٢٠ـ العلم والعلماء ـ الشيخ أبو بكر الجزائرى.

٢١ـ تبسيط العقائد ـ الشيخ حسن أيوب.

٢٢ـ تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ـ الشيخ حسن السندوبى.

٢٣ـ البدعة وموقف الإسلام منها ـ الدكتور عزت عطية.

٢٤ـ الإبداع فى مضار الابتداع ـ للشيخ على محفوظ.

٢٥ـ حكم الإسلام فى التوسل ـ الشيخ محمود حسنين مخلوف.

٢٦ـ التوسل وأنواعه وأحكامه ـ الشيخ ناصر الدين الألبانى.

٢٧ـ المذاهب السياسية ـ الشيخ محمد أبو زهرة.

٢٨ـ البدعة والمصالح المرسلة ـ الدكتور توفيق يوسف الواعى.

سابعا: كتب أخرى فكرية ودعوية.

١ـ مجموعة رسائل الإمام البنا ـ للإمام حسن البنا.

٢ـ دروس الثلاثاء ـ للإمام حسن البنا.

٣ـ دعاة لا قضاة ـ للإمام حسن الهضيبى.

٤ـ العقيدة الإسلامية فى المرآة ـ للأستاذ عبد العزيز عطية.

٥ـ الإسلام فكرة وحركة ـ فتحى يكن.

٦ـ الدولة فى الإسلام ـ خالد محمد خالد.

٧ـ الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ـ محمود عبد الحليم.

٨ـ فقه التدين فهما وتنزيلا ـ الدكتور عبد المجيد النجار.

٩ـ الحكم وتكفير المسلم ـ سالم البهنساوى.

١٠ـ الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ـ عبد الرحمن عبد الخالق.

١١ـ دستور الوحدة الثقافية ـ الشيخ محمد الغزالى.

١٢ـ واقعية المنهج القرآنى ـ الشيخ توفيق محمد سبع.
١٣ـ منهج القرآن فى التربية ـ محمد شديد
١٤ـ فقه الدعوة ملامح وآفاق ـ مجموعة أبحاث ـ بحث الدكتور يوسف القرضاوى.
١٥ـ المذاهب السياسية ـ الشيخ محمد أبو زهرة.
١٦ـ منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام ـ جمعه أمين عبد العزيز.
١٧ـ الدعوة قواعد وأصول ـ جمعه أمين عبد العزيز.
١٨ـ دائرة معارف القرن التاسع عشر ـ (الإسلام دين خالد).
١٩ـ لمحات من الثقافة الإسلامية عمر عودة الخطيب.

* * *
* *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الأصل السابع: المذهبية ودرجة النظر ـ أو الاجتهاد والتقليد

الأصل الثامن: ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الأصل الثامن عشر: استخدام العقل فى التفكر والتدبر فى الآفاق واحترام العلماء

الأصل التاسع عشر: النظر الشرعى والنظر العقلى

الأصل العشرون: الحد الفاصل بين الكفر والإيمان

الموضوع	الصفحة

